نوافذ على العالم

د. بشير العظمة

بعد نصف قرن ويزيد من الصراع العربي الاسرائيلي ، وبعد ماندعوه بالنكسة الأخيرة ، لابد لنا من أن نتبين مواقعنا الجديدة في صراعنا الطويل ، ونحاسب أنفسنا عن الأسباب الحقيقية للانتكاسات المتكررة التي تكاد تزعزع ايمان أكثرنا حماسة بعدالة قضية ترتبط بالوجود العربي الانساني والقومي .

ونعمد دفاعا عن انفسنا فنتهم العالم كله بالتآمر علينا ونشتم الجميع ، أونقول إن هذا العالم مخدر أو مسحور أو مشترى ومسخر لمال الصهيونية وارهابها وتآمرها .

لايكن للعزلة والشتيمة الا أن تحقق لاسرائيل ماتريد ، ولايمكن لحقنا أن يكسب الأنصار الا اذا عرضناه على العالم ايجابيين واقعيين ومتفاعلين مع الأحداث .

واذا أردنا تعداد العوامل التي تجعل الرأي العام العالمي في معظمه الى جانب الباطل الاسرائيلي فان بالامكان الاشارة الى الأسباب التالية :

أولاً : نحن نجهل واقع عدونا ونبالغ بتقدير امكانياتنا

لقد اعتمد العرب منذ بدء الغزوة الصهيونية لفلسطين مبدأ : من ليس معنا فهو عدو لنا ومتآمر علينا ؛ وتجاهلنا في سياستنا الاعلامية وجود اسرائيل . ولم نحاول أن نتصل مع شعوب العالم أونتعامل مع منظمات وهيئات عالميـــة ؛ فانكمش الرأي العام العالمي عنا .. ليس الصهاينة الغزاة تجمعاً لملايين اليهود ممن عاشوا في البلاد العربية بسلام حتى قبل الاسلام ؛ ان غزاتنا عنصريون ،متعصبون تشد أزرهم منظمات سرية وعلنية في العالم ضاقت بهم أوطانهم فنزعوا الى الغزو الاستعماري ، ويغذي روتشيلد وموروغان وداسو وغيرهم من كبار بيوتات المال الغربية غزوة الصهيونية لفلسطين لتحمي لهم احتكارات البترول وممرات المياه في المنطقة .

وقبل أن أسترسل في الحديث ، أريد أن أؤكد ايماني المطلق بأن صمود العرب في اطار قومي شامل وأعني الوحدة العربية الواعية لواقعها وواقع اعدائها ، والمعتمدة على مشاركة الجماهير العربيــة في الوطن العربي الكبير لدرء الخطر عن الجميع ، ان هذه القومية الصاعدة هي المنتصرة بحتمية علمية تاريخية . ذلك أن حركة الصهيونية العالمية التي تتحدى القومية العربية هي الى انحسار في العالم أجمع ، بينما القومية العربية الى تماسك وتفاعل

ايجابي مع هذا العالم أيضاً ، وسوف يذيب الخضم العربي بكتلته البشرية وتصميم أبنائه غزوة صليبية جديدة تحاول أن تعيد عقارب التاريخ عدة قرون الى الوراء .

ومن أبرز الأخطاء التي ارتكبت مايلي :

آ – في المجال العربي :

لقد حجبت عن الرأي العام العربي مصادر البحث العلمي عن واقع اسرائيل اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ، حتى بتنا نعتقد بأن الزمن حليف لنـا وأن اسرائيل ستأكل نفسها بنفسها وتدعونا مترحمة أن نعود الى أرضنا بعد رحيل المغتصبين ! !

ونحن نمارس دون هوادة اضطهادا للفكر العربي وعلى مستوى الوطن العربي بكامله ، حتى أصبح يفسر الكلام عن الواقعية والعلمية والانفتاح على العالم بأنه تآمر وانهزامية وعمالة .

ب – في المجال الدولي :

لقد بدلنـا خلال الأعوام الأخيرة من شعاراتنا ، وقد أثار كل ذلك الاقليمية والطائفية والعشائرية بين مختلف البلاد العربية وحتى في كل قطر على حدة أيضاً .

انني مؤمن بأن وحدة الهدف ووحدة العمل والتنسيق بين البلاد العربية على اختلاف مراحل تطورها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي هي الركائز الممكنة حالياً للعمل العربي الموحد ضد الغزوة الصهيونية الاستعمارية .

وصراع القومية العربية مـع الصهيونية العالمية كاشف حتما للأصدقاء والأعداء الحقيقيين من بين العرب وغيرهم .

اننا نتكلم لفئات مختلفة في المحافل الدولية ، ونبدو دائماً حائرين مترددين عندما يسألنا الآخرون : لقد وجد مجتمع يهودي بالحق او بالباطل ، بالغزو او بالتسلل ، وأقام دولة اعترفت بها الأمم المتحدة بتآمر دول او تحت ضغط العطف على اليهود الذين هددتهم النازية بالفناء ؛ فماذا أنتم فاعلون بالمليونين من اليهود الذين استوطنوا اسرائيل ، ومنهم من ولد فيها ؟!

لا نفع من العودة لتكرار القرارات الجائرة التي اتخذت في ظروف نفسية تاريخية معروفة ، ولا يغير من جوهر السؤال القول بالعودة الى قرارات رفضناها محقين في حينه ، وكذلك تعطي الأجوبة الحماسية غير المسؤولة حجة تستخدم ضد قضية العرب الحقة . فقد قال احدهم جواباً على هذا السؤال وفي ثورة كلامية ... « وهل تظن ان سيبقى الكثيرون منهم بعد أن تبدأ حرب التحرير ؟!! »

لقد استخدمت وسائل الاعلام الصهيونية ، وفي مستوى عالمي هذا الكلام وترجمت أغانينا وأحاديثنا المسجلة لتظهر العرب بأنهم ورثة النازيين المضطهدين لليهود . واصبح الشعب العربي الذي يشرده العدوان ويطرده من أرضه هو الشعب الغاصب المعتدي في نظر شعوب العالم .

فنحن نطلق أبشع النعوت على من يخالف ما نعتقد بأنه الصواب ونتقلب متطرفين في الاتهام او البراءة ، وبين ليلة وضحاها ، مابين الخيانة والبطولة .

وكل مواطن معرض وبكل بساطة وسهولة لأن يوصم بالخيانة او العمالة اذا خالف في الرأي أو وقف في غير المكان الذي يقف فيه الآخرون . وبمراجعة بسيطة لتاريخ الأفراد وعلى جميع المستويات ندرك النتائج الخطيرة لكل ذلك في الوطن العربي وفي العالم اجمع ؛ ونتيجة لذلك انكمش اصحاب الرأي في البلاد العربية وتركوا قضية الوجود العربي تحت رحمة انفعالات العواطف السياسية الجامحة .

لقد فقد المواطن العربي ايمانه بنفسه ويكاد يفقد الايمان بقضية وجوده ؛ فهو ينتقل في اليوم الواحد مع ابرة جهـــاز الاذاعة بين شعارات عربية متبدلة متناحرة غالباً ، ويقابل ما تقول بما تذيعه اسرائيل او لندن وهي تقرأ علينا كل يوم سموم صحفها وما نشر من اقوال معادية للعرب في صحف العـالم . ويتساءل كل انسان عاقل : وما نفـع الرقابة تمنع صحفاً عربية او غير عربية تخالفنا في الرأي طالما أن الاذاعات لا تطلب الأذن بالمرور من الحدود !! ، ان النتيجة العملية لمنع الكتب والصحف التي لاتقول بما نعتقده اليوم صواباً وغدا ضلالا ، النتيجة العملية لذلك هي حرمان المثقفين العرب من مصادر البحث ، حرمان طلاب الجامعات وخريجيها من امكانية متابعـة ما يجري في العالم وما هو مرتبط بقضية المصير العربي في فلسطين. لا تزول اسرائيل اذا محونا اسمها من الموسوعات والخرائط ولا اذا خلت مكتباتنا من أية مجلة او كتاب فيه اسم اسرائيل . يقابل ذلك أن معظم المثقفين من اليهود يتقنون اللغة العربية وأن عديدين منهم اخصائيون في التاريخ والأدب والآثار العربية .

وايضاحاً لما أريد لست أدعو لفتح الأبواب تماماً لكتب التضليل والدعاية المجرمة ، ولكني أدعو على الأقل لفتح النوافذ للآراء المرضية ولو خالفت بعض مانراه حقاً مطلقاً .

ثانياً : عدم تكافؤ القوى والامكانيات في الصراع العربي الصهيوني :

غزاة أرضنا العربية استطالات أخطبوط عالمي رأسه في مراكز القيادات السياسية الاقتصادية والفكرية في العالم الغربي ، في أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية وغيرها من معاقل الامبريالية ، وقد تحركت هذه القواعد عفوياً قبـــل وأيام الحرب الأخيرة ، فدعمت اسرائيل بكل ما في قدرتها من رجال ومال وعتاد ،

ومهدت للغزو بالتضليل والخداع ، ولاتزال تفعل كل ذلك لمكن الغزاة من أرضنا ومن شعبنا .

ان اليهود في العالم قطاع من رجال الفكر والمال والعمل ، فهم بحكم منبتهم وثقافتهم أقدر منا على مخاطبة أبناء أوطانهم بلغة يفهمونها . ومن بين يهود العالم عدد كبير من أساتذة الجامعات وقادة الفكر ومن المحاربين الذين قاتلوا في جيوش الحلفاء وفي صفوف مقاومة النازية أيام الاحتلال .

وقد تجاوب العرب أيام الحرب العالمية الأخيرة منفعلين مع النازية في عدائها لليهودية ، وقد دفعهم لذلك أيضاً عداؤهم للاستعمار البريطاني والفرنسي وتصوروا أن في نصر الهتلرية خلاصاً من اعدائهم جميعاً يمثلهم استعمار قائم « بريطانيا وفرنسا » ، واستعمار قادم « أمريكا والصهيونية » .

وركبت الصهيونية موجة اللاسامية بعد هزيمة الهتلرية لتركز على القول أن العرب ورثة حركة اللاسامية في العالم .

يفرض علينا الواقع بأن نعترف بأننا متخلفون عن ركب الحضارة الغربية وأننا ننتسب الى دول العالم الثالث الذي ينفض عن نفسه أثقال قرون طويلة من الاستعمار والتبعية ؛ واعترافنا بالتخلف الحضاري لايمكن أن يكون مبرراً لاحتلال أرضنا وتشريد شعبنا ، فلا يعطي التفوق العلمي والتقني لأي شعب الحق في استعمار الآخرين ، ولو كان الأمر كذلك لكان من حق أمريكا احتلال أوروبا مثلاً لأنها أقدر على استثمار مواردها من شعوب أوروبا .

ثالثاً : خسرنا الرأي العام العالمي منذ بدء صراعنا مع الصهيونية ولم نبدل من أساليب التفكير والعمل رغم التبدلات الكبيرة في الظروف والأوضاع العالمية .

كشفت اسرائيل عن حقيقتها في حربين صريحتين ضد العرب خلال

الأعوام العشرة الماضية . فكانت أداة طيعة بيد الامبريالية العالمية وفي خدمة مصالحها . ورغم ذلك فانا لانزال نتكلم ونتصرف بحماس عاطفي ، منغلقين على أنفسنا يائسين من امكانية كسب الآخرين ، رغم وضوح حقنا في الحياة ، ونحن في عصر ينحسر فيه الاستعمار حتى عن اكثر المناطق العالمية تخلفاً . انا لانزال نتصرف في الصراع العربي الصهيوني و كأن القضية بيننا وبين طلائع الصهيونية المستوطنة في اسرائيل . ان الصراع العربي الصهيوني قضية عالمية ، تمس شعوب العالم أجمع ، ولابد لربحها من كسب تأييد رأي عالمي في معظمه مخدوع ومضلل بدعاية مركزة يقابلها غباء غير مبرر .

يتميز التاريخ الأوربي وفي جميع الأقطار باضطهاد اليهود وبمذابح اليهود وبالتعصب ضد اليهود، وتلاقى الاوروبيون الراغبون بالخلاص من اليهود والطامعون باستخدامهم رأس حربة ضد حركات التحرر العربي ، تلاقى هؤلاء وأولئك مع المشاعر الانسانية ضد افران الحرق والابادة التي مارستها النازية، فقالوا بالوطن القومي اليهودي وفي فلسطين بالذات، فلما تمرد العرب على ارادة الغزاة الاوروبيين اتهموا بالعداء للسامية ذلك انهم رفضوا قبول التشرد والتنازل عن ارضهم للغزاة الوافدين من خلف البحار !! .

وهكذا كانت اسرائيل قادرة على تبرير عدوانها المتكرر على العرب حتى صفق العالم للغزاة و كأنه يشهد مرة ثانية ويتشفى من مصرع النازية على أيدي الذين كانوا ضحاياها .

أوليس عجباً أن نرى أوساط اليسار الاوروبي في فرنسا وايطاليا وغيرها من بلاد العالم تعمى فلا ترى التلاحم والتآمر بين الامبريالية والصهيونية تغزو الأرض العربية سافرة مرتين خلال عشر سنوات ؟

وفي النكسة الأخيرة حشدت صحف العالم واذاعاته المئات من المراسلين هيأتهم قبل العدوان الغادر كجزء من المأساة الانسانية في الغزو الصليبي . ولم نشهد أو نسمع عن مراسل واحد شرقي أو غربي ينقل صوراً عن ضحايا العدوان !

ان كل ذلك يؤكد بأن عزلتنا العالمية وعدم تفاعلنا مع رأي عام عالمي، هو الى جانب الحق إذا عرض عليه الحق بمنطق مفهوم ، مما من الأسباب الحقيقية لمناصرة هذا الرأي العام للباطل الصهيوني . ان هذا الرأي العام العالمي هو الذي يقف الى جانب فيتنام ويتعاطف معها ؛ وكذلك فان هذا الرأي العام العالمي يقف مع سكان جنوب افريقيـا ويدين التفرقة العنصرية في روديسيا ولا يسمح لحكام هذين البلدين بالوقوف على منابر الأمم المتحدة كما يفعل مندوبو اسرائيل غداة العدوان .

وقد ناصر هذا الرأي العام العالمي قضية الجزائر حتى في عاصمة فرنسا بالنشر والتظاهر حتى كسبت استقلالها .

لست أريد الاسهاب في شرح وتحديد الأساليب الواجب اتباعها في سياسة الاعلام الداخلية والخارجية، فان ذلك شأن المسؤولين عنها ولكني أريد من كلمتي أن ننتهي الى ضرورة تبديل الأساليب التي اتبعت حتى الآن والتي كشفت النكسة الأخيرة عن فشلها .

فمعركة الاعلام جزء رئيسي من الصراع المرير مع أعداء وجودنا القومي والانساني . فاذا انتهينا بعد ذلك الى اقرار ضرورة الانفتاح، فاني أقدم فيما يلي ترجمة لبعض المقالات المنشورة في صحف ومجلات فرنسية .

وقد لانجد في بعض المقترحات مايتفق كاملا مع مانريد ،ولكنها في مجملها دراسات منطقية واقعية تنقل قضيتنا في الوسط الغربي الى مجالات الجدل المعقول

وهو طريقنا لكسب الصداقات والنفوذ الى الضمير والرأي العام العالمي يتعرف فيه الى حقيقة المأساة العربية .

وأخيراً فاني واثق من أن في قراءة هـــذه الترجمة نفعاً للكثيرين ممن لايرون في الغرب الا شعوباً وحكومات متآمرة علينا خاضعة جميعاً للنفوذ الصهيوني .

وقد تخفف هذه المقالات من الألم اليائس يشعر به المواطن العربي اذ يسمع تصريحاً لهيوبرت همفري نائب رئيس الولايات المتحدة عندما يقول «يذكرني النصر الاسرائيلي بأمجاد جدودي !! » .. جـــدوده غزاة أمريكا الذين أبادوا سكانها الهنود الحمر ، بينما يعيش أخوة لهم في أمريكا الجنوبية بشرا سويا رغم لون الجلد المختلف ، هؤلاء العنصريون الذين يعتبرون اسرائيل ولاية رقمهـــا الواحد والخمسون .

لايجوز للموجة العالمية أن ترهقنا فنستسلم باليأس في قضية هي في واقعها قضية الحق الانساني ، قضية العالم الثالث ، يدافع للتحرر والخلاص من التسلط والتبعية .

* * *

وختاما قدم بعضا مما انتقيت . وأبدأ بمـا نشره الاستاذ رودنسون — أستاذ علم الاجتماع في جامعـــة السوربون في باريس تحت عنوان : « حرب أم سلام » (نشر في جريدة الموند الدبلوماسية تموز ١٩٦٧) :

لقد غدت المشكلة الاسرائيليـة العربيـــة أكثر تعقيدا وصعوبة بعد الحرب الأخيرة ، ويبدو أن « خطوط وقف اطلاق النار » هي مراكز جديدة بديلة عن خطوط هدنة عام ١٩٤٩ ومعنى ذلك أن المشكلة لازالت معقدة اكثر مما كانت عليه قبل تسعة عشر عاما .

ويتساءل الاوربيون لماذا لايقبل العرب سياسة المصالحة كما فعل لينين في «بريست ليتوفسك» وكما فعل العديدون من قادة أوروبا عبر التاريخ القديم والحديث؟ لماذا يرفضون التعامل مع أعدائهم، ولن يمنعهم ذلك من أن يهيئوا أنفسهم ويستفيدوا جيدا من فترة المهادنة للأخذ بالثأر عندما تتوفر الفرص الكافية، وبعدها قد تصبح فكرة الثأر غير واردة ايضا؟

ان الحل الأمثل هو التعايش السلمي بمعناه الواسع والحقيقي.

ان حرب الأيام الستة واحتلال اسرائيل لأراض عربية جديدة قد خلق ظروفا غاية في التعقيد تجعل هذا التعايش السلمي غير ممكن.

وقد يتصور البعض أن ضغطاً تمارسه الدول الكبرى في العالم على الطرفين قد يؤدي الى مفاوضات للصلح، ويعني ذلك اعتراف حكام الدول العربية باسرائيل.

ان الصلح المفروض غير ثابت والسلام بين الطرفين مهدد في كل لحظة اذا لم تتحقق ظروف جديدة من قبل اسرائيل.

واني أقول من قبل اسرائيل ذلك أن الحد الأدنى الذي تقبل به اسرائيل مقابل تنازلاتها اعتراف العرب بالدولة الاسرائيلية.

واسرائيل لايمكن أن تحقق الظروف الملائمة للصلح مع العرب الا باجراءات جذرية عديدة ومديدة. وتهدف في مجملها الى مايدعى باللاصهيونية لاسرائيل. ان السمعة الاستعمارية لاسرائيل، وهي جزيرة استعمارية أنشئت بالقوة في وسط عالم عربي متخلف، وبقاؤها مرتبط بالمساعدات المستمرة من العالم الغربي؛ واسرائيل التي تنادي بالهجرة المحدودة لاثنى عشر مليون يهودي يقطنون أنحاء العالم، ان هذه الدولة في أوضاعها الحاضرة لايمكن لها أن تتماسك الا اذا استمرت سياستها في اتجاهها الصهيوني

الحالي ؛ ونتيجة كل ذلك واستمرار العدوان والصراع هو الخراب المحزن الذي حل في المنطقة في القرون الوسطى أيام الغزو الصليبي . وكذلك اعتمدت الغزوات والاستعمار أيام الصليبيين على السند الغربي الدائم يمدها بالمال وبالسلاح والرجال . وتمكن الصليبيون من الاحتفاظ بانتصاراتهم حتى تمكن جيرانهم من أن يتسلحوا ويتحدوا بشكل انتهى بالقضاء على الغزاة .

ان تراخي الدعم الخارجي يخفف من حدة العصبية الصهيونية ويعجّل في تشريق اسرائيل وهو ماتخشاه النخبة المثقفة فيها . ورغم كل شيء فان المستعمرين القادمين من الخارج هم منذ الآن أقلية في اسرائيل . ان كل ذلك يسمح لنا بأن نعتقد بامكان اقامة رقابة على الهجرة ، وربما يصبح ذلك ممكنا بواسطة سلطة لمنظمة اقليمية ، فاذا تم تحديد الهجرة أصبح بالامكان انهاء التهديد المستمر الذي يشعر به العرب والذي ينطوي على تهديد مستمر بالعدوان التوسعي .

ان الخلاص من الفكرة الصهيونية والتي تتستر بأسانيد تاريخية « أرض تم احتلالها قبل ألفي عام » والتي تقول بأن مستند اسرائيل في حقها بالأرض حق أزلي غير قابل النقض ، ان الانطلاق في بحث المشكلة بعيدا عن هذه المنطلقات يجعل بالامكان قيام حوار قد يتقبله العرب : أي قيام مستعمرة مع تعويض مقابل يطالب المستعمرون من السكان الأصليين أن يقبلوا التعايش معهم . واذا كان في انحسار اللاسامية عن أوروبا مقدمة لانتهائها تاريخيا فسيكون ذلك ايضاً عاملا ايجابيا مساعدا . ورغم كل شيء علينا أن نذكر بأنه قبل عهد هتلر ترك عدد من اليهود فلسطين أكثر من الذين وفدوا اليها .

وسيواجه العرب بعد ذلك مجتمعا اسرائيليا مختلفا جدا عن دولة اسرائيل الحالية والتي لايمكن للعرب أن يعترفوا بوجودها بطرف لسانهم وتحت ضغط

رهيب » ومن المشكوك فيه جدا أن يحدث ذلك أيضا » وسيبقى أمل الأجيال العربية القادمة تدمير هذا الجيب الغريب في وسط بلادهم .

يمكن لاسرائيل اللاصهيونية أن تقيم علاقات مثمرة وتعاوناً متبادلاً يعيد للذاكرة ماحلم به الأمير فيصل عام ١٩١٩ . ونحن بعيدون جدا في صيف عام ١٩٦٧ عن واقع يقارب ماكان عليه الوضع في حينه .

وتبدو الحلول الأخرى غاية في الخطورة . وعليه فإنا نأمل أن يكون لدروس التاريخ نفع وفائدة .

ويقول اندره فيليب تحت عنوان « البحث عن حل » في جريدة الموند ٢٢ تموز ١٩٦٧ .

ان بالامكان كما أعتقد ، بعد فترة الهدوء النسبية للعواطف الجامحة في الشرق الأدنى، ايضاح وتحديد معالم الوضع في الخلاف العربي الاسرائيلي :

آ — في الوقائع :

١ — ان النصر العسكري الذي حققته اسرائيل غير مفيد لها ،والشعوب العربية رغم انهزام جيوشها ورغم شعورها بالمهانة لاتفكر الا في متابعة الكفاح بأساليب أخرى « بدءاً بالتخريب والتآمر » .

وكانت النتيجة الوحيدة للنصر الاسرائيلي أن ازداد الايمـــان بضرورة الوحدة العربية ، وكذلك أصبح عسيرا على النظم الاقطاعية أن تستمر بالحكم في بعض البلاد العربية .

٢ — لقد انتهت السيطرة الانكلوساكسونية في المنطقة ، ورغم الهزيمة الدبلوماسية للاتحاد السوفياتي فانـــه يتمتع بمركز قيادي في الشرق الأوسط ولاينازعه في نفوذه سوى فرنسا التي احتفظت أو دعمت مراكزها في المنطقة .

٣ — تشعر شعوب العالم الثالث اكثر من السابق بعمق الهوة الفاصلة

بينها وبين البلاد الغنية ، والتأثير الفرنسي لوحده يمنعها من أن تستسلم تماما للاتجاه السوفياتي أو الصيني .

٤ – ازداد تضامن الكتلة الشرقيـــة من اجل مساعدة البلاد العربية عسكريا واقتصاديا « باستثناء رومانيا » وقد خفف هذا الواقع الجديد من اتجاه دول المعسكر الاشتراكي نحو التفكك والاستقلال في العمل مما كان واضحا قبل الأزمة الاخيرة .

٥ – يحاول الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة التمسك بسياسة التعايش السلمي ومن أجل ذلك فانهما متفقان على حـــدود لا يسمح للفرقاء المرتبطين بهم تجاوزها . وسوف يؤدي ذلك الى فرض تسوية لا تستهدف ضمان مصالح اسرائيل والعرب بل تخضع لضرورات التوازن الدولي . وعليه فان من مصلحة الاطراف المتخاصمة ايجاد حلول لمشاكلهم القائمة فيما بينهم ضمن اتفاق اقليمي .

ب – كيف يمكن التوصل الى ايجاد حل ؟ من العسير جدا التفكير بامكانية المفاوضة المباشرة بين الطرفين لأن قبول فكرة التفاوض تعني تنازلات عقائدية مبدئية عميقة الجذور في ضمير المجتمعين العربي والاسرائيلي .

١ – منذ عشرين عاما والعرب يعيشون في أمل تحطيم اسرائيل كدولة واستبدالها بمجتمع عربي اسرائيلي مسيحي يشبه المجتمع اللبناني . لقد كان ذلك ممكنا قبل عشرين عاما أي في نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين ، وقد كان بالامكان عندئذ منع حدوث كارثة طرد الشعب العربي من أرضه واقامـــة معسكرات اللاجئين في جوار اسرائيل . أما اليوم فان كل هذه الامكانيات متأخرة فقد استصلحت اسرائيل أراضي ، وأوجدت صناعات وأقامت مجتمعا حيا متطورا .

وكل محاولة للرجوع الى الوراء لايمكن ان تؤدي الا الى ايجاد متاعب جديدة اضافية ومظالم أعمق وأوسع. وليس ذلك في مصلحة العرب . كذلك فقد كان من نتيجة الرقي العلمي في السنوات الاخيرة ان التفوق التقني قد باعد بين مستوى اليهود والعرب ، بحيث أن المجتمع القومي الاسرائيلي المندمــــج ، ولو كانت له الأكثرية العددية ، سوف يكون تحت سيطرة الاسرائيليين المتفوقين ، وسوف يستخدمون العرب كأجراء .

٢ — لابد من ايجاد حاول نهائية لمشكلة اللاجئين وهي فضيحة للضمير الانساني . ان الحل الوحيد الممكن هو اقامة دولة فلسطينية « مستقلة أو مرتبطة بالأردن الذي لابد من احداث تبديلات جذرية في بنيته الاجتماعية » . وتتألف الدولة الفلسطينية من الجليل الأردني وقطاع غزة المرتبط بمصر كما اقترحت ذلك الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ ، وعليه فلابد لاسرائيل من أن تتنـــازل عن بعض الأراضي ويمكن تعويض اسرائيل عن ذلك بتنازلات في القدس .

لابد للتطور الاقتصادي في المنطقة من أن يتم بسرعة كبيرة وبشكل علمي ويعتمد نجاح مشاريع الري والكهربة على قيام اتحاد جمركي ونقدي بين الدولتين ، ويدعم ذلك ايجاد خطة دولية لمساعدة الدولة الفلسطينية حتى تتمكن التطور والخلاص من التخلف .

لايمكن ان يتم اعتراف البلاد العربية باسرائيل اذا لم تتراجع اسرائيل عن الحلم الصهيوني ، وتنهي الطابع الديني العنصري لنظامها القـــائم . وستبقى اسرائيل دولة لابد لها من التوسع والاعتداء اذا بقيت تدعي بانتماء جميع يهود العالم اليها ، أي اذا بقيت تحلم بتطبيق « قانون العودة » وانها ترغب في تجميع جميع المنتسبين الى هذا الدين فوق أرضها ، فهي في حالتها الحاضرة دولة لابد لها من التوسع المستمر وهي بذلك مصدر خطر دائم بالعدوان على جيرانها .

وعليه فان على اسرائيل أن تبعد الكنيس عن الدولة » وكذلك على العرب في الدولة الفلسطينية اتخاذ اجراءات مماثلة » وأن تضمن المساواة في الحقوق بين جميع سكانها اليهود والمسيحيين .

لقد تباطأت منذ عدة سنوات هجرة اليهود الى اسرائيل فقد استوطن يهود الجزائر بعد استقلالها في فرنسا وبعضهم في أسبانيا ولم يذهب الى اسرائيل الا النذر اليسير منهم .

لقد ازدهرت الفكرة الصهيونية في حقبة تاريخية محدودة ولعبت دوراً هاماً في فترة سيادة فكرة اللاسامية في اوروبا ، وقد انتهى في الوقت الحاضر دور الصهيونية العالمي المشار اليه . ان المهم بالنسبة لاسرائيل في الوقت الحاضر ضمان بقاء الدولة التي أنشأوها في الظروف المشار اليها والتي لم تعد مرتبطة بالشعب اليهودي العالمي ، انها تمثل بالنسبة لهم حقيقة تاريخية قامت في منطقة الشرق الأوسط . واذا أرادت اسرائيل البقاء فان عليها أن تعتبر نفسها كعضو من مجموعة شعوب الشرق الأوسط لا كرمح للحضارة الغربية عدوة لشعوب المنطقة . ان شعوب هذه المنطقة وهم يكافحون من أجل تحررهم من الاستعمار وسيطرة المصالح والاحتكارات البترولية لا يمكن لهم قبول اسرائيل كحامية لهــذه المصالح ومؤدبة للمتمردين عليها .

ان اسرائيل الراغبة في البقاء كحقيقة تاريخية وجغرافية تصبح مقبولة بصدق من جيرانها وبقاؤها مرتبط بهذا القبول الصادق . واذا لم يتم ذلك فان نفقات التسلح والعدوان وحده سوف يؤدي لازدياد بؤس جميع سكان المنطقة وشقائهم مع احتمال تصعيد الحرب بينهم حتى تصبح حرباً عالمية .

* * *

وفي نقاش حول مائدة مستديرة عقد في ٢٤ حزيران ١٩٦٧ نظمته الحركة ضد العنصرية واللاسامية وللسلام قال لانتان A. P. Lentin مايلي :

اني أرى في النزاع القائم في الشرق الأوسط صراعاً حول حقين بالوجود: حق اسرائيل بالبقاء من جهة وحق فلسطين العربية بالوجود من جهة أخرى . وكل من هذين الحقين يناقض الآخر .

لقد طغى مؤخراً الكلام عن حق اسرائيل في البقاء وأهمل تماما حق الفلسطينيين العرب بالبقاء على أرضهم ، رغم أن الشعب العربي الفلسطيني موجود على هذه الأرض منذ ثلاثة عشر قرنا على الأقل . لقد قاتل الشعب العربي غزوات الصليبيين وناضل ضد الاحتلال التركي والبريطاني . واني أعتقد بامكان ايجاد دولة عربية فلسطينية تتألف من الضفة الغربية للأردن وقطاع غزة ، ويصل بينها ممر دولي كما اقترحت ذلك الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ في مشروع التقسيم بعد أن تجلو الجيوش الاسرائيلية عن هذه المناطق .

ان الجلاء عن المناطق المحتلة خطوة ضرورية لايمكن قبلها البحث في حلول سلمية ونهائية . ولا يشير المتكلمون والكتاب عن النزاع العربي الاسرائيلي لمشكلة اللاجئين الا بدوافع انسانية من الشفقة لمصيرهم . لاشك بأن المظهر الانساني للمشكلة هو الشيء البارز فيها ، فان تعاسة وشقاء هؤلاء الذين انتزعت بيوتهم وأرضهم وأوطانهم هي الصورة اللاانسانية الحقيقية للصراع العربي الاسرائيلي .

والشرط الثاني لاقامة سلام حقيقي في المنطقة هو أن نوضح للاسرائيليين بأنهم اذا كانوا يرغبون حقا بسلام حقيقي فلا بد لهم من تحويل دولتهم الى دولة

من الشرق الأوسط حقيقية ، وأعني بذلك أن لاتكون دولة غربية قائمة في وسط عالم عربي مسلم . ومشاريع اسرائيل التوسعية في غزو عالم غريب عنها ، وان تقوم في وسط هذا العالم دولة غربية متطورة مرتبطة جذورها في أنحاء العالم وتعتمد عليه في السلاح والمال والرجال ، ان هذه الدولة بشكلها القائم لايمكن ان تفرض نفسها على الآخرين ولا أن تقيم صلات حقيقية صادقة مع العرب ، ولو كانوا من فئة « المعتدلين » .

وعليه فان على اسرائيل ان لاتخونها الشجاعة بأن تعلن عدم ارتباطها العضوي بالصهيونية العالمية وهي تلفظ أنفاسها عمليا ، وانها دولة من آسيا الصغرى كبقية دول المنطقة « ايران ، افغانستان .. الخ » . فاذا تحررت اسرائيل من ارتباطها العضوي الاستعماري الذي خلقها ، وظهرت كدولة من نوع جديد فان بامكانها ان تلتمس أسباب العيش بسلام مع دولة فلسطينية عربية ومع الدول العربية الأخرى في جوارها .

ومحاولة ايجاد حلول للنزاع العربي الاسرائيلي دون تحقيق هذه الظروف بحث عقيم لايمكن ان يقيم سلاما حقيقيا في المنطقة .

واني عندما اتكلم عن دولة عربية فلسطينية فاني أقصد دولة وطنية ذات سيادة كاملة داخليا وخارجيا لا دولة محمية من اسرائيل كما اقترحها «موشه ديان» .

واذا تحقق الشرطان الضروريان لقيام سلام دائم وأعني بذلك وأعيد : أولا وجود دولة عربية فلسطينية ذات سيادة ، وثانيا حدوث تحول جذري داخلي في اسرائيل ، بعد ذلك فان بالامكان ايجاد حلول لقضية مدينة القدس يضمن لجميع الأديان والمعتقدات حرية العبادة والتواجد فيها .

واني أرى حلا ممكنا بأن تكون القدس الموحدة مدينة ثلاثيــة

أي أنها مدينة دولية من الوجهة الإدارية تحمي الأماكن المقدسة للأديان السماوية الثلاث ، وفي نفس الوقت عاصمة للدولة العربية الفلسطينية التي ستقام ولدولة اسرائيل التي تحولت كما أشرت اليه أعلاه . وسيكون بامكان اتباع الديانات الثلاث الدخول والعبادة بحرية في المدينة المقدسة عند الجميع ، وبحماية بوليس دولي يشرف على ذلك .

ويبقى الانتقال والتعامل النقدي حراً في حدود هذه المدينة . وتضم في طرف ادارات الدولة العربية ، وفي الطرف الآخر الدولة الاسرائيلية . وتتعاون أجهزة الطرفين على حل المشاكل الطارئة البلدية أو الاقتصادية .

وفي نقاش المائدة المستديرة « ٢٤ حزيران ١٩٦٧ » الذي نظمته الحركة ضد العنصرية واللاسامية وللسلم تقول فاني شابيرا Fammy Schapina :

أرغب بالكلام عن التحولات في دولة اسرائيل ذلك اني موقنة بأن ذلك هو الشرط الرئيسي لقيام السلام في المنطقة وانه عقدة المشكلة . ولن أتكلم عن التشريعات التيوقراطية « الأحكام الالهية » فاني أعتبرها ثانوية ، ولكني أريد الاصرار على فكرة لا صهيونية اسرائيل désionisation وخاصة لابد من الغاء « قانون العودة lot du retour » وأذكر بأن قانون العودة يعطي الحق لكل يهودي، مهما كان منشؤه او جنسيته الحالية بأن يكون مواطناً اسرائيلياً متى عزم أن يعيش فيها . وبالمقابل فليس للعربي المولود في فلسطين حتى ولو بقي في اسرائيل الا أن يكون مواطناً من المنطقة الثانية ، ويفقد جنسيته الاسرائيلية اذا تغيب ولو مؤقتاً عن البلاد . اني أعتقد بأن هذا القانون خطير النتائج وغير منطقي واذا لم يتم الغاؤه فليس بالامكان احراز اي تقدم حقيقي في معالجة مشكلة النزاع .

ان هذا القانون غير معقول علمياً : وأريد أن أذكر أن عدداً كبيراً من اليهود قد ناهضوا ومحق فكرة « العرق اليهودي » ، فلا وجود لميزات خاصة لشعب يهودي : وتؤكد جميع الأبحاث المعاصرة لأصول الشعوب وخاصة في البيولوجيا تنوع واختلاط ما يدعى بالشعب اليهودي . وكمثال على ذلك فان معظم من نطلق عليهم باليهود الشرقيين هم اقرب لشعوب البحر الأبيض المتوسط الاخرى ، ومنهم العرب حيث يعيشون بينهم منذ عصور مديدة ، أما الاشكناز « وهم اليهود الغربيون » فانهم من شعوب شرقي أوروبا في صفاتهم البيولوجية حيث عاشوا قروناً مديدة . واني اعتقد بأن قليلين جداً من هؤلاء اليهود الغربيين من اصل فلسطيني .

اني اعتقد بأن نتائج تطبيق هذا القانون خطيرة جداً فان من حق العرب ان يقولوا بأنهم مهددون بالفناء او بالتشرد طالما أن من حق عشرة او خمسة عشر مليون يهودي — « الموجودين في العالم » التمتع بالجنسية الاسرائيلية . فلا مكان لهؤلاء العشرة او خمسة عشر مليون يهودي في رقعة اسرائيل المحدودة ، وعلى اسرائيل اذا في هذه الحال أن تتوسع لاستيعابهم .

ويصرح بعض المسؤولين الاسرائيليين الحاليين وعلناً بأنهم يهدفون لذلك . وعليه فليس بالامكان اشاعة الطمأنينة بين الطرفين الا بعد الغاء هذا القانون .

وعلينا أن نتذكر بأن أوضاع اليهود في مختلف بلاد العالم حيث يعيشون يفرض ازدواجاً في الولاء والجنسية نتيجة لمفعول هذا القانون .

اني شخصياً أممية وأعيش منصهرة في وطن لااريد التخلي عن انتسابي اليه . لقد شعرت بصفتي يهودية بتهديد حقيقي وباحتمال أن أكون ضحية في معسكرات القتل الجماعي ايام الحرب الاخيرة في اوشويتز وعليه فاني متضامنة

مع جميع المضطهدين اليهود في مصيرهم ايام المحنة القاسية ، ولكني في نفس الوقت لست أشعر أطلاقاً بأي ارتباط او تضامن مع اليهود عندما يصبح هؤلاء هم المضطهدين لغيرهم . وبين اليهود كما بين غيرهم طبعاً اناس معتدون ، فاشيون وعنصريون .

وعليه فانه لابد من التفريق بشكل قطعي بين اللاسامية واللاصهيونية ، واعتقد بأن تعاوناً وثيقاً يقوم حالياً ما بين الصهيونية واللاسامية . اذ يتمنى اللاساميون أن تحل المشكلة اليهودية بهجرة اليهود الفرنسيين والألمان والروس وغيرهم الى اسرائيل ، ويتفق ذلك مع رغبة الصهاينة . وعليه فان من الضروري تحديد تاريخ لامكانية الهجرة اليهودية الى اسرائيل يحدد بعدها عدد المهاجرين المقبولين دون ان يعتمد ذلك على ميزات دينية او عرقية .

والخلاصة فاني لا أرى امكانية لبقاء اسرائيل اذا لم تعتنق مبدأ اللاصهيونية وبذلك يمكن لها أن تندمج في مجتمعات الشرق الاوسط .

* * *

وأخيراً لقد هزت النكسة الأخيرة وبعنف المواطن العربي وقد يكون فيها الشفاء من الأحلام التي كان يعيش عليها ، بينما دخلت اسرائيل في مرحلة الهذيان الفاشي بعد نصرها الرخيص . وهذه ترجمة لبرقية من اسرائيل تحت عنوان : التوراة والسيف :

يقول فيكتور سيكلمان « في النوفيل اوبسر فاتور عدد رقم ١٤٨ — ١٧ ايلول ١٩٦٧ في رسالة مصدرها اسرائيل :

«ان الاسرائيليين في نشوة نصرهم يمسكون بالتوراة في يد وبالسيف في اليد الأخرى ، وان الموجة الاكليروسية العسكرية لاسرائيل هي السائدة حالياً . وفي احتفالات واجتماعات لنقاش مستقبل البلاد يظهر الجنرالات وعلى رأسهم طاقية الحاخامين . وبالعكس فان الحاخامين يلبسون البزة العسكرية ويخطبون

مهجين . ان ريحاً جنونية تعصف في هذا البلد بحيث أني لم اعــد أتعرف على اصدقائي » استاذ في علم الاجتماع إسرائيلي ».

«وقدبدأت موجة الاتهامات تصف المعتدلين بالخيانة ، وفي حملة صحفية يتهم « ابا ايبان » بالخيانة الوطنية لأنه لايشارك الوزراء الآخرين في اصرارهم على أن ما احتلته اسرائيل حق لهـا ، و كذلك تتهم صحف اليسار بخيانة القضة الصهيونية عندما تشير الى مشاريع الصلح مع العرب وامكانية انهاء احتلال المناطق المحتلة حديثاً ».

* * *

واذا اردت في ختام حديثي التركيز على بعض النقاط فاني الخصها كما يلي:

١ – الصراع العربي الصهيوني قضية تمس العالم اجمع . والرأي العــام العالمي وزن كبير في تقرير نتائج هذا الصراع . ولايمكن للعرب ان ينفذوا الى الضمير العالمي الا بالانفتاح على الجميع بالجابية وواقعية .

٢ – لست أعني اطلاقاً من كلمات الانفتاح والايجابية والواقعية نسيان التآمر والتحالف مع أعدائنا ، أو قبول الأمر الواقع والانطلاق من مراكز الضعف ، بل بالعكس تماماً فانني اريد فتح النوافذ لمعرفة حقيقة الصهيونية واسرائيـل في تكوينها ونظامها وأساليب عملها ، والسعي لتوعية المضللين في العالم وهم الكثرة الساحقة وكسبهم غير عسير لقضية انسانية عادلة .

٣ – ان للعرب ركائز هي طلائع قوى التحرر العالمية ، وهي تؤلف ثلثي سكان الأرض، وتتألف من الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث ، وتكافح جميعها الاستعمار والامبريالية العالمية . فهم جميعاً حلفاء طبيعيون لقضيتنا ، و كذلك فان الأحزاب الاشتراكية في العالم الغربي والقوى المعادية للتفرقـة العنصرية يمكن

كسبها لمناصرة قضية العرب في كفاحهم دفاعاً عن أرضهم وانسانيتهم . ولنا في جميع هذه البلاد طلاب ومهاجرون لابد من توثيق الصلات بهم فكرياً وتغذيتهم بالنشرات والمستندات لتفنيد باطل الصهيونية ودعم الحق العربي .

٤ — لست أريد القول في نهاية حديثي ان الكلام والمنطق وحدهما كافيان لتحقيق النصر ، ولكني أؤكد بأنها خطوات ضرورية في العمل الداخلي « على المستوى العربي » من أجل قلب المعركة واشاعة اليقين في نفوسنا بأن النصر لنا على المدى البعيد وأن النفس الطويل هو سبيلنا من أجل ذلك .

واني واثق من أن وحدة الهدف العربي في الصراع من أجل البقاء سيعجل الخطوات لتحقيق شكل من الوحدة العربية التي لابد وأن تقلب موازين الخداع والتضليل الصهيوني ، ويبقى العمل الدائب والاستعداد العسكري والاقتصادي والفكري الركائز الأساسية في معارك متصلة مديدة وشاقة لبلوغ النصر .

التنمية والإنسان (١)

جاك بيرك
ترجمة
أديب اللجمي

— ٤ —

لئن كانت الحال كذلك، فان لدراسة هذه المشكلة أهمية حيوية، في سبيل المعرفة والعمل معاً. وتبدأ المعضلة في تحديد الزوايا التي يمكن مقاربة هذه المشكلة من خلالها مقاربة مجدية، أي في تحديد الأولويات الواجب ملاحظتها بالدراسة. بيد أن هذه الأولويات ترتبط، لا باختيار منهجي وحسب، بل بالمستوى الذي بلغناه في هـذا القطاع أو ذاك من قطاعات الدراسة. لقد حدث أن أثارت بعض الموضوعات انتباه الاختصاصيين. فالى جانب ضرورة السير منطقياً بهذه المهمة، تضاف مهمة

(١) نشر القسم الأول من هذا البحث في مجلة المعرفة — العدد ٦٨ (تشرين الاول - اكتوبر ١٩٦٧).

تجنب ازدواج العمل ، أن نسعى على الاقل بحيث تنصرف البحوث التي نجريها الى قطاعات مهملة نسبياً بالرغم من اهميتها . ان مانتشده اذن هو أن نكمل النتائج التي بلغناها من قبل ، أو تلك التي نتوقعها من البحث الأكاديمي والبراجماتية التجريبية ، وان نوجهها في نطاق يستهدف بوضوح دور الانسان .

وأول اغراء نواجهه هو اجراء كشف لمختلف تجارب التنمية الجارية . علينا أن نحاول ، استناداً الى العامل البشري ، قياس نجاح او فشل المشاريع التي اخذت بها الامم المتحررة حديثاً أو الهيئات الدولية . ولكن اضافة الى أن مثل هذا الكشف يتطلب وثائق للمقارنة ، يتطلب جمعها ونقدها جهوداً طويلة ، ألا تعني معالجتنا للمشكلة بهذه الصورة ، ان المشكلة محلولة ؟ ولكي نقدر النجاح النسبي لهذه المشاريع أو تلك بالاستناد الى المجتمعات المرتبطة بها ، ينبغي ان نتزود بدراسات وافيـة عن البيئات المعنية من ناحية ، ومثل هذا غير وارد هنا ، كما ينبغي ان نتزود بمعايير اجمـالية عن الأسلوب الحديث ، من ناحية ثانية . ولكن هذه المعايير لايمكن ان تنبعث الا من تحليل مركز على بعض الموضوعات .

ان من هذه المعايير التي تسمح لنا بأن نلتقطها ، تلك التي تتسم بالتنمية الاقتصادية. لقد كانت ، منـذ الحرب العالمية الأخيرة ، موضوع دراسات ، حاولت أن تنافس الرياضيات في وقتها ، وعنيت عناية كبيرة بالخصائص المحلية وبحق العامل الانساني . ان مثل هـذه الاهتمامات في ميدان متخصص كهذا ، والغريبة على كثير من الاقتصاديين الكلاسيكيين ، قد سجلت تقدماً أتاحت فيه للخصائص الاجتماعية ان تنتقل من مستوى الالحاق ، أو مستوى « الفضلات » على حد تعبير باريتو ، الى مستوى الأولوية . ان تعـابير أصبحت اليوم شائعـة ، كتعبير « الاستخدام التـام » أو تعبير « التنمية » الذي يناقض تعبير « الزيادة » ، والاعتراف بوجود خصائص خاصة ترفض الآلية والانتظام في حركة القوانين العامة ، وتستبعد على اية حال التطبيق الحرفي للنماذج المستوردة ، تمس حديثنا مساساً مباشراً . وهذا التطور ثابت ، فقد كان مفروضاً من قبل ، بسبب الالزامات المذهبية ، على الاقتصاديين الماركسيين . وهو الآن مفروض ، اكثر فأكثر ، وبشكل آخر على الاقتصاديين الليبراليين . ان بحوث أمثال اوسكار لانجة Oscar Lange وغونار ميردال Gunnar Myrdal وتينبرغن Tinberghen ونوركـه Nurkse ، تتلاقى على الأقل في ان العناية بالانسان ، وبنفسيته الفردية ، وبسلوكه الجماعي ، قد اصبحت هي الأساس والدافع والغاية من النظرية والتطبيق . لقد أبان فرانسوا بيرو F.Perroux كيف أن التقدم الاقتصادي ، الذي كان يعتبر في السابق نتيجة لتفاعل العوامل المادية ، لايمكن

تصوره إلا حين يكون قابلا للانتقال وذا معنى ، أي محركاً في آن واحد الأحداث ، والاشخاص ، والقيم . ان الدراسات المتجهة الى ميـــدان أساسي ، كميدان التخطيط ، ومنها دراسات بتلهايم ، حين تصف نتائج الايقاف blocage والقسوة الناجين عن التبعية ، تبرز أيضاً مدى ارتباط نجاح المهات الراهنة بقدرتها على اعادة الاندماج الجماعي . بذلك يصبح التخطيط ، لا مجرد أداة اقتصادية وحسب ، بل طريقة من طرائق اعادة بنــاء الذات ، يكون الانسان هو العامل الأساسي لها وهو الغاية فيها .

إن هذا التقدم الذي احرزته النظرية والملاحظة الاقتصاديتين يدعمها الاقتصاديون باهتمام يغنينا ، في اعتقادي ، عن توجيه اهتمامنا الى الميدان ذاته .

ولكن أليس الأمر كذلك ايضاً في تقدم علم التربية؟ انه تقدم ينم عن تخصص ونضج يحفزاننا على ان نفيد من نتائجهما بدل ان نتبع نتائج أخرى لمصلحتنا ، وفي إعقاب الاهمال الرهيب الذي حدث في العهد السابق ، انطلقت هبة مندفعة تستهدف تحرير الجمـــاهير من الامية ، والتربية الاساسية ، وتربية الراشدين ، وسواها . ان أهمية العامل التربوي في التنمية معترف بها ، بل انها مقدرة بصورة كمية . ان محتوى علوم التربية ، سواء اتجـــه الى الإعداد المدني ، أو الاعداد التقني ، أو إلى اتمام الوعي الاقتصادي أو البديعي ، يجب ان يخدم الآن البينات والاوضاع في تفردها ، وفي هذا ايضاً ، كما في مـــادة الاقتصاد والتخطيط ، ليس علينـــا ان نقوم بعملية ازدواج في البحث المتخصص الذي يتمتع بهيئاته الخاصة .

وقد تكون الحال كذلك في كل صنف من صنوف التقدم على حدة ، فاذا كان الموضوع هو مكافحة جفاف الأراضي ، أو كان هو علم الأوبئة ، أو حقوق العمل ، أو تحسين قوانين حماية الطفولة والمرأة والاقليات ، فان ثمة هيئات متخصصة تمارس النشاط فيها ، وتقيم تناسقاً فيما بينها أحياناً على الصعيد الدولي ، وتعمل معاً في النطاقين النظري والعملي ، وبذلك فان ابراز العامل الإنساني ينبعث من عدد كبير من المقاربات ، كل واحدة منها قادرة ، حين نسير بها الى آخر الشوط ، على ان تجعلنا نحيط بمجموع المشكلة . نستطيع اذن أن نقارب الموضوع ، الذي حددناه لأنفسنا ، من مختلف زواياه ، وأكثرها وضوحاً : الاستثمارات ، استخدام الوسائل السمعية – البصرية في التربية ، الحياة النقابية ، الخ ... ما من واحدة من هذه الدراسات ، حين نتابعها بجميع ملابساتها ، إلا وتؤدي الى الكلية التاريخية التي أحاول أن ألتقطها هنا .

ومع ذلك ، فلئن اخذت التحرر من الاستعمار كزاوية لمقاربة الموضوع ، فلأنه يبرز قيمة هذه الإسهامات الجزئية ، وخصائص التركيب في آن واحد . اذ كيف نضع

هذه النتائج الخاصة ، على مالها من ثمن ، بالنسبة لبعضها بعضاً ؟ ذلك هو الكسب الحاسم ، وبدونه يظل الاستقصاء العلمي والعمل التطبيقي عالقين بالطريقة الاختبارية ، وبالصدفة تقريباً . ومعلوم أن المظاهر الفيزيولوجية ، والاقتصادية ، والأخلاقية ، للتقدم تتداخل كلها مع بعضها . ولكن وفق أية صورة يتم ذلك ؟ كم مرة أضعفت الخصومات من وزن كل مظهر منها ! فأنصار « المظهر الاجتماعي » يهاجم أنصار « المظهر المادي » . ورغم كون الجميع متفقين حول تفوق الانسان ، وهو تفوق لايمكن إلا أن يكون مادياً ، واجتماعياً ، وبديعياً معاً ، فهم يتناقشون في أولوية أحد هذه المظاهر . فهذا العالم الزراعي يتهم افريقيا بأنها « بدأت بدءاً رديئاً » وحاتان الاشتراكية والليبرالية تشكان كل منها في صحة تسلسل برامج الاخرى . كما ان نصيب الخرافة لدى البلاد الحديثة الاستقلال ، ونصيب الطوباثية الحركية في المشروع ، ونصيب نتيجة البرهان في العملية ، يقدر تقديراً متبايناً يتسم بالجدل . ان الاهمية الخاصة لكل صنف من اصناف التحول الاجتماعي ، هي موضوع تأكيدات قبلية اكثر مما هي موضوع تقديرات دقيقة . فثمة أصناف جديدة من التحليل الاقتصادي ، كصنف معنى الظاهرة مثلاً ، مازالت غامضة ، اننا نرى معنى أحد الانجازات الكبيرة ينقلب من مرحلة الى مرحلة ، كما هي الحال في قناة السويس أو سد أسوان . والتفوق التقني قد اصبح عملاً توعية وأساساً اجتماعياً . ولكن كيف نحلل الانقلاب ؟ ان ذلك في الواقع غير ممكن قبل ان تبلغ معرفتنا المجتمعات مستوى يسمح باجراء التطبيق العملي أو بتفسير الحوادث الجزئية بمفاهيم كلية .

رغم ذلك ، فان ثمة تجربة ضخمة تجري الآن على صعيد الكرة الارضية . انها تطالب النظرية في ان تلحق بها ، بل وان تسبقها . ولأن العلم الناضج نضجاً كافياً ليس موجوداً بعد ، فان اسهام الأوضاع الجماعية والايديولوجيات في المعرفة كبير جداً . ان التقدم الذي احرزته موضوعات ، كموضوع « صدمة الثقافة » او موضوع « الملابسة الاجتماعية للتقدم التقني » او « زرع الثقافة » قد أتاح بحث موضوعات كانت من قبل ادبية او سياسية ، كموضوع « ضياع الشخصية » . ان احداث السنين الاخيرة قد عمقت ، بلا ريب « تحليلنا لمفهوم الضياع ، في جميع اشكاله (البروليتاري ، الاستعماري ، الزمني ، الجنسي ، العرقي) أكثر مما قد يعمقه البحث الأكاديمي . ان الظهور المتزايد للتفرد الجماعي او لطلب التفرد ، وهو يواجه الانتشارات العالمية الكبرى ، والبحث عن « الطرق » الشخصية نحو الاشتراكية ، والتميز ، تعتبر حافزاً الى التجديد النظري ، الذي يتكرر ابداً ، واكثر فأكثر في الاتجاه الانساني .

هل يعني ذلك ان علينا ان نحاول مقاربة جديدة لعلم السياسة ، توضح ، وتشمل هذه الاسهامات المتنافرة؟ اني اخشى ان يؤدي ذلك الى توسيع طموحنا توسيعاً خطراً. ان ثمة سبباً معاكساً للسبب الذي يغنينا عن اضافة شيء شخصي على مكتسبات كبيرة في مجالات متخصصة كمجالات التخطيط والتربية ، وسواهما ، وهو عدم نضج مثل هذا الموضوع ، هذا السبب هو الذي ينبغي ان يمنعنا من فعل ذلك . ويجب ان نترك خلال عدة سنين مقبلة التجربة ، والأهواء ، والخصومات ، تتحدى العلوم الاجتماعية ، وتفعل فيها كما تنفعل بها ، قبل ان نحاول استخلاص نتيجة اجمالية منها .

ان الخصائص الواجب اتباعها ، ينبغي ان تكون محددة قبل كل شيء ، واذ أننا نعتقد ، للأسباب التي اوردناها فيما سبق ، بأن علينا ان نستبعد من اغراضنا الدراسات المقارنة عن البلدان، فانني سألفت الانتباه الى ثلاث مشكلات او اربع عامة ،ولكنها واضحة .

— آ —

اذا كانت ثمة رائز ممتاز للدلالة على دخول الحضارة الصناعية ، فهو رائز الاختراع . انه مشترك بين النظامين الاقتصاديين الكبيرين اللذين يقتسمان العالم ، ويقدم لهما نوعاً من القاسم المشترك . انه يعبر عن رابطة ناجحة بين الآلية والعفوية المبدعة ، فهو انساني بقدر ما هو تقني . انه اسهل كشفاً من الدلائل الأخرى عن المشاركة في الثقافة التقنية ، بل انه يقدم فوق ذلك دلالة بالغة حداً من الوضوح بحيث أن ثمة طرائق دولية تعمل على فرزه كما أن هناك كشوفاً دقيقة تسمح بتصنيفه حسب اسرة المنشآت والمصلحة . فمن المفيد اذن ان نبحث الى اي حد وكيف ان بلاد العالم الثالث او القوميات غير الاوروبية ، تسهم اليوم في مبادرة انطلقت من بعض البؤر .

حقاً ان شروط المحيط ، كتخصيص ميزانية للبحث ، ووجود المخبر ، والتشغيل ، وسواها ، تؤثر في ولادة الاختراع . فهو دائماً في مجتمعات العالم الثالث ينبثق بالرغم من الظروف الرديئة ، ولهذا فهو هنا أشد تعبيراً ودلالة ، اذ نستطيع ايضاً ان نبحث ما اذا كانت ثمة روابط بين الاختراع وبين ثقافة المنشأ لدى الباحث ، وفي النهاية يمكن ان نتأكد نظرة الفيزيائي الباكستاني عبد السلام ، ومفادها « أن كل واحد من التقاليد الثقافية للاسرة البشرية يقدم للعلم مادة تفكير مختلفة ، ففي ميدان الفيزياء النظرية ، ارى بعض كبار الفيزيائيين الصينيين يقدمون الى هذا العلم خبرتهم البراجاتية ... اننا نتحدث الآن عن وجوه تناظرات في فيزياء الجزيئات ، فاذا ما ظهر في المستقبل فيزيائيون زنوج عظام، فانني أتساءل ما اذا كانوا سيدخلون مفهوم الايقاع والانسجام بين الجزيئات الأولية؟»

ثمــة مقاربة أوسع يمكن الشروع بها في الوقت ذاته ، إنها تتعلق بالاختراع من القاعدة ، وهو لايؤدي دوماً الى البراءة ، وإن يكن يثير احياناً نتائج هامة . إننا نعرف اسهام العامل اليدوي والصانع في التقدم التقني ، كالنسيج مثــلا . فالآلة تنشأ في أغلب الأحيان من انضــاج العمل اليدوي ، لاشك في أن استقصاء شاملاً عن الموضوع أمر مستحيل . الا ان بعض الحالات ذات الدلالة يمكن التقاطها ، وهي توضح الطريقة الفعلية التي بواسطتها تتلقى شعوب العالم الثالث الحضارة التقنية وتمارسها وتحولها ، وبالتالي تجعلها انسانية ، لا على صعيد الخبر وحسب ، بل على صعيد المعمل او المنجم .

— ب —

مقابل هذا البحث الاولي ، اوصي باجراء بحث آخر ، يعالج الميدان الاكثر حرية والاكثر اعتباطاً في المجتمع كما يبدو : اعني الابداع الفني .

في هذا الميدان ، مثلما هي الحال في سائر الميادين الأخرى ، ينطلق البحث من بعض البؤر ، التي هي ذاتها بؤر الثقافة الصناعية . وتقابل هذه التيارات المنطلقة من المركز ، تيارات أخرى قادمة من العالم نحو أوروبا ، ولها أكبر الأثر . حين تنتشي باريس أمام قناع من حضارة أفريقية ، وحين يتقدم معرض متجول في الولايات المتحدة لوحات آسيوية ، فان في هذا أكثر من مجرد طرافة أجنبية . ان كثرة العالم أشد وضوحاً في المجال البديعي منها في المجال التقني . فهي لاتلبي هنا مجرد حاجات التعويض يحسّ بهــا الغربيون احساساً داخلياً أليماً وحسب ، بل هي تنبعث من منابع أشد رسوخاً . ان مفعول النمطية أو الإلغاء كما تمارسها علاقات القوة في الفن ، تخفف فيه حاجات الى العفوية نحسّ بها هنا أكثر مما نحس بها في كثير من ضروب النشاط الاجتماعي ، وفي هذا المجال ، فان الاستمرار الثقافي ، والتقاليد الفائتة أحياناً ، والوفاء للغة الأصلية ، تحافظ على الأصالة بسهولة أكثر مما يحدث في مجالات أخرى .

فكثرة العالم تتضح في الفن إذن أكثر مما تتضح في الصناعة الآلية ، بل وفي الحياة اليومية . الا أنه كان علينا أن تتكيف حيثما ظلت قائمة . فلنفترض أنه مازالت ثمــة طرائف فنية لم يؤثر فيها العالم الخارجي ، فهي ليست أقــل إندماجاً من سواها في « المتحف الخيالي » الذي يخضعها الى نظرة بديعية دولية . فالواقع أن رائعــة أعمال النحات الأسكيمو ، والنساج الفارسي ، والخزفي المغربي ، لاتُعدّ رائعة بعد اليوم إلا حين تنجح في ضمّ الخصوصي الى العالمي في داخلها . فما ترانا نقول عن الادب ؟. ان هذا النمط ، لغرابة المصادفة ، الذي تبرز فيه فردية الثقافة عن طريق التعبير والصياغة ،

هو النمط ذاته الذي يجعله انتشار نماذجه العالمية ، وإمكانية ترجمتها ، يخضع ويتوق الى أوسع المبادلات .

الى أي مدى يستطيع إبداع ما أن يضم الأصالة التي يضرب جذوره فيها ، الى قابلية الانتقال التي تتيح له الحصول على مكانة ، ذلك هو المعيار الذي لا يستطيع أي فنان أن يخرج عليه بعد اليوم . لنفترض ان الوحي المحلي قد اتخذ طابعاً خاصاً به ، منبثقاً من تقاليد واعية مجيدة ، كما هي الحال في الموسيقى الهندية . إن انتقالها الى العالمية يتجلى آنذاك في كونها تسيل في صيغة صالحة دولياً ، كما هي الحال في مقطوعة التسلسل Fugue والكونسرتو Concerto، أو أن الوحي يتخطى عن قصد إطاره التاريخي ، فيستعير نموذجاً مستورداً ، كما هي الحال في الرواية ، ويحاول ، بعكس الحالة السابقة ، أن يملأه بمحتوى خاص به .

مثل هذه التركيبات يحاول ان يقيمها كل مجتمع ينشد التطور الحديث ، ان التعبير الفني يقدم له ، بهذا المعنى ، شروطاً ممتازة ، ان تحليل بعض الأعمال الأفريقية والآسيوية ، التي أمكن حصول التركيب فيها ، يزودنا ، على ما أعتقد ، بدلالات ذات معنى ، عن قابلية الانسان لفرض علامة معرفته على التنمية .

— ٣ —

ان قسماً كبيراً مما تتخذه البلاد المتحررة من تدابير في بنائها لنفسها ، ينصرف الى معالجة الطبيعة . فاستصلاح الأراضي ، وتنظيم المناطق ، ومكافحة تخريب التربة العضوية ، كلها مظاهر كبرى من هذا النشاط . هنا تتجلى، استناداً الى فرضيتنا الخاصة ، اعادة العلاقات بين الثقافة والطبيعة ، وكانت المرحلة الاستعمارية قد فصلت بينها ، بالإضافة الى ما في هذه التدابير من مناسبة بديهية إقتصادية وسياسية ، ثمة ما هو أعم منها ، أعني اعادة الدمج ، « العودة الى النبع » . فكأن علاقات جديدة تقوم بين الانسان والسلطات الثلاث ، وقوامة الأرض . ان مستويات العلائق التي تتبدى آنذاك بين الانسان والمحيط ، تتجاوز من كل جانب علاقة الزراعة القديمة . ان الصين قد أنشأت وزارة للمنتجات المائية ، وخصصت اليابان بحوثاً واسعة لإمكانات التغذية من الطحالب ، وفي النباتية ، معنى ذلك ، على الصعيد العالمي ، وبالدعم الصناعي ، قدرة الانسان على الاختراع ، إذ يلجأ ، اذا ما دعت الحاجة ، الى ألوف الموارد غير المتوقعة التي تقدمها البيئة الطبيعية .

كذلك نفهم الرأي الذي أبداه حديثاً جوليان هكسلي J. Huxley إذ قال « ان الايكولوجيا Ecologie هي التي تبشر ، اكثر مما تبشر به التكنولوجيا ، بأهم اسهام للعلم في التنمية . » حقاً ان هكسلي لا يفكر هنا الا باسهام متزايد لعلوم الحياة والأرض في البحث والتعليم والعمل ، ولكن ربما سمحت ملاحظاتنا السابقة أن نمضي في تقديراته الى مدى أبعد.

ان ارتقاءات الشعوب الحالية ، اذ تتخطى بكثير ارتقاء البروليتاريا في البلاد الصناعية ، من حيث الامتداد الجغرافي والسعة البشرية ، تفرض على الشعوب كما تفرض علينا ان نعي العلاقات ، لا بين الانسان والآلة فقط ، ولا مع وسائل الانتاج وحسب ، بل مع قواعده الأرضية . ان عبدو لاي لي السنغالي ، يشيد هنا بدور جماعات الفلاحين ، اشادة قريبة من نظريات النارودنيك القدماء، واذا كان رفيقه مامادو ضيا يحتج بحق على « نزعة الانقطاع الى الزراعة agriculturaltsme التي أريد لبلد متخلف أن ينصرف اليها في المستقبل ، اي الى دور لا يختلف كثيراً عن دور المصدّر للمواد الأولية ، فلا يتنافى ذلك أبداً مع تطلعات تعيد اقامة شخصية الشعب على صحة أسسه وتسمح بدمج وتنمية كل من الزراعة والتصنيع ، كما تسمح باعادة النظر في التجارة الخارجية وبعث الثقافات الشعبية . »

نستطيع إذن ، تعقيباً على كلمة جوليان هكسلي ، ان ندرس دراسة مقارنة دور هذه الاعادة الايكولوجية لدى الأمم الناشئة والتبرير الذي قدم عنها ، والامتدادات التي تضمنتها في الأوضاع الجماعية .

— د —

أيُعتبر مجرد مسلّمة انسانية كون كل شعب قادراً على أن يتطور الى أمام، وكون كل « تخلف » قابلا للاصلاح ، وكل ثقافة قادرة على الانفتاح على التقنية؟ يجب عليّ أن أقول إن على هذا الشعب أن يدفع ببعض عناصره التي ظلت في صيغتها السابقة أولية او في حالة امكان .

واذا استطاعت اشد الأفكار تجريداً إن تنتقل الى جميع الألسنة ، فلا داعي لئلا تكون القابلية الصناعية قابلية للانتقال جزئياً ، اذ تتمتع في مستوى التحديدات المشخصة، بالمستوى ذاته من المرونة التي تتمتع بها الترجمة في مستوى اللغة . لماذا يمكن شرح هيجل بلغة الفيت ، بينما لا يمكن اطلاق صناعة التعدين في حضارة البانتو ؟ ان الوقائع حول هذه النقطة قد بدأت تثبت المسلّمة . ان مصانع الخيوط والنسيج في المحلة الكبرى في الجمهورية العربية المتحدة قد وصلت الى أحدث مردود، كما

ان الميتافيزياء السنسكريتية لم تعرقل صناعة التعدين الهندية ، بل ربما دعمتها عن بعد ، عن طريق صعود النزعة الواقعية لكوتيليا . ان ثمة حضارة ذات دعائم فلاحية ترتقي الى آلاف السنين ، كحضارة الصين ، اصبحت مثالا نموذجياً في نوعيتها ، قد بلغت العلم النووي . تلك حالات حدية ، ولكن ثمة مئات من الحالات الأخرى ، اكثر تواضعاً من تلك ، ولكنها ليست أقل دلالة . فكيف نفسرها ؟

لقد طرحت الأنتروبولوجيا الثقافية هذا السؤال على نفسها. واذ انني لا أستطيع هنا أن أتجنب ايراد فرضيات شخصية ، فلا بأس في ان اقول إنها تلتقي جزئياً مع فرضيات كروبر A. L. Kroeber وسنعرف بم تفترق عنها ايضاً .

ان الثقافة تتجلى في نظام اكثر مماتتجلى في محتويات . فهي تستطيع إذن أن تعدّل هذه المحتويات ، بل وأن تجددها تجديداً كلياً ، وأن تستبدلها بغيرها حين تدعو الحاجة ، ولكنها لاتنفك تظلّ نظاماً . ان الملاءمة بالنسبة لها ، لاتعني الاكتساب، بل تعني الانتقال . وهي لاتستطيع ان تفعل ذلك دون ان تحرك منظوماتها الداخلية ، ودون تجديد التوازن بين مكوّناتها الخاصة : هذا ماأسميته في هذا البحث بالاستراتيجية .

لقد بيّن جورج بالانديه G. Balandier كيف أن شعب فانغ في الغابون ، إذ استخدم احتيالات مختلفة ومتتابعة تعتمد على ضم الخطوط الكبرى لنظام هذا الشعب ، تمكن الى حد ما من مقاومة العدوان الخارجي الذي وقع عليه . ولدى شعوب أكثر تطوراً بالاجابة له من شعب الغابون ، واكثر التزاماً ، كالشعوب العربية ، يمكن انتقول ان النظام عندها إذ يبدل من تجلياته ، وينقل حركته بين ماهو مقدس وماهو تاريخي ، ويحشد تباعاً طاقات البورجوازيين والمثقفين ، والعسكريين والعمال فانه يتجه بصورة مجدية نحو تجديد ينقله الى وضع جديد دون أن يفقده شخصيته : تلك هي على أية حال النية المؤكدة .

ان اكثر هذه الانتقــالات غريزية ، وتعتمد على دوافع غير عقلية . والحال كذلك في حركات الانقاذ التي ظهر مؤخراً ارتباطها الوثيق مع مقــاومة المجتمعات الافريقية وتحولها . ولكن الاعتقاد أو عدم الاعتقاد ، الطائفة أو الحزب ، العقيدة والانتاج ، الواقع والقيمة ، ليست سوى طرز من بين طرز أخرى كثيرة ، تعتمد عليها تلك التنظيمات المعقدة . فبقدر مايستحوذ المجتمع على نفسه ويدرك ذاته ، ينتقل قسم متزايد من حركاته من مجال اللاعقلانية الى مجال الشعور . وفي المجتمعات المتقدمــة تقنياً ، تصبح الاستراتيجيات مخططة ، بل وعلمية . وتحت شعار الاصلاح أو الثورة ، سواء اتصل الامر ببرامج تربوية او بتبديل نظام الحكم، أو بتحريك الإطار الفيزيائي

أو بكل هذه الامور معاً ، عن طريق التبديلات الخفيفة والانقلابات الجـذرية ، فإن المجتمعات تحاول بذلك أن تحقق تنقل نظامها من وضع الى آخر، وان تصون بقاء شخصيتها في مواجهة بعضها بعضاً .

تلك هي أيضاً المشكلة العلمية ، والوجودية والعملية المطروحة على هذه المجتمعات في العالم الراهن . ان على حلها تتوقف انسانية هذه المجتمعات . ان على هذه المشكلة وعلى طريقة مقاربتها من قبل تلك المجتمعات ، أوجه ملاحظتي الرابعة المبدئية .

طبعاً ان مثل هذا الاستقصاء ، المركز على بعض الامور ، لايمكن ان يكون شاملاً . فعلينا ان نبذل جهوداً متواصلة ، متنوعة ، بل وميممة من الملاحظة والتفكير، كي نستخلص المقاربات الاولى التي تفرضها علينا ظاهرة ، هي بالتعريف اجمالية وكونية، ولكن ثمة ماهو اعظم من ذلك . ان هذا العمل قد التف حول واقع كبير في عصرنا ، أعني جهد الشعوب في سبيل اقامة توزيع افضل للطاقة التاريخية عن طريق العالم . بيد ان هذا السباق في المبادرة البروميثية ، اذا ماتحقق فعلاً وحدد الآن قسماً كبيراً من أفعالنا ومشاعرنا الجماعية ، ليس هو الواقع الوحيد للانسان .

ان كون الحضارة التقنية تستطيع كما ينبغي ان تكون متوازنة ، وان تسيطر عليها الظاهرة الانسانية ، ليس كافياً بالنسبة لأولئك الذين يشككون في مبدأ هذه الحضارة . ورغم أن موقفهم هذا ليس موقفنا ، فان الدقة تقتضينا الاشارة اليه ، بل واكثر من ذلك ، تقتضينا أن نحتفظ بحقنا في تقديم فرضيات أخرى ، باسم احتمالات سيادة الانسان . ان المخيلة ، بل والدقة العلمية ، لايمكنها أن يتهربا من بعض هذه الفرضيات ، ولئن بدا أمراً وهمياً اجراء معارضة في القرن العشرين بين نزعة روحانية مشكوك بأمرها وبين التقدم المادي الذي يغذيها ، ويعتبر أساساً لها في النهاية ، فان التعدد الوحدوي ، الذي أرى فيه أثمن مكاسب عصرنا ، يحظر على الثقافة الصناعية ، كما يحظر على اية صيغة أخرى ان تدعي احتكار الكل لنفسها . ان باستطاعة هذه الثقافة أن تكون ضرورية ، وظافرة ، وان تصبح طاغية ؛ ان كرامتها ، بوصفها ثقافة ، تفرض عليها ان تقبل بحدودها وتجاوزها ، ولئن الحث الحركة الراهنة للعالم على المظاهر الجمالية والعامة على اعادة البناء ، باعتبارها اسماً آخر لبقاء الانسان حياً، فان تقدمها يتطلب اصراراً متزايداً على الالتفات الى مظاهرها الداخلية والخاصة . في كتاب اصدره مؤخراً يسبرز وحذر فيه الانسانية من اخطار الابادة الكلية ، قال الكاتب « ان العقل لايصبح ابداً واقعاً الا من خلال الحياة اليومية ».

انني ، من زاوية التحرر من الاستعمار ، قد حاولت مقاربة هذا المصير الواسع . أن التحرر من الاستعمار ليس سوى مقدمة له ، ولكنها ضرورية . انه يعطي العلاقات بين الطبيعة والثقافة مدى جديداً ؛ وهي علاقات تقوم في أساس كل مجتمع ، وأساس المجتمع البشري عامة . انه يشيد بما للانسان من وحدة وكثرة معاً ، انه يعدد التقدم المجدي وهو في إبان صعوده ، باحتمال ارتداده على أصحابه ومدعيه اذا لم يسهروا على الحفاظ على غائية الاختيار الانساني ، وانفتاحه على جميع الممكنات . ان هذه الاخطار ، وتلك الآمال ، قد ألقت أمام العالم شبكات معنى جديد ، يظل الانسان هو المقياس والنهاية لهذا المعنى .

ان بحثنا ، وقد عني بالفشل مثلما عني بالنجاح ، وبالأمل مثلما عني بالحدود ، وبالسلب مثلما عني بالايجاب ، قد حاول ان يضم هذه السمات المتناقضة في تركيب مشدود الى المستقبل .

التوعية العسكرية

ونشرها بين المدنيين

محمود شيت خطاب

كنت أنصت الى استاذ جامعي ، له في العلم منزلة ، وله بين العلماء مكانة ، وكان يتحدث عن الحرب الأخيرة بين العرب واسرائيل .

وقال الأستاذ الجامعي فيما قال للذين ينصتون اليه معي : « تصوروا أن دبابات اسرائيل كانت تقذف اهدافها ناراً » .

كانت معلوماته العسكرية العامة قليلة جداً ، ولم يكن ذلك موضع استغرابي ، ولكنني لم اكن ادري أن هناك انساناً لا يعرف أن الدبابات ترمي ناراً !!!

وكنت أنفاسي مبهوتاً مبهوراً ، لا أدري أأضحك أم أبكي ، ثم قلت له : « وهل كنت تتصور من قبل ، أن الدبابات تقذف اهدافها أزهاراً ؟! » .

ذلك مبلغ علم الاستاذ الجامعي بالقضايا العسكرية حتى البديهية منها، وهو ممّن هو علماً وثقافة ومكاناً ...

هو عالم في موضوعه بدون شك ، ولكن ثقافته العسكرية ضحلة الى درجة تدعو الى السخرية والرثاء .

فاذا كان هذا هو مبلغ علم استاذ جامعي بالثقافة العسكرية العامة ، فما مبلغ علم طلاب الجامعة وأساتذة المدارس الاعدادية والمتوسطة والابتدائية ، وما هو مبلغ تلاميذ المدارس بهذه الثقافة ، بل ماهو مبلغ علم أنصاف المتعلمين والأميين من أبناء الشعب ؟؟

واذا كانت الثقافة العامة ضرورية لكل انسان يعيش في القرن العشرين، واذا كانت الثقافة العسكرية من أهم مواضيع الثقافة العامة ان لم تكن أهمها على الاطلاق ؛ فان السكوت عن اشاعة الثقافة العسكرية العامة بين أبناء الشعب عامة وبين المثقفين منهم بصورة خاصة ، أصبح معيباً جداً ؛ خاصة في مثل هذه الايام العصيبة التي تجتازها الأمة العربية من المحيط الى الخليج ، والتي تحتم أن يتسلح الشعب العربي بالثقافة العامة العسكرية الأصيلة ، ليكون على بيّنة من أمره ، وليصبح طاقة مفيدة بين الطاقات المعنوية والمادية الأخرى للعرب في مثل هذه الظروف والأحوال .

ولكن ، هل نلوم الشعب العربي ، لأنه لم يتسلح بالثقافة العسكرية العامة حتى اليوم ؟

لست شخصياً ألوم العرب على تقصيرهم في هذا المجال، ولكنني أضع اللوم كله على المثقفين العسكريين ، الذين لم يعيروا هذه الناحية الحيوية ما تستحقه من اهتمام .

ان العسكريين الذين هم في الخدمة الفعلية ، شغلوا أنفسهم بواجباتهم العسكرية والفنية البحتة ، وغرقوا حتى الأذقان في بحر هذه الواجبات . والحق أن الواجبات العسكرية كثيرة جداً ، والنهوض بها كما ينبغي يحتاج الى جهود متفرغة مضنية وصبر جميل ودأب وحرص واخلاص . وهذه الواجبات تستنفد كل وقت الضابط الحريص ، وتثقل كاهله وتجعله يتفرغ لانجازها تفرغاً كاملاً .

ومن ضمن هذه الواجبات ، إشاعة الثقافة العامة بين العسكريين من المراتب جنوداً وضباط صف ، ويعتبر هذا الواجب من الواجبات الأصلية للضباط .

والضباط يبذلون قصارى جهودهم في هذا الميدان .

والاعتقاد بأن واجب الضباط تقتصر على اشاعة الثقافة العسكرية العامة بين العسكريين فقط ، هو اعتقاد له مايبرره ، ولكن الظروف العربية الراهنة تقتضي من الضباط الذين هم في الخدمة الفعلية ، أن يضاعفوا جهودهم لاشاعة الثقافة العسكرية العامة بين المدنيين ايضاً .

أما العسكريون المتقاعدون ، فقد شغل اكثرهم بأعمالهم الخاصة وانصرف قسم منهم الى هواياتهم الخاصة .

وليس هناك أي شك ، في أن الوقت المتيسر للضباط المتقاعدين هو أكثر بكثير من الوقت المتيسر للضباط الذين هم في الخدمة العسكرية الفعلية ، وهذا الوقت يجب ان يستغل أعظم الاستغلال لاشاعة الثقافة العسكرية العامة بين المدنيين .

وبامكان الضباط المتقاعدين ، ان يزجوا بطاقاتهم الثقافية في معركة نشر الثقافة العامة العسكرية ، متعاونين مع إخوانهم من الضباط الذين لايزالون في الخدمة العسكرية العامة .

ولعل جمعيات المحاربين القدماء العربية ، تستطيع ان تنظم حملات ثقافية عامة بالتعاون مع الجهات العسكرية المختصة ، وذلك بالقاء المحاضرات ونشر المقالات واذاعة البحوث وتأليف الكتب .

ان جمعيات المحاربين القدماء في العالم لها أثر بالغ الأهمية في هذا المجال ، وتستطيع جمعيات المحاربين القدماء في البلاد العربية ان تثبت وجودها في ميدان اشاعة الثقافة العامة العسكرية بين أبناء الشعب كافة سواء كان ذلك في مقرات تلك الجمعيات او في الجامعات والمدارس او في الجمعيات المختلفة الاخرى .

اما الانصراف الى الأعمال الخاصة وحدها والى الاستمتاع بالهوايات الشخصية ، وقضاء الوقت الثمين في المقاهي والأندية ـ خاصة في مثل هذه الظروف العصيبة التي تجتازها الامة العربية ـ وهجر العلوم العسكرية ، كأنما انتهت واجباتهم العسكرية في الساعات الأولى من إحالتهم على التقاعد ، فذلك لا مبرر له مطلقاً .

وأشهد أن قسماً من المتقاعدين العسكريين ـ وهم قليلون على كل حال ـ عرفوا واجباتهم ونهضوا بها بعد إحالتهم على التقاعد . وقد أدى هؤلاء واجبهم المقدس قبل الحرب الأخيرة وفي أثنائها وبعدها ، ولا يزالون يؤدون أمانتهم في إشاعة الثقافة العسكرية بين الناس بكل أمانة وشرف وإخلاص ، حتى أصبح لهم مكان ومكانة ليس في العراق وحده ، بل في البلاد العربية كلها خاصة وفي ديار المسلمين عامة .

ولكن هؤلاء الذين عرفوا طريقهم السوي قليلون ، وقد أصبحوا معروفين كل المعرفة ، أما الآخرون ؟!!!

وهؤلاء القليلون لا بد من معاونتهم لكي ينهض الجميع بحمل رسالة بث الثقافة العسكرية العامة بين أبناء الشعب كافة .

إني أطالب كل عسكري ، أن يبذل قصارى جهده ، لنشر الوعي الثقافي العسكري ، فذلك جهاد في هذه الأيام، والجهاد فرض عين في مثل هذه الظروف.

فما هي مجالات الثقافة العسكرية العامة ؟

هناك مواضيع كثيرة ، يمكن أن يتطرق اليها العسكريون ، والقاء الأضواء عليها لتقريبها الى الأفهام .

وتعداد مثل هذه المواضيع العسكرية ، يضيق عن الحصر ، وكلها مفيد أعظم الفائدة للثقافة العامة .

وبالطبع يخرج من نطاق هذه المواضيع ، القضايا العسكرية الفنية البحتة ، إذ ليس من المعقول أن يستمتع القارىء العادي بأنواع الحادق، وصفات القتال، وأساليب الانسحاب، وخواص الألغام، وأهمية التدريب الفردي والاجمالي، والتدريب الليلي وما الى ذلك ، فهذه المواضيع بالأصل من اختصاص العسكريين المتهنين ، لأنها تمس المهنة العسكرية ، وهي من متطلباتها الضرورية .

المواضيع التي يحتاج اليها الناس لاستكمال ثقافتهم العسكرية العامة ، هي مواضيع ذات نفع واتصال بالحياة العامة ، فهي لذلك موضع اهتمام كل فرد من أفراد الشعب وموضع رغبته وهواه .

من هذه المواضيع : المعنويات وأهميتها للشعب ، وإرادة القتال وضرورتها للنصر ، ومعاني الحرب الشاملة ، ومزايا الضبط والنظام ، وكيفية المحافظة على حياة الانسان ضد الغارات الجوية ، وما هي الحرب وما هي متطلباتها ، وكيف يمكن احراز النصر ، وكيف تكون القيادات الناجحة ، وماذا يحدث في الحرب فعلاً ، ومعلومات مفصلة عن العدو وعلى رأسه اسرائيل ، ومحاولات إسرائيل في التسليح والتدريب ، ونوايا اسرائيل التوسعية ، وأهداف إسرائيل العدوانية ،

وما هي قنابل النابالم ، وماذا على المواطن الصالح أن يفعل في الحرب ، وما هو الجهاد ، وما أثر العقيدة في احراز النصر ، وما هي الكتب العسكرية المهمة التي تقرأ ، وما هي الاشاعة ، وما هو الرتل الخامس ، ومن هم الأعـداء ومن هم الأصدقاء ، وتحليل المواقف العسكرية في الشرق الأوسط خاصة وفي العالم عامة ، وما هي أهمية الوحدة العسكرية العربية ، وما هي فائدة القيادة العربية الموحدة وما هي أهمية الكتمان ، وما هي مبـادىء الحرب ، وماذا عن تأريخ العرب المسلمين الفكري ، وماذا عن تراث العرب العسكري ، وما أهمية الدفاع المدني ضد الغارات الجوية ، وكيف يمكن تأمين الملاجىء ضد القصف الجوي والأرضي في كل بيت ، وماذا عن القتال في المدن والقرى ، وماذا عن القتال في الغابات والأحراش والمواضع المحصنة ...

هذه المواضيع قطرة من بحر ، وذرة من صحراء ، وهي ليست إلا أمثلة لما يمكن أن يكتبه العسكريون للنهوض بالثقافة العسكرية العامة .

فماذا عن أهداف هذه التوعية الشعبية من الناحية العسكرية ؟

١ — أن يعرف أبناء الشعب قاطبة ما هي الحرب ، وماذا يمكن أن يحدث فيها ، حتى لا يؤخذوا على حين غرّة فتنهار معنوياتهم دون مبرر .

إن الذين يظنون أن الحرب نزهة للترفيه ، مخطئون كل الخطأ وواهمون كل الوهم .

إن الحرب دماء وعرق ودموع وتدمير وتخريب ، ولكن شرف الأمة أعظم من كل خسارة مادية أو معنوية في الوجود .

٢ — أن يعرف كل فرد من أفراد الشعب واجبه في الحرب ، فينهض به على هدى وبصيرة ، ولا يبقى جاهلاً لا يعرف كيف ومتى وماذا يصنع خدمة لأمته وبلاده .

٣ – أن يعرف عدوه ، فلا يقاتله مغمض العينين ، بل يقاتله وهو في منتهى الحذر واليقظة والانتباه .

٤ – أن يحافظ كل فرد على نفسه ، فلا يفرط بها عبثاً ودون مبرر .

٥ – أن يقاوم كل فرد الاشاعات ، ويقطع الطريق على الرتل الخامس .

٦ – أن يعرف قيمة تاريخ أمته وأمجادها ، فيكون ذلك مبعث اعتزازه وفخره .

٧ – أن يعرف أثر العقيدة في إحراز النصر، وأن الجيش الذي لاعقيدة له لايمكن أن ينتصر في الحرب أبداً .

٨ – أن يؤمن بقيمة المعنويات وأهميتها للشعوب في السلام والحرب .

تلك هي أهداف التوعية العسكرية الشعبية ، وهي كما ترى ذات فائدة للشعب وذات أهمية قصوى لأبنائه .

إنه لايصح مطلقاً أن يبقى الشعب في غفلة عن الثقافة العسكرية العامة، خاصة في هذه الأيام التي يخوض فيها معركة مصيرية ضد عدو خداع ماكر : اسرائيل .

فكيف يمكن للعسكريين أن ينهضوا باعباء هذه التوعية ؟

١ – تخصيص باب في المجلة العسكرية للثقافة العسكرية العامة ،وعرض هذه المجلة للبيع في الأسواق .

إنه لايصح أن تقتصر أبواب المجلة العسكرية على البحوث الفنية العسكرية فقط ، بل يجب أن تشمل المواضيع العسكرية العامة ، ليقبل على قراءتها أبناء الشعب قاطبة .

وما يقال عن المجلة العسكرية ، يقال عن المجلات العسكرية الاخرى .

٢ – أن تعمل شعبة التوجيه المعنوي في مديرية التدريب العسكري

على حشد طاقات العسكريين المثقفين، ليؤلفوا الكتب في هذا الموضوع وينشروا البحوث في الصحف والمجلات ، ويذيعوا الأحاديث من إذاعة القوات المسلحة.

٣ — أن يقبل العسكريون ذوو الثقافة العسكرية العالية ، على نشر البحوث والدراسات في الصحف والمجلات ، وأن يذيعوا الأحاديث العسكرية العامة في الاذاعة والاذاعة المصورة ، وأن يؤلفوا الكتب القيمة في هذا الموضوع .

٤ — أن تتبنى وزارة الثقافة والإرشاد بالتعاون مع وزارة الدفاع أمر التوعية العسكرية ، فتذيع ما ينشره العسكريون اللامعون في الاذاعة ، وتنشر لهم ما يؤلفونه من كتب .

٥ — أن يجري التخطيط لتدريس الثقافة العسكرية العامة في المتوسطات والاعداديات والجامعة .

٦ — ان تنظم جمعية المحاربين القدماء موسماً ثقافياً في مقرها ، للنهوض بقسط من أعباء التوعية الشعبية العسكرية .

٧ — أن تجعل كل الجمعيات الثقافية والاجتماعية في موسمها الثقافي حصة كبيرة للتوعية العسكرية ، وتدعو العسكريين لالقاء محاضرات عن ذلك .

إنه لاعذر لعسكري لامع أن يقبع في بيته في هذه الأيام ، بل عليه واجب ثقيل جداً ، لابد من النهوض به ، فذلك وحده السبيل الى حشد الطاقات المادية والمعنوية للحرب .

إني أذكّر المخلصين بهذه الناحية الحيوية ، لعلّ الذكرى تنفع المؤمنين .

الوحدة العربية
والمد الصهيوني

بسلامة عبيد

عندما نتحدث عن المد الصهيوني فان اول ما يجب أن نعرفه هو ان العدو ليس فأراً ولا أرنباً كما دأبت على تصويره بعض الاذاعات العربية قبل النكسة الجديدة وأثناءها .

المد يفترض القوة . ويفترض بالمقابل بسطة الارض او رخاوة او شاطئاً غير متماسك يسمح للمد بأن ينساب من خلاله كما يحدث في ساحل رملي او في مجموعة من الجزر .

فالوطن العربي إذن هو حتى الآن ذلك الشاطىء الرملي الرخو ، او اذا كنا متفائلين ، تلك المجموعة من الجزر المتفاوتة في صلابة شطآنها .

والسؤال : كيف نوقف ذلك المد ؟

وأبسط الاجوبة هو ان نتحكم بذلك المد ، أو أن نتحكم بالشطآن نفسها.

ان القيام بالعمليتين معاً ، التحكم بالمد والتحكم بالشطآن ، جميل ، الا ان المنطق العلمي يقتضي تحصين الشاطىء اولاً ضد المد ، ومن ثم تأتي معالجة ايقاف المد بحد ذاته .

هل الشاطىء العربي بطبيعته رملي رخو ؟

لا ، لقد أثبت التاريخ ان الشاطىء العربي لم يكن بطبيعته رملياً ، رخواً ، فقد استطاع ان يصد في فترات قد لا تحصى كل مد ، وان تغلغل وهدد بالابتلاع او الاغراق .

الا ان التاريخ يثبت بالمقابل، ان الشاطىء العربي كان عرضة لأن يتسلل من خلال فرجاته او ثغراته المد الاجنبي، وأحدثه وأخطره المد الصهيوني الحديث .

ومن البديهي ان تكون الوحدة العربية أي تحطيم التجزئة هي الحل الذي لا بديل له لصد ذلك المد . ان الوحدة هي وحدها التي تسد كل فرجة او ثغرة يتسلل منها الخطر . وفي ظني ان كل الواعين المنزهين من العرب وكل الوطنيين الطيبين وكل الناس الذين نسميهم الشعب يعرفون هذه الوصفة العلاجية ، ولكنهم يتساءلون : ومن يعلق الجرس ؟

في رأيي ان الوحدة لا يمكن أن تتم برغبة هؤلاء الطيبين المنزهين وتمنياتهم وتطلعاتهم، وانما هي تتم بعمل حاسم تقوم به قيادة عربية تحطم الحدود، وتكتسح الانظمة الرجعية وتوحد العرب وتحررهم .

في رأيي ان الوحدة العربية هي تطلع مثالي ، روح بلا جسد ، ولا يمكن تجسيدها الا بالتطبيق العملي أي باحلال مبدأ التوحيد محل التشوق الى الوحدة ، والتحرير محل التطلع الى الحرية ، ومثل ذلك ينطبق ايضاً على الحل الاشتراكي، ان العاجز عن تحرير نفسه من نفسه ، هو عن تحرير نفسه من غيره أعجز .

لقد سبق لزعماء عرب كثيرين ولأحزاب وفئات عربية كثيرة ان قامت بمحاولات « وحدوية » باءت جميعها بالفشل الكلي او الجزئي ، واذا استنطقنا الاحداث التاريخية التي وأدت مثل تلك المحاولات وجدنا ان أهم اسباب تلك النكسات يعود الى :

— ان الزعيم العربي لم يستطع ان يكون فارساً عربياً أو بطلاً عربياً، وانما فضل ان يظل فارس ميدانه المحلي الضيق ، متخوفاً من رحابة الميدان القومي ومخاطره ومنافساته ، ومتخوفاً في الوقت نفسه ان يلصق به التاريخ تهمة « الديكتاتور » جاهلاً او متجاهلاً الفرق بين ديكتاتور بلاده وبين محرر بلاده وموحدها .

— ان القائد العربي المؤهل ذاتياً للقيادة القومية لم يعلن عن نفسه بعد ، وان تراءت قيادات شخصية كثيرة لم تلبث ان انسحبت من ميدان الطراد القومي كارهة او راغبة .

ويسأل الكثيرون : وهل من ضرورة لوجود القائد ؟ ألا يمكن ان تحل محله قيادة جماعية تظل هي الأقوى وهي الأمتن ؟ .

صحيح ، ولكن مع ذلك تظل تلك القيادة الجماعية دائماً بحاجة الى رائد ، أو زعيم ، وان تواضعنا قلنا انها بحاجة الى ما أسماه الاقدمون ، « الأول بين أقرانه » .

إذن نستطيع ان نقول ان من متطلبات التوحيد العربي وجود القائد

العربي او القيادة العربية العازمة على توحيد وطنها او تحريره أي العازمة على تحطيم الحدود التي أقامها الاستعمار بين اجزائه ، وتهديم الانظمة الرجعية العميلة الجاثمة على صدر الشعب تلك الانظمة التي تكون هذه الفرجات اوالثغرات حيث يتدفق المد الاستعماري والصهيوني فيهدد بالابتلاع والاغراق .

ان التجزئة إذن والأنظمة الرجعية هي التي ينفذ منخلالها المد الصهيوني . وتوحيد الوطن العربي ، لا الصف العربي ، هو العمل الوحيد الكفيل بدرء كل خطر قائم او مقبل .

وفي رأيي ايضاً ، ان الجامعة العربية لم تكن إلا تمييعاً وتضليلاً للخط العربي الوحدوي الأصيل . ان مثلها مثل آلهة العرب الأقدمين أقاموها ليتقربوا بها زلفى الى الله ، فاذا بهم ينسون الله ويؤلهون الوثن .

ونسأل ، وقد لاتكون لأسئلتنا نهاية : وماهو الحل العملي المطروح لوقف المد الصهيوني .

في رأيي ، أن لاحل امام العرب إلا تكوين سياسي يقوم على نظرية توحيد العرب بالقوة ، وتحريرهم بالقوة ، متجاوزاً كل مؤتمرات القمم ، ومؤكداً ان الشعب نفسه هو القمة ، وان كل زعامة عربية او حركة عربية تسمح لنفسها بأن تتصرف في سياستها على أساس أوطان عربية او شعوب عربية ووحـدات وطنية محلية انما هي زعامة مزيفة او جاهلة وحركة مشوبة بالرجعية والجبن .

ان المطلب الاول لوقف المد الصهيوني هو توحيد الوطن العربي وتحريره أي تحطيم حدوده واسقاط أنظمته الرجعية وشبه التقدمية في نضال سياسي منظم وعلى المستوى القومي للوطن كله .

قد يقول الكثيرون ان هذا الخط مطروح منذ عهد بعيد ، أو انه من مخلفات القرن التاسع عشر ، ولكني أقول ان هذا الخط ليس « موضة » او زيا يتقادم وانما هو خط مبدئي ، وانه لايكفي ان يطرح وانما يجب ان يكون هذا الخط ، خط التوحيد القومي مبدأ شخصياً وجماعياً تلتزم به السياسة والسياسيون. انه استراتيجية الحركة العربية . وكل عملية او تكتيك يناقض هذه الاستراتيجية او يتحايل عليها يعتبر مساهمة في تحريض المد على الابتلاع والثغرة على الامتداد والاتساع .

أمام المرآة

هاني الراهب

عقب كل نكسة تراجع الشعوب ذاتها لتستقرىء أسباب تلك النكسة بغية تجميع القوى النضالية تجميعاً فعالاً والانطلاق من مواقع صحيحة وطيدة . هذه المراجعة تنطلق من مبدأ أساسي هام هو أن الأسباب المرحلية للنكسة وخاصة تلك التي تنشأ إبان المعركة — ليست أهم الأسباب المفضية لها ، وإنما تلك العوامل الخفية المستترة في شخصية الأمة ، التي تغطيها حوادث الحياة اليومية .

لقد قيلت حقائق كثيرة عن استخدام التكنولوجيا المتفوقة لدى دول الاستعمار، وطاقاتها التدميرية في الحرب العدوانية التي شنت، بالاشتراك مع اسرائيل، على الأمة العربية في الخامس في حزيران. هذه الحقائق اكدت ان ذينك الحليفين الطبيعيين قد كسبا جولة العدوان الأولى. لكن شيئاً لم يقل عن الجانب الآخر من القضية، عن انفسنا، عن صفاتنا وطريقتنا في معاملة الزمن والاحداث.

ان التعرض لهذه المهمة ليس سهلاً، ولا يستطيع ان يكون كاملاً الااذا شارك الجميع فيه. والسؤال المطروح عن الاسباب القومية للنكسة سيبقى قاصراً ومحدوداً إذا نحن توقفنا عند حدود الخامس من حزيران، ماقبله بقليل وما بعده حتى الآن. ينبغي أن نبحث عن الجواب في شخصية العربي المعاصر، في صفاته، طريقه تفكيره، حياته اليومية، تصوراته. فمن جميع هذه الجوانب تنبثق مفاهيمه العملية وخططه وأسباب نجاحه وفشله.

وليس الغرض من هذه الكلمات — مرة أخرى — تغطية الجوانب كلها، فذلك عصي على فرد واحد. وليس كذلك نوعاً من الإيلام الذاتي المضعف للروح المعنوية، وانما هو مراجعة واعادة نظر. ان الاحساس بالنكسة متسلل الى اعمق اعماقنا، ولن تزيده الكلمات، كما لن تخفف منه الخطب ومناقشات الطرق المغلقة. وماسنعرضه هنا يقتصر على جوانب محددة من شخصية العربي.

البعد عن الموضوعية

غالباً مايجد العربي نفسه قادراً على اطلاق تعميمات حول أية قضية. يستطيع أن يقول ان الماركسية تحل مشاكل البشرية جمعاء، أو يقول ان الماركسية نظرية فاشلة ولا علاقة لاحد بها الا ماركس نفسه. يقول ان الواقعية

الاشتراكية هي المذهب الوحيد في الادب الذي يخـدم قضية الشعب ، او انه مذهب استبدادي ضيق ومرفوض جملة وتفصيلاً لان الارهاب عماده الأساسي . ويقول ان فلاناً من الزعماء خائن ويجب تعليق مشنقته . . في ساحة المرجة اذا أمكن ، أو أنه بطل وذكي وشجاع . ويقول ان التطبيق الاشتراكي يدمر اقتصاد البلد الذي يمارسـه ، أو أنه هدف قومي لايجوز التعرض له ومن يتعرض له يكن خائنـاً .

وهذه التعميمات توجد أيضاً في القضايا او المشاكل التي يتصدى لها العربي فهو بدراسة واحدة ، وأحياناً بجملة واحدة ، يغطي حدثاً ضخماً مثل ثورة عدن أو برنامجاً كبيراً مثل سد الفرات في القطر العربي السوري ، ويقرر أن تأميم البترول لا بد منه فوراً أو انه اجراء مستحيل ، ويجزم بأن سبب النكسة هو هذا او ذاك وحسب من العوامل .

ذلك الاندفاع في رسم النتائج النهائية أو الصورة الكلية لموضوعة من الموضوعات يبعـد صاحبه عن ادراكها والاحاطة بها . فالمفروض في أية مواجهة موضوعية لقضية ما أن نتناول منها حجماً صغيراً يمكن استنفاده بحثاً وتحليلاً ودراسة ويتناول آخرون حجوماً أخرى فيعالجونها بالأسلوب نفسه ، حتى تتجمع في النهاية المعلومات والخطط الكاملة بشأن هذه القضية إذ يمكن وضعها عندئذ موضع التنفيذ العملي .

ويعود اطلاق التعميمات الجارفة على هذا النحو الى فقدان الرؤية الموضوعية الصحيحة والأفكار المتبلورة . فنحن نكتفي بقدر ضئيل من المعلومات حول موضوع ما ، قدر يمكننا من الحديث عنه . ولا يهمنا بعد ذلك ، لا استكمال المعلومات ولا تفحصها لفرز الحقائق منها وإبعاد الاختلاقات . وان رؤيتنا لها

رؤية انفعالية تصل الى حد تبني أية مقولة اذا توفرت لها الاثارة والعاطفية ـ وذلك لأننا بصورة عامة نتفاعل مع الحياة بحواسنا أكثر مما نتفاعل بعقولنا ، ونتناول المعلومات للادعاء أكثر مما نتناولها للاكتشاف والخلق . فاذا ما توفر لنا قدر يكفي للحديث أغلقنا الباب بوجه الباقي ، وعندما يتطور الحديث ـ وغالباً لا شيء الا الحديث ـ حتى يفيض عما لدينا من معلومات ، نستولد أفكاراً جديدة وحقائق اضافية ، نؤكد وقوعها وصدقها ، ونحاجج على أساسها غير عابئين بحرمة الحقيقة وبخطورة افتراضها . وقليلون بيننا أولئك القادرون على الاعتراف بجهلهم الجزئي او الكلي للشيء الذي يتحدثون عنه .

نحن مثلاً لا نعرف عن تاريخ الحركة الصهيونية الا النزير النزير ـ وأقل من هذا معرفتنا بهجرة الصهيونيين الى فلسطين ـ وهي الوجه العملي للصهيونية . ولا نعرف عن تغلغل هذه الحركة في النظام الاقتصادي للدول الاستعمارية الا فكرة عامة هي أن الصهيونية العالمية مسيطرة على الاقتصاد الغربي . وبعضنا يسوق هذا الكلام لا لتزداد قضيتنا توضحاً وصلابة وانما لكي يبرر ويختلق الأعذار ، ولا لمعرفة قوة العدو وانما للخوف منها .

إن الرؤية العامة صفة شائعة بيننا لكنها غير وافية . معرفـــة الإطار والصورة الاجمالية لاتغني أبداً عن معرفة الدقائق والتخصص العلمي ، وعن المتابعة الجادة المتعبة للوصول إلى الحقيقة .

وراء تلك التعميمات الجارفة وذلك الافتقار للأفكار المتبلورة مناخ نفسي وحضاري . نحن شعب يكاد أن يرث التخلف وراثة ، وربما كان فعلاً كذلك ـ منذ ألف عام تقريباً تجزأ وطننا واحتله أو احتل بعضه الأجنبي . وتكاد مظاهر التخلف تبعاً لذلك تطغى على كل شيء في شخصيتنا ، باستثناء الوعي . نحن نعي

تخلفنا وعياً حاداً جارحاً ، والوعي هو صلتنا بالعالم . لكن الحضارة لم تمسنا إلا مساً رفيقاً . نحن كالطفل في بداية إطلالته على العالم ، من وجه شبه أساسي هو أننا نخلط بين ما نراه وما هو نحن في الواقع . وغالباً ما نظن انفسنا الشيء الآخر الذي نشاهده والذي ليس نحن . وغالباً لانتبين مواقع أقدامنا . وعندما يقع ما ينبهنا إلى البعد بين ما نراه وما نحن في الواقع — كنكسة الخامس من حزيران — تضنينا المرارة واليأس والإحباط ، أو نغرق في تأملات مستقبلية زاهية . ويظل إيماننا في كلتا الحالتين عاطفياً . ويبقى التخطيط للمعركة — وهي دائماً معركة — والتصدي لها بحاول عملية مقصورين على نفر قليل منا .

وأبرز ما في هذا المناخ النفسي الحضاري دافع توكيد الذات . نحن نعاني من شعورنا بالتخلف ، وهو شعور ليس مريحاً ، بل على العكس يبعث في النفس تهيجاً مستمراً . ونعاني من الانتظار الضروري لتحقق أهدافنا التي نريدها أن تصير إلى وقائع بلمحة عين . ودافع توكيد الذات هذا له صفة فردية كافة لأن الذات القومية أو الجماعية لم تتكون وتتبلور بعد . وهـــذا هو بعض السبب في انقساماتنا ومعظم السبب في لجوئنا إلى التعميمات الجارفة . فمثل هذا اللجوء يوصلنا إلى القمة فوراً ، يريحنا ويرضينا : لقد عرفنا كل شيء وأصدرنا حكمنا ؛ نحن إذن لسنا متخلفين : نحن نستطيع التصدي لأية مشكلة وإبداء الرأي فيها بسرعة تدعو إلى الفخر .

وتكون قد فاتتنـــا الرؤية الموضوعية والأفكار المتبلورة ووضع الحلول العملية .

مشكلة الحرية

إن من يراقب اثنين مشتركين في نقاش يعجب — إذا استطاع أن يظل

محايداً - من اندفاع هذا النقاش نحو طرق مسدودة وانتهائه بالغضب والتهم وربما الشتائم. وإن من يقرأ الحوادث الكتابية والمناقشات الصحفية والأدبية تدهشه الظاهرة نفسها. فلا يخلو مقال من الغمز واللمز أو الاتهام بالخيانة أو التعرض الشخصي. وهذا بعض الأمثلة العابرة:

هدد أحد متناقشين بسجن الآخر. قال له إن على الدولة أن تضعه في زنزانة مفردة - سيلول - جزاء آرائه.

قبل عدة أشهر ظهر في إحدى الجرائد مقال يدعو كاتبه إلى عدم التغزل بالعمال والفلاحين وإنما إلى فهم واقعهم وحياتهم والتعلم منهم. في اليوم التالي نشرت الجريدة مقالاً مضاداً يتهم الكاتب السابق بالتزلف والتمسح ومحاولة الالتصاق بغية التكسب والوصول.

منذ شهرين أو ثلاثة قامت الضجة المعروفة حول نزار قباني المنشورة في عدد الآداب لشهر آب، والتي نال صاحبها قسطاً محترماً من التجريح والفضح.

الحوادث من هذا النوع دلالة كبيرة، هي تعثرنا في ممارسة الحرية ضمن علاقاتنا اليومية والعامة. فالنقاش الذي يفضي الى مشاجرة واتهامات، او الى مجة صوت في افضل الاحوال، والحوارات القلمية التي تؤول الى النهاية نفسها، تعني أننا نضيق ذرعاً باختلاف الآخرين عنا، ونعتبره تهديداً لتوكيد الذات الذي نحاول الحصول عليه. وأكثر من ذلك، ان موقفنا في اختلاف الآخرين عنا - وهو موقف عصبي ومنفعل - يعني رفضنا الاعتراف بحريتهم في النظر الى الأمور من خلال تجربتهم الخاصة. وعلى العكس من ذلك نحاول أن نمنع بعضنا بعضاً من الاعتقاد بفكرة مخالفة. وهذا ما يفضي بالشرط الانساني الى الإرهاب والاقتتال.

ونحن نبرر حرصنا على هذا الموقف بحرصنا على القضية نفسها من التزييف

او التمييع او التآمر. لكننا في الواقع نكون حريصين على إخفاء افتقارنا لنزعة الحرية، ولإرضاء دافع توكيد الذات، الذي نتخمه بالتعميمات الهشة المعرضة للكسر. فالقضية لا تحمى بالمنع، وانما بعرض الحقائق الدامغة وبالفرز الموضوعي لمكوناتها وأبعادها وأغراضها. والقضية لا تترسخ بالمكارثية ولا بالجدانوفية وانما بالعمل، بطرحها شعاراً والتخطيط لها وتنفيذها.

وليس المقصود بحرية الاختلاف حرية الخيانة. ثمة جماعات تختلف وتكون على صلة بالاستعمار. مثل هذه حكمها حكم آخر. الحديث هنا يدور حول فردين نظيفين من الناس اذا تحدثا او تساجلا. وهما انسانان يحتاج الوطن اليهما معاً، لكنهما يضيعان وقتهما وجهدهما وعلاقاتهما في التشبث الأعمى بالرأي واتهام بعضهما بعضاً. ومشكلة الحرية هذه – او ربما مشكلة حجبها – ناجمة عن عصور الاستبداد والطغيان التي حكمت الشعب العربي، وعن قلة الموضوعية وخفة الاطلاع. فمن المعروف أن البرهان العلمي لا يحتاج الى اصوات عالية كي يصدقه العقل. وانما تعلو الأصوات عندما تتعرض أحكام تدعي العلمية الى نقد من جانب آخر هو غالباً غير علمي ايضاً. ويلمس الطرفان الهشاشة لدى كليهما فيؤكدان رأيها، وكل يرفضها عنده.

مثل هذا حدث ويحدث في مناقشة أسباب النكسة. لقد ادلى الجميع بدلائهم، وللتو صاروا قادة عسكريين، وخبراء استراتيجيين، وحكاماً وقضاة تاريخيين. وانتهوا بعدئذ الى لا شيء. لا شيء، لأن السبب الحقيقي للنكسة لم يناقش قط ولأن احداً منهم لم يسأل نفسه: أين كان طوال هذه المدة؟ فغياب النقد الذاتي من جانب، وغياب الموضوعية من جانب آخر يفضيان الى الإرهاب، وهو خلة لا تزال تشكو منها الشخصية العربية.

أين كان طوال هذه المدة ، سؤال هـــام . اذا كان السلم فترة استعداد للحرب، فماذا يفعل العربي خلال هذه الفترة ؟ من المؤسف، ولكن من الضروري، أن نقول ان الكسل والتواكل ظاهرة كبيرة في حياتنا . ظاهرة كبيرة بالنسبة لمن يقوم بعمل ، وبالنسبة لمن لا يقوم بعمل . الموظف يستطيع أن ينجز عمله بأربع ساعات ، لكنه يستغرق سبعاً . أي أن بعضه يبقى اليوم التالي . والحرفي يستطيع أن ينهي تعهداته في الوقت المحدد بينه وبين زبونه ، لكنه لا ينهيه ، والكاتب يستطيع أن يقدم أثراً بنصف المدة التي يستغرقها ..

نحن لا نعطي للزمن الأهمية اللازمة ، الاحترام ، بل التقديس اللازم . ولا أحد يخطط زمنه وأيامه ضمن برنامج للنشاط . ان دراسة تقوم بها للمقاهي تعطينا معلومات مذهلة ، سواء بالنسبة لعدد روادها او بالنسبة للوقت الذي يمضيه الرواد فيها . وبعملية حسابية بسيطة ، يمكننا القول أن خمسين شخصاً ـ في المتوسط ـ يوجدون ضمن المقهى في وقت واحد . ودمشق غاصة بالمقاهي ، ونحن نعرف أن لاشيء يخرجهم باستثناء الاسترخاء والكلام او اللعب بالنرد والورق .

مثل هذا نشاهده في الحانات ، حيث الشرط الانساني أسوأ منه بكثير في المقاهي .

ونشاهده ايضاً في الزيارات العائلية . ان تقليد الزيارات العائلية عندنا تقليد عجيب . ففي كل مرة تجتمع عائلتان بجلس الزائرون والمستقبلون على الكنبات طيلة ساعتين او اكثر وليس لهم عمل يؤدونه الا الكلام . الناس عندنا يحبون ان يشاهدوا بعضهم بعضاً لمحض المشاهدة . وهذه حاجة نظرية عند البشر : ملاقاة الآخرين . لكنها عندنا ظاهرة شاذة . فالنشاط الاجتماعي يكاد يقتصر على الزيارة:

الجلوس ، الكلام الذي لاجدوى منه غالباً ، تناول القهوة او اكثر ، الالحاحات والمعاتبات والمجاملات .. ومن الطبيعي ان يسود النقاش لقاءات كهذه يتعطل فيها كل شيء باستثناء اللسان . ومن الطبيعي ايضاً ان يهدر الزمن فيها بلا ثمن .

وان لهذا التقليد آداباً وتفريعات كثيرة ، منها الضيافة ، والتشديد على ان وقت الزيارة لم ينته ، وضرورة التعلل بعذر ـ هو غالباً كاذب ـ لأجل الذهاب، والدعوة الى الزيارة ، والمجادلة حول من أولى بالزيارة الضيف أم المضيف، وحول استيفاء الزيارة حقها من الجلوس .. كل هذا لأنه لايكلف سوى الكلام . لاجهد يبذل الا بتحريك اللسان ، وهو عضو مكون من سبعة عشر عضلة قلّ ان تتعب .

ظاهرة الكسل هذه موجودة ايضا في مشاهدة برامج التلفزيون وفي الذهاب الكثير لدور السينما . ويعلم الله كم من أوقات الفراغ مهدور على نحو محزن بسببها . ربما كل أوقات الفراغ . وينطبق هذا القول على اساتذة الجامعة الذين ينحصر نشاطهم الفكري في اعطاء الدروس وفي الكلام ـ اذا تكلموا . ان بلادنا لفي حاجة ماسة الى البحوث العلمية بمختلف أنواعها : اقتصادية، فكرية، اجتماعية، تربوية ، طبية ، فيزيائية و كيميائية .. الخ . ومثل هذه البحوث واجب مطلوب من أساتذة الجامعة ، وهو واجب مهمل .

بدلاً من تنمية هوايات مفيدة ، او اهتمامات ونشاطات تضيف الى النضال الشعبي ، في اوقات الفراغ ، يضيع نصف اليوم في حياة العربي بلا جدوى . الشيء الأكثر بروزاً هو الكلام . وحقاً ، كيف يمكن ان يستنفد زمن مابعد فترة العمل اليومي الا بالكلام ؟

إحدى نتائج هذا الكسل الحكّاء أن العربي يطلب من الحكومة القيام بكل شيء وينتقدها بمرارة إذا قصرت . فهو لوعيه يعرف أين يكمن الخطأ

والصواب وأين ما يجب أن يفعل ، ولكسله لا يحقق شيئاً . ويغيظه ألا يتحقق شيء فينظر إلى السلطة فيتهمها ويشجبها . وهو يستمر في الكسل لانه لم يختر لنفسه أهدافاً ولم يضعها في مكانها الصحيح في رقعة النضال الشعبي الجماهيري .

تتفاعل ظاهرتا الكسل والحكي مع ظاهرة أخرى هي الحلم . فعبارات مثل « تحققت أحلامنا » و « صار الحلم حقيقة » و «هذا الشيء مثل الحلم» وكثير غيرها تدل على مدى تغلغل الاحلام في بنياننا النفسي . تقول الخطيبة لخطيبها : « أنا خائفة ان ينقطع هذا الحلم الجميل الذي نعيش فيه » ، ويجيبها الخطيب : « ستظل حياتنا كلها أحلاماً جميلة » ومثل هذا القول يخلط الحلم بالحقيقة أو يجعل الحقيقة الماتعة حلماً .

ويسلك الحلم في طريق معقد بصدد الأمور الحاسمة أو القومية . عرفنا مثلاً أن وجود إسرائيل يهدد وجودنا . وكان ردنا الخفي على ذلك أن مثل هذا التهديد لن يتم : هل يعقل ان تصل إسرائيل إلى الفرات والنيل . وأعقب هذا الحلم نوع من الطمأنينة الكسولة الخاتلة : لقد تصورنا أن هذا شيء فظيع وأنه « حلم » ، وقلنا إنه مستحيل فاطمأنت النفوس وتركت العمل . وأجبنا على الحلم بحلم آخر هو التهديد الكلامي والبطولات الإعلامية . وظل الواقع بعيداً عن صيرورة تتجه باتجاه « تحقيق » الحلم فعلاً وعملاً .

وينسحب هذا السلوك على حياتنا الشخصية في اهم علاقاتها . قضية الزواج مثلاً تتخذ هذا الطابع : يحلم الانسان بزوجه وبحياة سعيدة ، ويبقى نشاطه في حدود التصورات العذبة النموذجية لهذه الزوجة وتلك الحياة . وقليلة جداً الحالات التي يعرف فيها هؤلاء الحالمون أسساً موضوعية وقيماً معينة وصفات خاصة ضرورية كلها لانجاح الحياة الزوجية . بعد الزواج تتفتح أمامهم شروط الحياة

الزوجية الموضوعية بعلاقاتها اليومية والعميقة ومتطلباتها المزاجية والثقافية والجنسية. عندئذ يستعصي على معظمهم تقويم هذه العلاقات وضبطها في منحى ايجابي ناجح.

ذلك أنه عندما تصدم الحقيقة الحلم تزلزل صاحبه. فاما أن يهرب الى علاقات واقعية غير شرعية (غير شرعية بمعنى أنها لا تحمل الى صاحبها الرضى) واما ان يهرب الى أحلام جديدة لا تتحقق وتكون عذابا دائماً أو فشلاً جديداً.

والنكسة في مثل هذه الشروط مؤكدة.

المثالية :

تقول إحدى أغاني الاذاعة :

شرف الوثبة ان ترضى العلى   غلب الواثب ام لم يغلب

هذه البيت من الشعر، كظاهرة، سبب من أسباب النكسة. وهو نموذج من عشرات يوضح تكريس العربي ذاته وأعماله للمثالية. ان انساناً لا يهمه ان يهشم رأسه طالما هو يرضى العلى لن يرضى مثالاً ولن يحتفظ برأسه سليما. ونلمس هذه المثالية في التعلق الشديد باعتبار نكبة فلسطين جرحاً لكرامة العرب.

إن النكبة جرح لكرامة العرب، لكنها ليست هذا وحسب. الاحساس بجرح الكرامة لا يعني بالضرورة الاحساس بالواقع، وفهمه، ولا يعني أننا فهمنا عملياً ان النكبة بداية افنـاء للجنس العربي واستعمار واسع للارض العربية ونهب كامل لثرواتها، ولا يعني — ولم يعن — أننا فهمنا كيف نجابه هذا الامتحان المصيري الذي يجابهنا. على العكس تحيلنا أن مجابهته نوع من النزعة الفدائية. وتوقفنا عند هذا المثال بدلاً من أن نتقدم تلك الخطوة الضرورية نحو استقراء الواقع وتطويعه للمثال. ونحن لا زلنا نلتهب حماسة للنداءات، تهيجنا الأغاني وتثيرنا الخطب وأبيات الشعر التقليدية وحركات الأيدي.

من هذه المثالية خرجت الشعارات . انها تملأ حياتنا ، لأنها ترضي بسرعة نفوسنا المضطربة ، ولا تكلف جهداً ، وتكمل لعبة الذهن في جعل الشعارات بطريقة ما بديلاً للعمل المضني والتخطيط العلمي . وبسبب من استغراقنا في المثالية استغراقاً حجب عنا الواقع والتخطيط للمستقبل، فان النكسة التي تصيبنا ترسلنا الى أحد طريقين : فإما الاحساس بالانسحاق ، وإما مزيد من التعلق بالمثل يؤدي إلى مزيد من الانتفاخ الذاتي . في الطريق الأول نحس بالنكسة والإحباط وتحطم المثال ، ونستسلم للهم ولمرور الزمن . وفي الطريق الثاني تقوم عملية تصعيد وتعال برفض النكسة وتصورها على أنها عابرة وستزول في المستقبل ، ثم نستسلم لعذوبة هذا الحلم .

هذه ملحوظات مستمدة من المعايشة والتجريب ومن شيء من التحليل الشخصي . وبما كان بعضها خاطئاً او مجحفاً ، لكن الشيء الهام يبقى ، ونبقى جميعاً مطالبين به : النقد الذاتي الايجابي .

الحضارة العالمية

والثقافات القومية

بول ريكور
ترجمة: جورج صدقني

إن المشكلة المثارة هنا مشتركة بين الأمم العريقة في الصناعة ، والتي تسوسها دولة قومية قديمة من جهة ؛ والأمم الخارجة من التخلف والمتمتعة باستقلال حديث من جهة أخرى . والمشكلة هي :

أن البشرية ، إذا أخذت كجسد واحد، تدخل في حضارة واحدة على هذا الكوكب ، تمثل في وقت واحد تقدماً هائلاً للجميع وجهداً باهظاً لابقاء التراث الثقافي وملاءمته مع هذا الاطار الجديد . وإننا لنشعر جميعاً ، بدرجات

متفاوتة وبأشكال متغيرة ، بالتوتر بين ضرورة هذا السبيل وهذا التقدم من جهة ، وضرورة صيانة ماورثناه عن الآباء والأجداد من جهة أخرى . وأود أن أقول فوراً إن تفكيري لايصدر من أي ازدراء للحضارة الحديثة الشاملة . المشكلة ، على وجه التحديد ، في أننا نعاني ضغطاً من ضرورتين متضادتين ولكنها متساويتان عنفاً وسلطاناً .

— ١ —

كيف نحدد هذه الحضارة الشاملة العالمية صفاتها المميزة ؟ لقد تسرع بعضهم فقال إنها حضارة ذات طابع تقني (Technique) . ومع ذلك فإن التقنية (La Technique) ليست الواقعة الحاسمة الأساسية ؛ فركز انتشار التقنية هو الفكر العلمي نفسه ؛ فهو الذي يوحد البشرية قبل ذلك على صعيد بالغ التجريد ، صعيد عقلي محض ، وهو الذي يهب الحضارة الإنسانية ، على هذا الأساس ، طابعها الكلي .

ينبغي أن يظل ماثلاً في الأذهان أنه إذا كان العلم إغريقياً من حيث الأصل ، ثم أوروبياً عبر غاليليه وديكارت ونيوتن الخ ... ، فإنه يثبت قدرته على تجميع الجنس البشري بما هو إنساني لابما هو إغريقي أو أوروبي ؛ وإنه يكشف عن نوع من وحدة من حيث المبدأ توجه صفات هذه الحضارة المميزة الأخرى كلها . وعندما كتب باسكال يقول : « يمكن أن تعد البشرية كلها إنساناً واحداً يتعلم ويتذكر دون انقطاع » ، فان جملته تعني بكل بساطة أن كل إنسان قادر على أن يستنتج بالطريقة نفسها ، اذا وضع أمام برهان ذي صيغة هندسية أو تجريبية ، بشرط أن يكون قد حصل على التعليم اللازم . وإذن فانها وحدة للجنس البشري تجريدية محضة وعقلية ، تنتج عنها مظاهر الحضارة الحديثة كلها .

وفي المرتبة الثانية ، نضع بالطبع تطور التقنيات . ويفهم هذا التطور كاستعادة جديدة للأدوات التقليدية إنطلاقاً من نتائج هذا العلم الواحد وتطبيقاته . وتتصف هذه الأدوات ، التي تشكل جزءاً من رأسمال البشرية الثقافي البدائي ، بجمود عظيم جداً بحد ذاتها . فاذا تركت لذاتها مالت الى الترسب في تقاليد لاتقهر ، فالأدوات لاتتغير بحركة داخلية ، ولكن بتأثير المعرفة العلمية في هذه الادوات ؛ فبالفكر أدخلت الثورة الى الأدوات فأصبحت ماكينات . هنا نلمس منبعاً ثانياً للكلية (Universalité) : فالبشرية تنمو في الطبيعة ككائن مصطنع ، أي ككائن يلقي كل علاقاته بالطبيعة بواسطة جلة من

الأدوات لاتنفك المعرفة العلمية تدخل ثورة فيها . ان الانسان يعني ما صناعة كلية ؛ وبهذا المعنى يمكننا أن نقول ان التقنية من حيث هي استعادة جديدة للأدوات التقليدية انطلاقاً من علم تطبيقي ، ليس لها وطن هي الأخرى . وحتى اذا أمكن أن ننسب الى هذه الأمة أوتلك ، الى هذه الثقافة أوتلك ، اختراع الكتابة الأبجدية ، والمطبعة ، والآلة البخارية الخ ... ، فان الاختراع ينتسب بحق الى البشرية . فهو يخلق ، عاجلاً أو آجلاً، وضعاً لارجعة فيه بالنسبة الى الجميع ؛ ويمكن أن يتأخر انتشاره ولكن لايمكن أن يمتنع مطلقاً . وعلى هذا النحو نكون أمام بشرية كلية بحكم الواقع : فما ان يظهر اختراع في بقعة من بقاع العالم ،حتى يصبح لتوه مهيأ للانتشار العالمي . ان الثورات التقنية تتضاف بعضها الى بعض ، ولأنها تتضاف بعضهـــا الى بعض تفلت من إسار الحواجز الثقافية . فبوسعنا القول بوجود تقنية عالمية واحدة على الرغم من التأخر في هذه البقعة من الكرة الأرضية أوتلك . ولهذا نجد أن الثورات القومية أوذات النزعة القومية ، عندما تقود شعباً الى أن يكون شعباً عالمياً . وحتى لوكان الحافز حافزاً قومياً أو ذا نزعة قومية — وسنعود الى ذلك بعد قليل — فانه يكون عاملاً من عوامل الانصال بمقدار مايكون عاملاً من عوامل التصنيع يشترك في الحضارة التقنية الواحدة . وقد أتيح لنا اليوم بفضل ظاهرة الانتشار هذه أن نملك شعوراً كونياً ، وإذا تجاسرت أقول شعوراً حاداً بكروية الأرض .

وفي المرتبة الثالثة ، بالنسبة الى هذه الحضارة الكلية ، أضع ما أسميه بجذر وجود سياسة عقلانية (Rationelle) . أنا لا أقلل ، بالطبع ، تقديري أهميـــة الانظمة السياسية ، ولكن يمكن القول ان تجربة بشرية واحدة، بل تقنية سياسية واحدة تتموعبر تباين الانظمة السياسية المعروفة . ان الدولة الحديثة ، بما هي دولة، ذات بنية كليةواضحة المعالم . وأول فيلسوف فكر في هذا الشكل من الكلية هو هيغلفي **مبادىءفلسفة الحق**. فهيغل أول من بين أن نمو دولة تقيم الحـــق ، وتنمي وسائل التنفيذ على شكل ادارة (Administration) ، هو وجه من وجوه عقلانية الانسانية ، ووجه من وجوه كليتها في الوقت نفسه . وحتى لو انتقدنا البيروقراطية والتكنوقراطية انتقـــاداً عنيفاً ، فان انتقادنا لا يمس الا الشكل المرضي الذي تأخذه الظاهرة العقلانية التي نحن بصدد القـــاء الضوء عليها. بل لعله ينبغي أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان الامر ليس امروجود تجربة سياسية واحدة لدى البشرية وحسب ، ولكن الأمر ان الانظمة كلها تجري الى حد ما في مجرى مشترك ؛ فنحن نراها جميعاً تتطور تطوراً لابد منه من شكل اوتوقراطي

بمجرد ان تجتاز بعض مراحل الرفاهية والتعليم والثقافة ؛ ونحن نراها جميعاً تسعى الى اقامة توازن بين ضرورة تركيز السلطة من جهة — اي تجسيدها في اشخاص — لكي تجعل اتخاذ القرار ممكناً ، وضرورة تنظيم المناقشة من جهة اخرى لكي تجعل اكبر جمهور ممكن من الناس يشترك في هذا القرار . ولكنني اريد ان أعود الى هـذا النوع من عقلنة السلطة المتمثل في الادارة . لأنه ظاهرة ليس من عادة الفلسفة السياسية ان تفكر فيها . ومع ذلك فان هذه الظاهرة عامل من عوامل عقلنة التاريخ لا يمكن ان نقلل من تقدير أهميته؛ بل انه ليسعنا القول اننا لا نواجه دولة ، دولة حديثة ، الا عندما نرى السلطة قادرة على أن تقيم وظيفة عامة ، أو هيئة من الموظفين الذين يهيئون القرارات وينفذونها دون أن يكونوا مسؤولين هم انفسهم عن القرار السياسي . وهذا وجه معقول للسياسة التي تهم الآن حتماً شعوب العالم كافة ، الى درجة أنه يكون مقياساً حاسماً أكثر من أي مقياس آخر لظهور دولة من الدول على المسرح العالمي .

وفي المرتبة الرابعة ، نستطيع ان نخاطر بالقول بوجود اقتصاد عقلاني كلي . لا ريب في أنه ينبغي الحديث عنه بحذر أكثر من الحذر في الحديث عن الظاهرة السابقة بسبب الأهمية الحاسمة التي تتصف بها الانظمة الاقتصادية بحد ذاتها . ومع ذلك فان ما يجري خلف هذه الواجهة مهم وخطير . فوراء التعارضات الكبيرة الضخمة المعروفة ، تنمو تقنية اقتصادية ذات طابع كلي حقيقي : فحسابات الظروف المحتملة وتقنية ضبط الأسواق وخطط التقدير والتقرير تحافظ على قدر من التماثل عبر تعارض الرأسمالية والاشتراكية . ان بوسعنا الكلام عن علم وعن تقنية اقتصاديين ذوي طابع أممي ، يشكلان جزءاً لا يتجزأ من اهداف اقتصادية مختلفة ، وفي الوقت نفسه ، يخلقان ، شئنا أم أبينا ، ظواهر تقارب تبدو نتائجها معتمة . وينتج هذا التقارب من ان الاقتصاد ، شأنه في ذلك شأن السياسة ، قائم على العلوم الانسانية التي ليس لها وطن في الأساس . ان الكلية من حيث الأصل ومن حيث الطابع العلمي تجعل العقلانية تنفذ ، في نهاية المطاف ، الى صميم التقنيات البشرية كلها .

وأخيراً ، يمكننا القول ان طرازاً من الحياة كلياً هو الآخر ينمو في انحاء العالم ويتجلى طراز الحياة هذا في (توحيد الشكل) لامفر منه يصيب المسكن ، واللباس (فالسترة التي تجوب العالم واحدة) . وتنبع هذه الظاهرة من كون طرز الحياة هي نفسها قد صبغتها التقنية بالعقلانية . وليست هذه التقنية ' تقنية ' إنتاج وحسب ، بل تقنية مواصلات ايضاً ، وتقنية علاقات ، وتقنية رفاهية ، وتقنية أوقات فراغ ، وتقنية

إعلام . ولعله يمكن الحديث عن تقنيّة ثقافة أولية وبكلمة أوضح ثقافة استهلاك ؛ وعلى هذا النحو نجد ثقافة للاستهلاك ذات طابع عالمي تنتمي طرازاً من الحياة ذا طابع كلي .

- ٢ -

والآن علام تدل هذه الحضارة العالمية ؟ ان دلالتها لذات معنيين متداخلين ، وهذا المعنى المزدوج يخلق المشكلة التي نبحثها هنا. فمن جهة يمكن القول انها تشكل تقدماً حقيقياً وهنا ينبغي لنا حقاً أن نعرّف هذه الكلمة : ان التقدم يتوافر بتوافر شرطين ، ذلك انه ظاهرة تجميع من جهة ، وظاهرة تحسين من جهة اخرى . الظاهرة الاولى هي الأسهل تمييزاً ، رغم ان حدودها غير مستقرة المعالم . ولعلني أقول عن طيب خاطر ان التقدم يكون موجوداً في كل مكان يمكن المرء فيه أن يميز ظاهرة تراكم الأدوات التي أشرنا اليها قبل قليل . ولكن ينبغي حينئذ أن تأخذ عبارة (الأدوات) بمعنى واسع الى أقصى حد ، بحيث يشمل المجال التقني البحت للأدوات والماكينات في آن معاً . وبهذا المعنى تدخل في باب (الأدوات) جلة الوساطات المنظمة الموضوعة في خدمة العلم والسياسة والاقتصاد ، وكذلك طُرُز الحياة ، ووسائل اللهو .

إن تحول الوسائل هذا الى وسائل جديدة هو الذي يشكل ظاهرة التجميع ،الأمر الذي يؤدي بالتالي الى وجود تاريخ بشري . من المؤكد انه توجد اسباب عديدة اخرى تؤدي إلى وجود تاريخ بشري ؛ ولكن صفة اللاعودة في هذا التاريخ ترجع في معظمها الى اننا نعمل وكأننا نعمل في الطرف النهائي من الاداة حيث لاضياع ولاتجمع ، هذه هي الظاهرة الاساسية . ومن الممكن ان نتعرف على هذه الظاهرة في مجـالات بعيدة في الظاهر بعداً شاسعاً عن التقنية الخالصة . فعلى هذا النحو ، تشكل التجارب غير الموفقة والاخفاقات السياسية تجربة تغدو ، بالنسبة الى مجموع البشر ، مماثلة للأداة . فمن الممكن ، مثلاً ، ان تؤدي بعض ضروب التقنية في التخطيط العنيف في ميدان الجماعة الفلاحية الى أن تغني مخططين آخرين بذلك نفسه عن اعادة ارتكاب الأخطاء نفسها ، شريطة ان يتبعوا سبيل العقلانية على الاقل . وعلى هذا النحو تنتج ظاهرة تصحيح واقتصاد في الوسائل، تعد وجها باهراً من وجوه التقدم اكثر من أي وجه آخر .

ولكن لايمكن أن نصف بالتقدم اي تجميع كان. فينبغي لهذا النمو أن يمثل الأفضل من نواح عدة . ويبدو لي ان هذا التعميم (Universalisation) خير بحد ذاته . ذلك أن وعي البشرية لوحدتها يعد ذاته يمثل شيئاً إيجابياً ؛ ولعله بوسعنا أن نقول ان نوعاً من تعرف الانسان على الانسان يحدث عبر هذه الظواهر كلها . فتعاظم العلاقات الانسانية

تجعل من البشرية شبكة يتزايد اتصال حلقاتها وترابطها احكاماً يوماً بعد يوم ، وتجعل من الأمم جميعاً ، ومن الفئات الاجتماعية بأسرها انسانية واحدة تنمي تجربتها . بل يمكن القول ان الخطر النووي يجعلنا نزيد قليلاً من وعينا لهذه الوحدة في الجنس البشري ، لأنه يمكننا لأول مرة ، ان نشعر بأننا مهددون كلنا دفعة واحدة .

والحضارة الكلية ، من جهة ثانية ، خير لأنها تمثل حصول جماهير الانسانية على خيرات اولية . فأي نوع من نقد التقنية لايمكن ان توازن قيمته المنفعة الايجابية ايجابية لاتقبل الجدل والناجمة عن التحرر من الحاجة وعن حصول الجماهير على الرفاهية . فقد عاشت الانسانية حتى الآن بالنيابة على نحو من الإنحاء ، سواء من خلال بعض الحضارات الممتازة ، او من خلال فئات من الصفوة . وهي المرة الأولى — منذ حوالي قرنين في أوروبة ، ومنذ النصف الثاني من القرن العشرين بالنسبة الى الجماهير البشرية الواسعة في آسية وافريقية وأمريكة الجنوبية — التي نتوقع فيها امكان حصول الجماهير على رفاهية أولية .

أضف الى ذلك أن هذه الحضارة العالمية تمثل خيراً بسبب نوع من التحول في موقف الانسانية بمجموعها بازاء تاريخها ، لقد تلقت الانسانية في مجموعها مصيرها كقدر مخيف ؛ وهذا لايزال امراً صحيحاً على الأرجح بالنسبة الى اكثر من نصف هذه الانسانية ، فبلوغ جماهير البشر بعض قيم الكرامة والاستقلال ظاهرة لايمكن الرجوع عنها مطلقاً ، وهي خير بحد ذاتها . إننا نشهد ظهور جماهير بشرية عظيمة على المسرح العالمي كانت حتى الآن خرساء مسحوقة . فيمكننا القول ان عدداً متزايداً من البشر يشعرون بأنهم يصنعون تاريخهم ، بأنهم يصنعون التاريخ . ويمكن الحديث بالنسبة الى هؤلاء البشر عن بلوغهم سن الرشد حقاً .

وأخيراً لن أزدري مطلقاً ما اسميته قبل قليل ثقافة للاستهلاك والتي نستفيد منها جميعاً الى حد ما . فمن المؤكد ان عدداً متزايداً من البشر يحصل اليوم على هـذه الثقافة الأساسية أبرز مظهر من مظاهرها . وبينما لم يكن يوجد حتى هذه العقود الأخيرة من السنين إلا جزء صغير من البشرية يعرف القراءة وحسب ، يمكننا اليوم ان نتوقع ان تجتاز جماهيرها ، خلال بضعة عقود اخرى ، عتبة اول ثقافة أولية . أقول ان هذا خير.

ولكن ينبغي ، من جهـة ثانية ، أن نعترف حقاً بأن هذا النمو نفسه يبرز صفة متـاقضة . ففي الوقت الذي تنمو البشرية فان ظاهرة كلية الحضارة تشكل نوعـاً من التـدمير الخفي ، ليس بالنسبة الى الثقافات التقليـدية وحسب

– وهو شر ربما لم يكن عصياً على الاصلاح – ولكنه تدمير لما سأسميه مؤقتاً ، قبل أن أشرح ما أريد شرحاً مطولاً : بالنواة الخلاقة في الحضارات العظمى ، والثقافات الكبرى ، هذه النواة التي تفسر الحياة إنطلاقاً منها والتي أسميها سلفاً النواة الأخلاقيــة والأسطورية (Mythique) لدى الانسانية . من هنا يولد الصراع ، فنحن نشعر تماماً بأن هذه الحضارة الكلية العالمية الواحدة في الوقت نفسه تؤثر في الثروة الثقافية التي صنعت حضارات الماضي العظيمة تأثيراً يدخل فيها نوعاً من التفسخ والتآكل . ويتجلى هذا الخطر ، من جملة ما يتجلى فيه من نتائج مقلقة ، في انتشار حضارة البضاعة التافهة تحت سمعنا وبصرنا ، وهي النسخة المزأة مما أسميته قبل قليل الثقافة الأولية . ففي كل مكان من انحاء العالم الشريط السينمائي السيء نفسه ، وآلات النقود الصغيرة نفسها والقباحات المصنوعة من البلاستيك أو من الألومنيوم نفسها ، واعوجاج اللغة على يد الدعاية نفسه الخ .. كل شيء يجري وكأن الانسانية ، اذ حصلت جماهيرها على ثقافة استهلاك اولى ، قد توقفت جماهيرها عند مستوى ثقافة من الدرجة الثانية وهكذا نصل الى المشكلة مفترق الطرق لدى الشعوب التي تخرج من اطار التخلف : هل ينبغي أن يلقي الماضي الثقافي العريق الذي كان مبرر وجود شعب من الشعوب من فوق ظهر السفينة من أجل الدخول في طريق التقدم العصري ؟ وتطرح هذه المشكلة غالبــاً على شكل إحراج ذي حدين (Dilemme) بل على شكل حلقة مفرغة . والواقع أن النضال ضد القوى المستعمِرة والنضال من أجل التحرر لم تصبح ممارسته ممكنة الا بالمطالبة بشخصية خاصة . لأن هذا النضال لم يكن الدافع اليه الاستغلال الاقتصادي وحسب ، بل الدافع الأعمق هو ما أثاره العهد الاستعماري من احلال شخصية محل شخصية أخرى . وإذن فقد كان الواجب يقتضي اولاً بعث هذه الشخصية العميقة من جديد ، واعادة غرس جذورها في الماضي لكي تتغذى المطالب القومية بالنسغ . من هنا المفارقة : فمن جهــة ينبغي للمستعمَر أن يعيد غرس جذوره في ماضيه ، وأن يعيد بناء روحه القومية وان ينصِّب هذه المطالبة الروحية والثقافية في وجه شخصية المستعمِر . ولكن ينبغي له ، في الوقت نفسه ، لكي يلج الحضارة الحديثة ، أن يلج العقلانية العلمية التقنية السياسية التي تقتضي ، في أغلب الاحوال ، هجر ماض ثقافي برمّته هجراً كاملاً . انها لحقيقة واقعــة أن أية ثقافة لاتستطيع أن تتحمل صدمة الحضارة العالمية أو تستوعبها . وهاك المفارقة : أين السبيل الى بلوغ التقدم العصري والى العودة الى الاصول ؟ كيف توقظ ثقافة عريقة نائمة ويتم ولوج الحضارة الكلية ؟

ولكن هذه المفارقة نفسها تواجهنا – كما أعلنا منذ البداية – الشعوب الصناعية ، تلك الشعوب التي حققت منذ زمن طويل استقلالها السياسي وركزته حول سلطة سياسية قديمة . والواقع ان لقاء التقاليد الثقافية الأخرى تجربة خطيرة ، وبمعنى ما جديدة كل الجدة بالنسبة الى الثقافة الاوروبية . فلما كانت الحضارة الكلية قد نهلت من المنهل الاوروبي زمناً طويلا ، فان ذلك قد غذى الوهم القائل ان الثقافة الاوروبية ، بحكم المبدأ والواقع ، ثقافة كلية . ويبدو أن السبق الذي أحرزته على الحضارات الاخرى كان يقدم تحقيقاً تجريبياً لهذه المسلمة . أضف إلى ذلك ان لقاء التقاليد الثقافية الاخرى نفسه ثمرة لهذا السبق ، وبصورة اكثر عمومية ثمرة العلم الغربي نفسه . أليست أوروبة هي التي ابتكرت التاريخ والجغرافية وعلم الأجناس (الإتنوغرافيا) وعلم الاجتماع بشكلهـا العلمي الواضح ؟ ولكن هذا الالتقاء بالتقاليد الثقافية الأخرى كان بالنسبة الى ثقافتنا تجربة ضخمة لم نستخلص منها بعد نتائجها كلها .

ليس يسيراً على المرء ان يحافظ على هويته وان يمارس التسامح ازاء الحضارات الأخرى . إن اكتشاف تعدد الثقافات ليس جهداً خالياً من الاذى ، سواء كان استسلامنا للنزعة الثقافية الخارجية من خـلال ضرب من الحياد العلمي ، او من خلال الفضول والاعجاب تثيرهما اقصى الحضارات بعداً ، بل وسواء كان ذلك من الحنين الى الماضي العائد ، او من خلال حلم من احلام البراءة والشباب ، ان التجرد الخالص من الأوهام بازاء ماضينا الخاص بنا ، أي الشعور المعادي لانفسنا الذي يمكن ان تغذيه هذه النزعة الخارجية يكشف كشفاً طبيعـة الخطر الخفي الذي يهددنا . فما إن نكتشف انه توجد ثقافات لا ثقافة واحدة ، وبالتالي ما ان نعترف بانتهاء ذلك النوع من الاحتكار الثقافي ، سواء كان وهمياً او واقعياً ، حتى نصبح مهددين بالدمار بفعل اكتشافنا نفسه ، ويصبح من الممكن ، فجأة ، الا يوجد بعد الا **الآخـرون** ، وان نكون ، أنفسنا ، آخر بين الآخرين . ويغدو في مقدورنا ، عندما تمحي كل دلالة ويختفي كل هدف ، ان نقوم بنزهات عبر الحضارات كما يقوم المرء بنزهة عبر الآثار او عبر الخرائب ، وتغدو الانسانية بأسرها ضرباً من المتحف الخيالي : اين نذهب في عطلة الاسبوع هذه ؟ أنزور خرائب آنجكور ام نقوم بجولة بتيفولي في كوبنهاغن ؟ وان بوسعنا تماماً ان نتخيل زمناً – وهو قريب – يقدر فيه أي انسان متوسط الثروة أن يتغرّب الى ما لا نهاية له فتذوق نفسه الموت في شكل رحلة لا نهاية لها ولا هدف . في هذه الدرجة القصوى ، يمثل انتصار ثقافة الاستهلاك – تلك الثقافة الواحدة وحدة شاملة والمغفلة اغفالاً كاملاً – درجة الصفر بالنسبة الى ثقافة

الخلق ... الذي يمثل الريبة على مستوى الكوكب الارضي ، والتهلكة المطلقة في انتصار الرفاهية ، وانه لينبغي لنا ان نعترف بأن هذا الخطر يساوي خطر الدمار الذري على الاقل ولعله محدق بنا أكثر منه .

— ٣ —

يقودني هذا التأمل المتعارض الى طرح الاسئلة التالية :

١ — ما الذي يكوّن النواة الخلاقة في حضارة من الحضارات ؟

٢ — في اية شروط يستطيع هذا الخلق ان يستمر ؟

٣ — كيف يكون لقاء ثقافات مختلفة ممكناً ؟

أما **السؤال الاول** فيتيح لي الفرصة لتحليل ما أسميه ، كسباً للوقت ، النواة الأخلاقية — الاسطورية (Ethico-Mythique) في ثقافة من الثقافات . ليس يسيراً على المرء أن يفهم ، حق الفهم ، ما يقصد من تعريف الثقافة بأنها مجمع قيم ، أو على نحو أفضل ، مجمع تقويمات (Evaluations) . اننا نميل ، متسرعين ، الى البحث عن معناه على صعيد عقلي أو تأملي الى درجة مفرطة ، انطلاقاً من ادب مكتوب مثلاً ، او من فكرة تم تكوينها ، او نبحث عنه في التقليد الأوربي ، في الفلسفة . ان هذه القيم الخاصة لشعب من الشعوب ، والتي تجعل منه شعباً ينبغي ان نبحث عنها في مستوى ابعد تناولاً بكثير . فعندما ينشيء أحد الفلاسفة اخلاقاً ، يكتب على عمل مطبوع بطابع تأملي جداً . ذلك انه لاينشيء الاخلاق اذا شئت الدقة ، ولكنه يتأمل الاخلاق الموجودة بصورة عفوية لدى الشعب . ان القيم الــتي نتحدث عنها هنا تكمن في المواقف المشخصة اثناء مواجهة الحيــاة ، من حيث النظام الذي تشكله ، ومن حيث انها ليست موضع جدل جذري لدى الناس النافذين والمسؤولين . والمواقف التي تستحوذ هنا على اعظم قدر من اهتمامنا تتصل بالتقاليد ذاتها ، وبالتغير ، وبالسلوك ازاء المواطنين والأجانب ، وبصورة أخص باستخدام الادوات المتوافرة . والواقع ان الأدوات هي، كما قلنا ، مجموع الوسائل بأسرها ، فيوسعنا اذن ان نضعها على الفور في مقابل القيمــة ، بما ان القيمة تمثل مجموع الغايات كلها . والواقع ان المواقف المقومة هي التي تقرر في نهاية الشوط معنى الأدوات نفسها . ان ليفي شتراوس يحلل في كتابه (Tristes Tropiques .) سلوك تلك الجماعــة العرقية (Ethnique) التي وضعت بفظاظة في مواجهة ادوات حضارية ، فكانت عاجزة عن تمثلها ، لا لنقص في المهارة بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولكن لأن التصور الاساسي للزمان،

والعلاقات بين البشر لاتسمح لها بأن تعطي أي نوع من القيمة للمردود ، أو الرفاهية ، أو تحويل الوسائل الى رأسمال (Capitalisation) ، وهي تقاوم ، بكل ماالديها من قوة نابعة من تفضيلها الاساسي ، ادخال هذه الوسائل في طراز حياتها. ويمكن للمرء ان يفكر بأن حضارات كاملة قد جعلت الابتكار التقني عقيماً على هذا النحو ، بانطلاقها من تصور للزمان والتاريخ سكوني تماماً . وقد دلّل شوهل منذ وقت قريب على ان التقنية اليونانية قد كبحت بفعل عين التصور للزمان والتاريخ الذي لايتضمن تقويماً (Evaluation) ايجابياً للتقدم ذاته . ان وفرة سوق العبيد نفسه لايفسر في حد ذاته تفسيراً تقنياً محضاً ، لأن واقعة التصرف بالعبيد في حد ذاتها يجب ان تقوّم ، فوق ذلك ، بطريقة أو بأخرى. واذا كان اليونان لم يهتموا بأن يحلوا الآلات محل القوة البشرية ، فذلك لأنهم لم يكونوا قد كونوا قيمة (التخفيف من آلام البشر) ، ذلك ان هذه القيمة لم تكن داخلة في جملة التفضيلات التي كانت تشكل الثقافة اليونانية .

واذا كانت الأدوات لاتؤتي أثرها إذن إلا من خلال منحى التقويم (Valorisation) فان السؤال يطرح على هذا النحو · أين تكمن هذه الثروة من القيم ؟ أظن أنه ينبغي البحث عنها على مستويات من العمق مختلفة . واذا كنت قد تحدثت قبل قليل عن نواة خلاقة ، فقد كان ذلك تلميحاً الى هذه الظاهرة ، تلميحاً الى هذا التعدّد في الغلافات المتراتبة التي ينبغي اختراقها لكي تدرك . فعلى مستوى سطحي تماماً ، تعبّر قيم شعب من الشعوب عن نفسها في عاداته (Moeurs) المتبعة في سلوكه الأخلاقي (Moralite) الواقعي . ولكن هذا ليس أيضاً الظاهرة الخلاقة . فالعادات المتبعة تمثل ، شأنها في ذلك شأن الأدوات البدائية ، ظاهرة جمود ؛ والشعب يتابع انطلاقته مع تقاليده . وفي مستوى أقل سطحية ، تظهر هذه القيم في المؤسسات التقليدية ؛ ولكن هذه المؤسسات نفسها ليست إلا انعكاساً يمثل أحوال الفكر والإرادة والعواطف لدى جماعة بشرية في لحظة من لحظات التاريخ . إن المؤسسات دوماً إشارة مجرّدة تتطلب حلّ رموزها ويبدو لي أنه ينبغي لنا ، اذا أردنا أن نبلغ النواة الثقافية ، أن ننقب حتى نصل الى تلك الطبقة من الصور والرموز التي تؤلف تصورات الشعب الأساسية . أنا آخذ هنا هذين المدلولين : الصورة والرمز بمعناهما في التحليل النفسي ؛ والواقع أن الوصف المباشر ليس بالقادر على كشفها ؛ وحدوس التعاطف والقلب من هذه الناحية حدوس خادعة . ماينبغي هو حلّ رموز حقيقي ، وتأويل منهجي : كل الظواهر القابلة مباشرة للوصف المباشر هي كالأعراض أو الحلم بالنسبة الى التحليل . فلعلة لابد لها ، بالطريقة نفسها ، من

أن يكون بوسعها أن تقودنا الى الصور الراسخة ، الى الأحلام الدائمة التي تكوّن الثروة الثقافية لدى شعبٍ من الشعوب وتغذي تقديراته العفوية واستجاباته الأقل نضجاً وإتقاناً للمواقف التي مرّ بها . ان الصور والرموز تؤلف مايمكن أن نسميه حلم اليقظة بالنسبة الى جماعة تاريخية . بهذا المعنى أتحدث عن نواة أخلاقية — أسطورية تؤلف ثروة الشعب الثقافية . ويمكننا أن نعتقد بأن لغز التباين البشري يكمن في بلية تحت الشعور (Supconscient) أو اللاشعور (Inconscient) . وإنه لأمر غريب ، في الواقع ، أن تكون هناك ثقافات بدلاً من أن تكون هناك انسانية واحدة . ان وجود لغات مختلفة وحده أمر مشوش جداً ، ويبدو أنه يدل على وجود أشكال تاريخية متماسكة ومغلقة لمجموعات ثقافية قائمة منذ أقدم العصور التي يتيح لنا التاريخ العودة اليها . ومنذ البداية يبدو أن الانسان غير الانسان ؛ ووضع اللغات الممزق هو الاشارة المرئية رؤيا العين الى هذا التنافر البدئي . وإليك أمراً عجيباً : ان الانسانية لم تكون نفسها في أسلوب ثقافي واحد ، ولكنها « تأصلت » في أشكال تاريخية متماسكة ومغلقة : الا وهي الثقافات (بالجمع) . ان الوضع البشري لوضع يجعل التغرب أمراً ممكناً .

ان هذه الفسحة من الصور والرموز لاتؤلف أيضاً الظاهرة الاكثر جذرية في قدرة الخلق ، انها تؤلف غلافها الأخير وحسب .

ان التقليد الثقافي لايظل حياً الا اذا أعاد خلق نفسه دون انقطاع ، بخلاف الادوات التي تحافظ على نفسها وتترسب وتتراسل . اننا نلامس هنا اللغز الاكثر انغلاقاً والذي يمكننا فقط ان نتعرف فيه على سمة الزمانية (Temporalité) المقابلة لترسب الادوات . هنا تجد الانسانية أمامها طريقتين لاجتياز الزمان : فالحضارة تظهر معنى من معاني الزمان هو في أساس التجميع والتقدم ، في حين أن الطريقة التي يطور بها شعب ثقافته تستند الى قانون من الوفاء والخلق : فالثقافة تموت منذ أن تكف عن التجدد وخلق نفسها من جديد . ينبغي ان ينهض كاتب ، أو مفكر ، او حكيم ، أو روحاني ، لكي يدفع الثقافة في انطلاقة جديدة ، ويجعلها تخاطر من جديد في مغامرة ومخاطرة كاملة . إن الخلق ليفلت من أي توسع ، ومن أن تخطيط ، ومن أي قرار صادر من حزب او من دولة . ان الفنان — إذا اتخذنا منه شاهداً على الخلق الثقافي — لايعبر عن شعبه إلا اذا لم يقصد ذلك ، وإلا إذا لم يأمره احد بذلك . لأنه اذا كان من الممكن أن يفرض ذلك عليه فيكون معنى هذا أن ماسينتجه قد سبق قوله في لغة النثر اليومي والتقني والسياسي ، وبهذا يكون خلقه خلقاً زائفاً . أما ان يكون الفنان قد اتصل اتصالاً حقيقياً بفسحة الصور الأساسية التي صنعت ثقافة شعبه ، فذلك أمر لانعرفه إلا بعد انتهاء العمل ؛

وعندما يولد خلق جديد نعرف أيضاً الاتجاه الذي ستمضي فيه ثقافة هذا الشعب. إن قدرتنا على التوقع هنا تنقص بنسبة عظمة الابداع الفني لأن هذا الابداع في بدئه كالمخزاة (Scandale): فينبغي قبل كل شيء ان تحطم الصور الزائفة التي يصنعها شعب أو نظام عن نفسه. ان قانون المَخْزاة يقابل قانون « الشعور الزائف » ؛ فمن الضروري أن تكون هنـــاك (مخازٍ). ان الشعب يميل دوماً الى ان يضفي على نفسه صورة حسنة عن نفسه ، صورة عند حسن الظن اذا صح التعبير. وفي مقابل ميل الفرد الى ان يكون عند حسن ظن جماعته ، فان الفنان لايلحق بشعبه الا عندما يحطم هذه القشرة المصنوعة من المظاهر. العزلة ، والمخاصمة ، وعدم الفهم ، توجد فرصة لأن يجعل شيئاً ينبثق ، شيئاً يصدم للوهلة الاولى ، شيئاً يضلل للوهلة الأولى ، ثم بعد زمن طويل يحافظ عليه تعبيراً حقيقياً عن الشعب. هذا هو القانون المأساوي في خلق الثقافة ، وهو قانون يتعارض تعارضاً تاماً مع تجميع الأدوات الهادىء الذي يؤلف الحضارة.

عندئذ يطرح **السؤال الثاني** : في أي شرط يمكن الخلق الثقافي لدى شعب من الشعوب أن يكون مستمراً ؟ سؤال رهيب يطرحه تطور الحضارة الكلية العلمي والتقني والقضائي والاقتصادي. لأنه اذا كان صحيحاً ان الثقافات التقليدية بأسرها تعاني الضغط وتأثير التآكل من هذه الحضارة ، فانها لاتتمتع كلها بعين القدرة على المقاومة ، ولاتتمتع ، بصورة خاصة ، بعين القدرة على الاستيعاب. وانه ليُخشى من ألا تكون كل ثقافة قابلة لأن تتآلف مع الحضارة العالمية وليدة العلوم والتقنية. يخيل إلي أننا نستطيع ان نميز بضعة شروط **لابد منهـــا** (Sine qua non). ان الثقافة القادرة على جعل العقلانية العلمية جزءاً لايتجزأ منها هي الوحيدة التي تستطيع ان تحيا وتبعث ؛ والايمان الذي يوجه نداء الى قدرة اللب على الفهم هو الوحيد الذي يستطيع أن يتحد صميمياً مع زمنه. بل لعلني أقول ان الايمان الذي يجعل إبطال قداسة الطبيعة جزءاً لايتجزأ منه ويعيد القدسية الى الانسان هو وحده الايمان الذي يستطيع ان يأخذ على عاتقه استغلال الطبيعة تقنياً. ثم إن الايمان الذي يقوّم الزمان ، والتغيير ، ويضع الانسان موضع السيد في وجه العالم ، والتاريخ ، وحياته الخاصة ، هو وحده الذي يبدو أنه قادر عـــلى أن يحيا ويدوم. وإلا فان وفاءه لذاته لن يكون أكثر من زينة فولكورية. فليست المشكلة أن يكرر الماضي تكراراً بسيطاً ، ولكن المشكلة ان يغرس جذوره من اجل الابتكار ابتكاراً لاينقطع.

الآن ، يبقى **السؤال الثالث** : كيف يكون لقـــاء الثقافات المختلفة ممكناً ،

ونعني لقاء لايكون مميتاً لها جميعاً ؟ يبدو ، في الواقع ، ان تأملاتنا السابقة توحي بأن الثقافات لاتقبل الاتصال فيما بينها ؛ ومع ذلك فان غربة الانسان عن الانسان ليست مطلقة أبداً . ان الانسان غريب عن الانسان بالتأكيد ، ولكنه أيضاً مماثل له دوماً . إننا ، عندما ننزل ببلاد اجنبية تماماً - كما جرى لي في الصين منذ بضع سنوات - نشعر بأننا لم نخرج من دائرة الجنس البشري رغم بعد الشقة بيننا وبين بلادنا . ولكن هذا الشعور يظل شعوراً أعمى ، فينبغي رفعه الى مرتبة رهان وتأكيد إرادي لوحدة الهوية في الانسان . انه ذلك الرهان المعقول الذي سبق أن أجراه أحد علماء الآثار المصرية عندما اكتشف إشارات غير مفهومة ، فوضع مبدأ يقول إنه إذا كانت هذه الاشارات من صنع الانسان ، فانه يمكن ويجب أن تترجم . وفي الترجمة ، لاينقل كل شيء بالتأكيد ، ولكن ينقل بعض الأشياء دوماً . فما من سبب ، ولا احتمال يجعل منظومة لغوية غير قابلة للترجمة . ان الاعتقاد بأن الترجمة ممكنة الى درجة ما تأكيد لكون الغريب إنساناً ، وبالاختصار اعتقاد بأن الاتصال ممكن . وما قلناه قبل قليل في اللغة - في الإشارات - صحيح أيضاً في القيم والصور الأساسية والرموز التي تؤلف ثروة الشعب الثقافية . أجل ، إنني أعتقد بأن في وسعي أن أفهم الآخر بالتعاطف والتخيل كما أفهم شخصية في رواية أو على المسرح ، أو صديقاً حقيقياً ولكنه مختلف عني . ان بوسعي ، فوق ذلك ، أن أفهم دون أن أكون تكراراً ، وأن أتخيل دون ان أعيش ما أتخيل من جديد ، وان أصير آخر وأبقى عين نفسي في الوقت ذاته . من يكن إنساناً ، يكن قادراً على هذا الانتقال الى مركز آخر للنظر .

عندئذ تبرز مسألة الثقة : ماذا يحدث لقيمي عندما أفهم قيم الشعوب الأخرى ؟ ان الفهم لمغامرة مرهوبة الجانب ، يتعرض فيها التراث الثقافي برمته لخطر الغرق في نزعة تلفيقية (Syncrétisme) غامضة . يخيّل اليّ ، مع ذلك ، أننا أعطينا ، قبلَ قليلٍ ، عناصر جواب ضعيف وموقت : ان الثقافة الحية الوفية لأصولها ، والتي هي ، في الوقت نفسه ، في حالة خلق على صعيد الفن والأدب والفلسفة والروحانيات ، هي وحدهـا الثقافة القادرة على تحمل لقاء الثقافات الأخرى ؛ ليس على تحملها وحسب ، بل على إعطاء هذا اللقاء معنى . فعندما يكون اللقاء مواجهة بين الحوافز الخلاقة ، مواجهة بين الوثبات ، يكون هو نفسه خلاقاً . اني لأعتقد بأنه يوجد بين خلق وخلق ضرب من التناغم عندما يكون كل اتفاق مسبق غائباً . وعلى هذا النحو أفهم نظرية سبينوزا البارعة الجمال : « كلما زدنا معرفة بفردية الأشياء ، زدنا معرفة بالله » . فعندما نمضي الى أعماق

التفرد (Singularité) ، نشعر بأننا نتناغم مع كل شيء آخر ، بطريقة لا يمكننا التعبير عنها، بطريقة لايمكننا ان نسجلها في حديث . وإن لدي القناعة بأن العالم الاسلامي الذي شرع في الحركة من جديد ، والعالم الهندي الذي قد تولد تأملاته العريقة تاريخاً فتياً سيكون لهما مع حضارتنا ، وثقافتنا الاوروبية ، هذا الجوار النوعي الذي يكون بين المبدعين جميعاً . واني لأعتقد بأن الريبية تنتهي هناك . ان المشكلة، في نظر الاوروبي بوجه خاص ، ليست ان يشارك في ضرب من الاعتقاد الغامض، الذي يمكن ان يكون مقبولاً لدى الناس اجمعين . انه هيدجر هو الذي يوضح المهم اذ يقول: « يجب ان تكون اصولنا موضع غربتنا » ، اي انه ينبغي لنا ان نعود الى أصلنا الإغريقي ، الى أصلنا العبراني ، الى أصلنا المسيحي ، لكي نصبح صنعاً جديراً بالدخول في جوار الثقافات . فلكي يواجه المرء ذاتاً اخرى عليه ان يكون ذاته .

من ثمة ، لا شيء أبعد عن حل مشكلتنا من هذه النزعة التلفيقية الغامضة المائعة التي لا ادري ما تكون . ان النزعات التلفيقية في صميمها ظواهر سقوط دوماً ، فهي لاتحتوي اي شيء خلاق . انها مجرد رسوبات تاريخية . يجب ان تعارض النزعات التلفيقية بالتواصل (Communication) ، اعني بعلاقة مأساوية ، فيها اثبت نفسي في اصولي تارة ، وأسلم نفسي تارة اخرى الى تخيل غيري حسب حضارته المغايرة . ان الحقيقة الانسانية لاتكمن الا في هذه القضية التي تتجابه الحضارات فيها بصورة متزايدة انطلاقاً من اكثرها حيوية واكثرها ابداعاً . ويصبح تاريخ البشر شيئاً فشيئاً شرحاً واسعاً تبسط كل حضارة فيه ادراكها للعالم في مجابهتها الحضارات الاخرى جميعا . وقد بدأت هذه القضية بالكاد . ومن المرجح انها ستكون رسالة الأجيال المقبلة . وما من احد يستطيع ان يقول ما ستصير اليه حضارتنا عندما تلتقي حقيقة بحضارات اخرى ، بطريقة اخرى غير طريقة الفتح والسيطرة ، ولكن ينبغي حقاً ان نعترف بأن هذا اللقاء لم يحصل على صعيد حوار حقيقي ؛ ولهذا نجد انفسنا في ضرب من الفترة الفاصلة او من فترة الانتقال بين عهدين ، لانستطيع فيها ان نمارس الاعتقادية (Dogmatisme) بالحقيقة الواحدة ؛ ولسنا قادرين فيها على قهر الريبية التي ولجناها . اننا في النفق ، عند غسق الاعتقادية ، على عتبة الحوارات الحقيقية . ان فلسفات التاريخ كلها كائنة في داخل دور من ادوار الحضارة ؛ ولهذا ليس لدينا ما نعقل به هذا التعايش بين هذه الاساليب المتعددة وليس لدينا فلسفات تاريخ نحل بها مشكلات التعايش . واذن ، اذا كنا نرى المشكلة ، فاننا لسنا في حالة تتيح لنا ان نستبق فيها الانسانية جملة ، الانسانية التي ستكون ثمرة تاريخ البشر نفسه ، البشر الذين سيبدؤون هذه المناقشة الرهيبة .

تحرص المجلة على التعريف بنتاج الفكر العربي الجديد بصورة خاصة ، ونتاج الفكر العالمي بصورة عامة . ويسعدها أن تتقبل شاكوة الكتب الجديدة التي تصدرها دور النشر العربية والأجنبية ، أو التي يبعث بها الينا مؤلفوها ، ليصار الى دراستها وعرضها في حقول المجلة .

. . .

— المقالات التي ترد الى المجلة ، لا تعاد الى اصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

. . .

— ترجو المجلة من الكتاب الذين يبعثون اليها بمقالاتهم وبحوثهم ، أن تكون هذه مكتوبة بخط واضح جداً (والأفضل أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة) وأن تتضمن اسم كاتبها الحقيقي كاملاً ، وعنوانه واسمه الأدبي الذي يرغب في أن ينشر مع مقاله .

. . .

— ترجو ادارة المجلة من مشتركيها ومن أصدقائها الذين ترسل اليهم المجلة هدية ، أن يعلموها كتابياً عن كل تبديل يطرأ على عنوانهم .

الآداب

الكتاب والموضوعات

- عبد الوهاب البياتي — الحمل الكاذب (شعر)
- د. عاتكة الخزرجي — بين يدي الله ... (شعر)
- محمد عفيفي مطر — ثلاث قصائد (شعر)
- صالح جودت — سراب (شعر)
- عزيزة هارون — الحب الكبير (شعر)
- حيدر حيدر — الشاهد والجمعة الحزينة (قصة)
- جورج سالم — البحث المضني (قصة)
- حسام الخطيب — السجين (قصة)
- جوان سمول — ارملة الكولونيل -٢- (مسرحية) ترجمة فاطمة السقطي

الحمل الكاذب

عبد الوهاب البياتي
القاهرة ــ

بابلُ لم تُبعث ولم يظهر على أسوارها المُبشرُ الانسان
ولم يدمروها ، ولم يغسل خطايا أهلها الطوفان
ولم يقم من قبره عبر الفرات سارقُ النيران
فالعقم والصيف الذي لا ينتهي والصمت والتراب
والحزن والطاعون
طعام هذي المدن المنفوخة البطون
والبشر الفانون فيها ككلاب الصيد
يحترقون تحت شمس الصيف

ما بين مهزوم وبين راسف في القيد

العاقر الهلوك
من الف الف وهي في أسمالها تضاجع الملوك
ترنو لبحر الروم
بنظرة المهزوم
تمنح بالمجان
قبلتها : اللص والقواد والخائن والجبان

عشرون عاماً وأنا أبكي على أسوارها وأحمل الأكفان
لكنها ظلت كأورشليم
ملعونة تعج بالذباب والأصفار والحريم
أصيح منفياً على الأسوار
بابل يا مدينة الأسرار
قومي وغطي عُريَ هذا الجسد الذابل بالأزهار
قُومي لعل البرقْ
والفارس المجهول من دمشق
يبذر في بطنك بذرة ، فتحملين
أيتها البغيُّ في أحشائك ، التنين
لكنها ظلت كأورشليم
ملعونة تعج بالذباب والأصفار والحريم
تفتح للغزاة ساقيها والطغاة
تحمل حملاً كاذباً في كل فجر ، وتموت كلما القمرْ

غاب وراء غابة النخيل في السحر

دوري ودوري في الفراغ واسقطي في العار
أيتها الأصفار
ففي غد سيسدل الستار
ويسقط الممثلون في الوحول تحت سقف المسرح المنهار

بين يدي الله ...

د. عاتكة الخزرجي
— بغداد

أحبّك لو صحّ ان الهوى ... تترجمه أحرف أو معانْ
أحبّك للحبّ لو أعربت ... عن الحبّ قافية أو بيانْ
اخال الهوى فوق ما في اللغى ... او ان اللغى دون ما في الجنان
أحبّك ربّاه فوق الهوى ... أيا من به كنت والحبّ كان..

وسبّحت باسمك يا خالقي ... وأبصرت وجهك آناً فآنَ
ولحت لعينيّ في كل حسن ... فللّه عيناي ما تجلوان
جمالك يا ربُّ عمّ الوجود ... فليس لقبح به من مكان..!

أحسُّ بـه في فؤادي هوى ... يعمُّ الورى بين قاص ودان
أحب بك الخلق يا خـالقي ... وحوشاً وطيراً وإنساً وجان
أحب بك الكون يا فاطري ... سماء وأرضاً وما تحويان
عرفت بك الحبّ انت الهوى ... وفيك القصيد ومنك البيان
تباركت أنت بقلبي المنى ... وبالروح أنت الهدى والأمان

عشقتك يا رب عشق الذليل ... لمولى جليل عزيز المكان
وكم عند بابك طال الوقوف ... وطاب لديك الهوى والهوان
وأنت جميل تحب الجمال ... فأنّى تجليت كان افتتان
فوجهـك قبلتنا في الصلاة ... وذكرك تسبيحنا كل آن ..

إلهي كيف شغلت الفؤاد ... وكيف امتلكت عليّ الكيان
وكيف تلاشت رؤى عالمي ... فما من زمان وما من مكان
جمالك يا رب قد حفّ بي ... تباركت يا واحداً دون ثان
أراك أمامي وخلفي وعن ... شمالي ويمناي رؤيا عيان
تكشّف لي عن سناك النقاب ... فتجلى معان وتخفى معان

وأعنو لوجهك أشتفه ... فيغشى للألائه الناظران ..!
سقيتُ بحبك يا خـالقي ... من الشعر كأساً بها نشوتان
فصرت من الارض في جنة ... غذاها الهوى ورواها الحنان
وفيها من الحسن روح وراح ... ومن كرمة الحب كأس وحان
تشفّ لنا ملء اثوابها ... عن الحور في الغانيات الحسان
وحواء تلقى بها آدماً ... تخطّى المدى وتحدّى الزمان
كطيف رفيق وئيد الخطى ... تسرّب في خفة الأفعوان

أحوّاء ما انت من آدم ولا آدم بعض هذا الكيان
فما أنت إلاّ ابتسام الوجود وسرّ الخلود بصدر الزمان
تباركت صُنْع قدير صناع برانا فكنت وكنّا وكان..!

أحبك لو صحّ ان الهوى تترجمه احرف او معان
احبك الحب لو اعوبت عن الحب قافية او بيان
إخال الهوى فوق ما في اللغى او ان اللغى دون ما في الجنان
احبك رباه فوق الهوى أيا مَنْ به كنت والحبّ كان ...

ثلاث قصائد

محمد عفيفي مطر
القاهرة –

١ – مَلِكُ الأمطار

ملك الأمطار
طفل أشيب
عيناه تكحّلتا بالعسل الأسود والأسرار
وابتلّتْ في شفتيه الشمسُ نهاراً بعد نهار
واخضرّتْ من قدميه العاريتين وأعشبت الأحجار ..
ملك الأمطار
يطوي في كفيه مظلته الخضراء
ينكفيء على قنوات الطمي ويشرب وجه الشمس السابح في التيار
وَيُجَمِّعُ في رئتيه عبير الأرض
ملك الأمطار

يتسلل عبر حقول العالم
يتسمّع صوت حشائشها الخضراء
وحوارَ القش الراقص فوق خرير الماء
وغناء الألوان القزحية وهي تغمغم في الأشجار ..
ملك الأمطار
يهتز على إيقاع السعف النافخ في المزمار
وينام ويحلم بالسحب الدكناء
وعروش الريح ومملكة البَرِّيَّة
ملك الأمطار
يملأ جيب عباءته بالقمح
وزبيب الكرمة والزيتون
فتعشش في الشعر الأطيار
وتحط على كتفيه شتاءً بعد شتاءْ ..

* * *

ياملك الأمطار
هبني شارتك الفضية
خذني في حاشية الريح ، وعَمِّدْني جنديا في البرية
علمني أسرار العالم
نَصِّبْني في أعراسك عازفَ قيثار
وامسحني بالزيت الطيب واغسل قلبي ..

٢ ـــ أغنية مُتَجَوِّل

رأيتني مُقَنَّعاً مغتسلاً في وضم القصّاب
مُجَزَّءاً في الورق الأزرق تائهاً في طوق التراب
مهاجراً أدخل كل باب
مدوِّخاً ، انتظر الفرار في أرجوحة الشباب
تَكَوُّراً في النهد
أوصلابةً في الزند
أوسخاءَ نطفة تُضرم نارَها في رحم اليباب ..
رأيتني في القمر الذي يطلع من أغلفة المصاحف الكوفية
مكوَّراً في البقع الباهتة التي ترقص في
زخارف المنمنمات والمقرنصات والقباب
رأيتني منكسر الجواب
أطارد الغزالة التي أطلقها الرسام في السجادة الألفية ..
رأيتني مُعَلّقاً في شجر الضباب
تخطفني الجدائلُ
تزرعني المزابلُ
تجمعني السنابلُ
رأيتني مقاتلا يقوده الهواء
منسحقا على قصائد العَرّار والأراك ..
رأيتني ملتحماً بالأرض في عراك
ملتحما بالشمس في عراك

ملتحما بالقمر الثلجي في عراك
فمن يخلّص الأشياء من دمي المشاغب الذي
تصعلكت خيوطه في طرق الهلاك
أو يقطع الحبل الذي تربطه في عنقي أصابع الأشياء !!

٣ — الغريق

يحط الصوت عبر نوافذ القلب الجليدية
عصافيرا من النيلي والبني والأصفر
يحط يمامة خضراء
وخفاشا من الفيروز والذهب
ويمرق صارخا بالرعب والطرب
فيدفق في دمي بتحول الألوان والأشياء ..

تلوى الصوت عبر نوافذ القلب الجليدية
وحطت في دمي العنقاء
تفجر في دمي الشهب الغنائية
فأهوى في فجاج الريح
يمد جذوره في القلب ما حملت من أسرار ..

* * *

ترفرف في دمي العنقاء
وتحملني خلال جزائر الظلمة
فتشنقني النواقيس الخرافية

وتصلبني الفصول على عبير الارض
فاهرب غائم العينين ،
تجرفني الرؤى ،
وأغوص في التيار ..

* * *

أمرُ مُفَرَّعَ العينين عبر مدائن الأعماق
فأشهد فصلها الخامس
وأمرق عبر أرصفة من الباور
أرى أشجارها الصدفيّة الأوراق
وأسمع في حدائقها مخاض الشمس في
رحم من الفسفور
أخوض خلال أعشاب من التوتياء
وأفرغُ صدري المنخور مما فيه من ريح ومن أصداء
وأصمت صمتيَ الأبديّ ،
لا أطفو إلى العالم .

سراب

صالح جودت
– القاهرة

سراب ، وكل حياتي سرابْ   وفي وهمه قد أضعت الشبابْ
سراب وأسلمته خاطري   فعلّلني بالأماني الكذابْ
وتابعتُهُ ، رغم يأسي به   ومعرفتي أنه لا يُصاب
يروح كمقترب في ابتعادٍ   ويغدو كمبتعدٍ في اقتراب
وأجهدني السير في إثره   فلا القلبُ ملّ ولا العقل تاب
كأني بروحي أدمنتُهُ   فأصبحتُ لا أستطيع الإياب
أحثّ اليه الخطى راضياً   بأني على خطأ في الحساب
واملأ منه كؤوس المنى   وأشربها ، فيطيب الشراب

* * *

وهامسة ، صوتُهـــا ناغمٌ   كأنشودةٍ من شفاه الرّباب
يصوّرها مسمعي رُميةً   منمقةً بالثنـايا العذاب
تحدثني الليـلَ في هاتفٍ   بعيد المنال قريب الخطاب
وتُصْدقني في حكاياتهـا   وتفتح لي قلبها كالكتاب
وألمح في عمرهــا حيرةً   وفي صوتها قلقاً واضطراب
كأني بهـا تشتهيَ الهوى   وتشفق منه اذا الحظ خاب

* * *

وظلّت لقاءاتُنا في الخيـال   فكانت لنا واحة في اليباب
وطالت أحاديثنـا الحالمات   كوشوشةٍ من وراء الحجاب
وساءلتُها ليلة ما اسمُهـا   فقالت : سؤال عصيّ الجواب
أنا في حياتك وهم الحيـاة   وأنتَ خيالٌ وراء الضباب
فما همّكَ اسمي ان قلتَه ؟   أنا كالسراب . . . فقل لي سراب
ودعنـا نعيش على قصة   تفتح لنا في المنى ألف باب
ونصنع في الحب اسطورةً   مجردة من سمات التراب
فلا لوعة ، لا أسى ، لا شجى   ولا حرقة ، لاضنىً ، لاعتاب
ونعشق في الوهم ، إن الحقيقة   كم اسكرتْنا بمُرٍّ وصاب

* * *

فقلت لهـا : أنتِ مخدوعة   اخذتِ القشور وفتُّ اللباب
وقد كنتُ مثلك حتى أفقتُ   فأدركتُ أني أضعتُ الشباب
أفيقي من الوهم ياطفلتي   ورُودي الصّراع وخوضي العباب
فما خمرة الحب الا الدموع   وما لذة الحب الا العذاب

الحبّ الكبير

عزيزة هارون

مرهق وجـــه حبيبي يرسل الآهة حسره
ألم النكسة حزن عــــارم يغمر صدره
سرّه أعمق من جرحي وما أفشيت سرّه
آه يا فارس لاتحزن فللفـــــارس عثره
إنما ينهض من بعدُ بوجـه الريح صخره
صامداً يعصف بالعـــدوان أو يفتح قبره

* * *

انت حرٌ وأنا في الوطن المظلوم حرّه
تخلق النصر ، على الانسان ان يخلق نصره
لن يعيد اليـــأس لليل الذي أظلم فجره
فارس ذاك الذي يبدع في الساحات عمره
وينميّ غوسة الايمان ابداعاً وفكره
الفدائيون من شعبي ابـداع وثوره

* * *

نكسة الأمس ستمحوهـــا قوياً مستعدا
أنت للثأر . رفيق الثأر لن يخلف عهدا
فهو إعصار بوجه الظلم أو اعنف حقدا
اليتامى فرشت ارضي الامـــاً وسهدا
كن لها عوناً تكن للوثبة الحمراء رفدا
ان في قلبي لو تعلم جرحـــاً ليس يهدا

* * *

عنـــد أحزانك تنهلّ بقلبي وضميري
انت مازلت كما ارجوك للنصر الكبير
فارس أنت وفي الحب حبيبي وأميري
وجناحي وهدى قلبي وألحان شعوري
سرْ الى الجلىّ فقد نبعث في شوق المصير
وسبيل الحب ان تخلد في الحبّ الكبير

الشاهد والجمعة الحزينة

حيدر حيدر

منـذ خمسة ايام وأنا في هذه المقبرة . اتوسد بين قبور ثلاثة تحت سماء صيفية ، وبين حين وآخر تفغم أنفي رائحة البخور والريحان الذابل .

جئت المقبرة بتوصيات ازليـة ، كان يلقيها ابي الشيخ علينا في كل مساء: القبور امان اهل الارض. هناك لا تجد اثراً للشر . والموتى افضل من الاحياء فهم لا يؤذون احدا .

وكان يقول ايضاً : توكلوا على الله دائمـاً فهو خـير المتوكلين هو ناصركم في السر والعلن في الحيـاة والموت .

ولذا منذ اليوم الاول كنت اسير على قدمي بين الصخور والاشواك ، بين الاحياء الجديدة والاحياء القديمة متحاشياً الاماكن المكشوفة حتى وصلت .

عبر الطريق رأيت قوافل مسرعة . بشر مذعورون يحملون امتعة . بعضهم يسير حافياً وبعضهم الآخر قد لف حتى حوضه اقمشة حول الذهب الذي يملكه . وفي منعطفات صغيرة ومنفردة كان ثمة أفراد يقفون او يتمشون ببطء وعلى اكتافهم بنادق .

لم أكن املك ذهباً ولا فضة ولا بندقية . وقلت لنفسي وأنا اعبر : احد ما لن يذهب الى المقبرة بالتأكيد .

لكن كان في رأسي دوي لا ينقطع لصوت أبي الشيخ .

— اسرع .

— تسير كمن يسير في نومه .

— انهم على الأبواب .

— سيقرضهم الله على تخوم المدينة المقدسة .

— انت خائف .

— الله والامير سيدا المدينة .

وعلى حين غفلة خرجت منذاكرتي صورة معلمنا وهو يحاضر عن طاعة اولي الأمر فيناوفساد الرعية ورسالة الراعي. واذقال رفيقي : «فساد الرعية من فساد الراعي» نقره على رأسه بقضيب رمان غض ، ان لوقعه على جلدته الطرية وهمهم ثم صمت. وفي الباحة قال بغضب : « معلمنا دب" . حمار . وما قاله كذب » . وضحكت أنا .

• • •

مدينة المقاهي والحانات واللافتات والتماثيل الواقفـة ، بدت مهجورة كسفينة غادرها بحارتها غبّ فاجأتهم العاصفة .

وراء الزجاج كانت الكراسي وحيدة متقاربة ، لكن رائحة الناس كانت فوقها . هنا كان الزمن يمضي ، والكلمات ايضاً .

ومنذ نعومة اظافري وأنا احب اللغة العربية . لغـة ايقاعية مفعمة بالمفردات والتوليد . تشبه محيطاً لا نهاية له وفي ذلك المحيط كان يسبح ويغوص مئة مليون من البشر الذين يحبون البحر والشمس والصلوات القدسية ، ويحبون الحرب ايضاً .

على هذه الكراسي العائمة فوق محيط اللغة كان العالم يتشكل مفردات وجملاً وتوليدات واشتقاقات ، يبنى ويهدم . تخاض الحرب وتعقد معاهدات السلم ، يصبح المار كسي رأسمالياً والاشتراكي بورجوازياً والثوري يمينياً . تقوم انقلابات وتشكل حكومات جديدة ، ومن على هذه الكراسي كان يؤخذ اناس الى السجون والمنافي ، ويخرج مساجين يعبرون من هنا في طريقهم نحو كراسي اخرى ، تستطيع ان تضحك لو طلب اليها ان تكتب التاريخ .

الآن لا أحد على هذه الكراسي . والآن تبدو اللغة كسيرة الخاطر ، سجينة نفوس اكتشفت فجأة انها كانت ترغي وتزبد لا أكثر .

ـ أسرع ... أسرع انهم قادمون .

ـ سأتوقف هنا واشعل لفافة .

ـ اسرع ، أقول ، لقد سبقوك الى المقبرة .

ـ سأتأمل المدينة الحزينة .

— انظر وراءك . هاهم . هاهم .

واصرخ متوجعاً : يحميني الله . الم تقل أنت ذلك .

ويخمد دوي صوته في رأسي . وأتابع منكوس الرأس .

. . .

كان فواراً كالموج . كصخور تسقط من قمم الجبال . وكنت أحسها تسقط في نفسي . ما عاد في العالم ارض تشد الناس ولا بيت ولا نهر . كان صراخ الأعماق التالفة يبين على الوجوه المتموجة بالحزن والرعب ، ويظهر في الركب المطوية وهي تنهب الارض ، وفي العيون الخالية الوميض . وكل شيء كان ينده من داخل : يا رب نفسي .

وعلى سطح سماء ملفعة بالغبار ورائحة الدم وسطح الشمس كتبت كلمة : «اذهب انت وربك فقاتلا انا الى هناك فارون» . خلافاً لصغار الاجسام كبار النفوس وقعوا بصمت . وثيقة استشهاد وانتحار . كانوا يتحركون حركة الموت .

وكانت تلك الهناك بعيدة .. بعيدة خلف كل الدروب والاراضي والبيوت والانهار .

كنت واحداً من اولئك الفارين . اركض ... وأمشي ... واقف . وكانت المقبرة بعيدة هي الاخرى .

صوت طارق بن زياد اخترق عاري ، بكلمات مدرس جبان : العدو امامكم والبحر من ورائكم وليس لكم الا النصر او الموت .

وارتفع صوته اكثر : كانوا فرساناً يتحدون الموت . فتحوا الاندلس

وذقت حوافر خيلهم ابواب باريس . وهزموا فارس وبيزنطة والصليبيين .هؤلاء هم اجدادكم الفواتح . فافخروا بهم وعيشوا على ذكراهم المجيدة .

فارس . بيزنطة . بواتية . حطين . القادسية . ذي قار .

وثبت امام ذاكرتي كسجون تاريخية ، لا استطيع كسر قضبانها . وبدوت داخلها كفأر ياوب ثم يدوخ ثم يسقط .

هكذا كنت اسيراً في لعبة الزمن .

ماضياً والعدو خلفي ، العدو في داخلي ، نحو بوابة المقبرة . وتساءلت فجأة : اليس هذا بحلم ؟

قال ابي : هذه محنة من الله .

وقال الراديو : اسحقوهم .

وهزني عابر : انت متلكيء .

ولمحت خولة بنت الازور تجمع الضمادات البيضاء .

ـ انا خارج التاريخ .

وفي الضواحي البعيدة ، حدث دوي لقنبلة رجت الشوارع والفضاء . كان التاريخ يتصدع .

. . .

كانت المقبرة تطل على شارع طويل وعريض ، مسورة بحائط حجري يرتفع الى مترين ، وفي الحائط ثقب يرى منه قسم من الشارع . من خلف الثقب كنت ابصبص بين فينة واخرى وأسأل نفسي : متى يرون ؟

قبل ان أصل المقبرة مررت بالمدينة : طرقاتها وبيوتها وساحاتها العامة ، مقاهيها ومساجدها . ومن ثقب ما اطللت على الناس .

سألت طفلاً عابراً يبكي : أين أمك ؟

ذعر مني . وهرب . عرفت ان أمه تغتصب .

واقتربت من رجل يجهز امتعته ويرميها سريعاً في سيارة وسألته : أين هي الحديقة التي يجلس فيها الاغنياء عند الغروب ؟

برم بوزه عني ومضى الى مقوده . الحديقة مغلقة . وعبرت امرأة جميلة . عيناها كطيلسان اخضر . حازيتها وتنحنحت .

بهمس قلت : كيف حـــال غرفة نومك الزهرية التي تبعث الكسل والنعاس معاً ؟

زورتني مشدوهة ، وأسرعت الى عربة عشيقها وغابا . كان البيت معداً للغرباء الجدد . ومضيت .

سألت الحانوتي وصاحب المقهى ومعشب الحدائق وسائق الباص وبائع العربة وخطيب المسجد ، أين يمضون ، فلم يجبني أحد

وكانت المدينة تهتز . فمضيت .

وسألت قطة تمضغ الفضلات : الى أين يمضي النـاس ؟ ماءت رافعة رأسها نحوي : لكنها بقيت قرب الفضلات .

ومضيت أبكي وأغني وأسأل :

ـــ أيها الحجر الحار اين هو الوطن ؟

ولمسته . ضغطت عليه . فدخلت حرارته في راحة كفي . وعليه مرغت وجهي المتسائل فأصابتني منه حرارة وامان .

كان الحجر جزءاً من جدار كبير ، موجوداً في مكان ما من هذه المدينة الفارة . وكان مقيماً هنا لايتزحزح . وكنا نمضي الى هناك القصة .

وسألته : لماذا يهرب الناس ؟

ومن ورائه نده صوت : انت ماذا تفعل هنا ؟

وصوبت نحو صدغي فوهة بندقية . ارتعشت رعباً . انسان هـــذا أم جني ؟

وإذ انتصب امامي انسان وبيده سلاح قفز فرح وامان اجتاحا الارض ونفسي معاً : هو ذا الوطن !

وعاد يسألني : من أنت ؟

ارتجفت : انا ... انا ... ماض الى المقبرة . وضحك بقوة . فرحت مرة اخرى وانا أرى انساناً يضحك في هذا الوقت بالقرب من وطني .

— وماذا ستفعل في المقبرة ؟

— سأنتظر النهاية .

— نهاية ماذا ؟

— نهاية هذا الذي يحدث .

— لماذا ؟

وارتبكت . كان في رأسي خمسة أجوبة او عشرة او عشرين جوابا على هذه الـ لماذا . توقفت عن الجواب ونظرت اليه هنية . كان يلبس ثيابا مختلفة وفي عينيه لمحت الموت والخوف ، الحذر والمشيئة . وكان وحيداً . فجأة استجمعت شجاعة قديمة ووعيت : انا مطرود .

وراح يوقع من خلال الموت والخوف والحذر والمشيئة، ضحكة اخرى . أوقف ضحكته وسألني : مطرود من أين ؟

قلت : من دائرة التاريخ .

وضحك أيضاً . ناولته لفافة وناولت فمي . وأشعلنا .

سألني : لماذا لاتملك سلاحاً؟

قلت : لاأعرف كيف استعمل السلاح.

— لماذا ؟

— الله وقيصر والجند يحققون النصر .

— من قال لك ذلك ؟

— أبي ومعلم المدرسة والتاريخ .

— واستطردت سائلا : انت تتقن استعمال السلاح ؟

— اجل .

— و ... لكن انا لماذا لا اتقن ذلك ؟

ومرة ايضاً ارتجت الارض بقنبلة تبعتها اخرى واخرى . وراحت المدينة تتقصف .

. . .

استمرت الهجرة . واستمرّ الدوي وبدا ان دماء غزيرة قد سالت وان الوطن يتأوّى بوجع لاحد له .

عرفت ذلك من اولى قوافل الراجعين .

الايام الاولى مضت في الترقب وفي محاولات يائسة لسحق الالم . ان اكون خارج هذه المقبرة او داخلها . وفي اليوم الخامس كنت ما ازال هنا وراء هذا الثقب اللعين اشاهد واتألم، ابكي واغني، واشم رائحة البخور والريحان الذابل.

انني الآن استلقي فوق سطح بلاطة قبر . قرب عيني شاهدته الامامية

وورائي الشاهدة الخلفية وانا ممدد بينهما ، السماء شطيحتي وانا احدق من الثقب ، للذين عادوا من الحرب .

يداي مدلاتان على جانبي جسد القبر ، واذ ارتو يميناً أو شمالاً تمد المقبرة تحت بصري رافعة شواهدها نحو سماء مغبرة ودامية .

من موضعي ارى المهاجرين المتعبين واسمع صوت انين الارض تحتي ، وامام عيني .

من رأس الشارع لمحت بداية القافلة . جندي في كتفه بندقية معلقة يسير مترنحاً ، وعندما اقترب قليلا شاهدت ذقنه الطويلة السوداء وخوذته المموهة ، ثم العطش المشقق لشفتيه .

في التقويم الزمني لهذه الارض مرت ايام لاحصر لها عبر اعوام مضت . لكن هذا اليوم المخضب لاينتهي .

كان يوماً صيفياً من عام انبثق من بين شقوق التاريخ وكأنه الحشر . بدا كأنه الزمن كله يزحف فوق ظهور البشر ببطء ، شبيه وحش اسطوري خرج فجأة من مستنقعات نفوسنا جميعاً .

وتتالت ظلال المنسحبين فوق الارصفة والاسفلت وغبار الاراضي البعيدة . ظلال غرثى جهمة ، مسحوقة الملامح ، تتقدم محنية الظهور . مقهورة .

لاح لي مع اشباح العائدين ، شبح ابي ومعلم المدرسة ، ومدينتنا الرضية ايام السلم : تبيع وتشتري ، تتكلم وتتهم ، تقيم العمارات ، وتحرث بحاريث خشبية ، ويقيم سكانها الصلوات الخمس ، نساؤها محجبات ، وفتيانها يسكرون ويتحدثون بحرارة عن الديالكتيك التاريخي .

ـ الله وقيصر وجنده من يصنع التاريخ !!

وبتشف جريح صرخت بأبي الشيخ : اين ربك الآن ، واين قيصر ؟!

كانوا مغبرين ، وعطـــاشا ، يهرعون نحو صنبور ماء على ناصية الشارع وكنت اسمع صوت شرقاتهم ، وغرغرة الماء في حلوقهم الجافة . بعضهم كان يستلقي قرب الماء ، وآخرون كانوا يستمرون نحو اماكن مجهولة لايعرفونها .

ولم يكن بامكاني ان اتزحزح .

صلبني الخوف والالم والعجز الى جسد القبر . تمسكت به اكثر وخيل اليّ انني كنت اجرح جدرانه واحفر باسناني قاعدة شاهدته الامامية .

ومرت عربات الجرحى والمقتولين . ولاول مرة المح الدم . ولعنت أبي الشيخ وقيصر والتاريخ ونفسي .

كان الدم نازفاً يبقع الثياب العسكرية ، وقاطرات القتلى مستورة تتأرجح بالاجساد التي انتهت ، فوق الشوارع . وفوق الاسفلت تحت بقع الدم .

تخيلت خيطاً ، خيوطاً ممدودة من حطين حتى . . .

هل لهذه المعركة اسم . وهل سيدرسها الاطفال في المدارس ، ومن هو ذلك المعلم الذي سيشرحها ؟أتراه سيكون مغروراً (. . . .) كمعلمنا الذي حكى لنا عن طارق وموسى بن نصير ؟

ومع الدم ومواكب المهزومين وجرحى الحرب ، فاحت رائحة البخور والريحان ، وروائحي التي انتثت هنا .

ــ وطني الجريح المقهور ، ينزف .

كان النزف يمتد فوق خطوط عودة الجند من جميع ثغور المدينة . من الشرق والغرب والشمال والجنوب . بدت المدينة مقبرة خوف وامان . حفرة يتخثر في باطنها الدم والهلع والقهر .

قضمت ظهر الحجر وجرحت بياضه باسناني التي تدمت . رأيت دمي ينقط على الحجر الأبيض

كنت انزف أنا الآخر ، وانا ملتصق بظهر القبر كحشرة ضالة وقعت خطأ هنا .

دهمني احساس الوثوب باتجاه الجنود لاعانقهم وامرغ وجهي باحذيتهم الغبراء ، الثم جراحهم ، واحملهم فوق ظهري نحو بيوتهم البعيدة ، علّني اشارك في شم رائحة وطني الذي يحترق .

عبثاً . وتتالى دويّ هائل ، شعرت اثره وكأن المقبرة قد اقتلعت ورفعت الى سماوات قصية ثم سقطت في باطن الأرض . كان القبر يغور الآن في شق انفتح كبوابة الجحيم . وكنت ما ازال على ظهره محمولا .

وانا اغور ، لمحت وجه ابي المجعّد من اثر السجود ، ووجه معلمي الصامت طافيين فوق بحيرة دم ، وفي محيط اللغة اللانهائي ، لم تكن هناك كلمة تقال لتعبر عما حدث في تلك الأيام الحزينة .

البحث المضني

جورج سالم

لاتسألوا كيف انتهت هذه القصة او كيف ستنتهي ، فأنا لا أعلم شيئاً عن نهايتها وإلامَ أفضى الأمر ببطلها س ... واغلب الظن أنه هو أيضاً يجهل ذلك كل الجهل ، وليس يدري متى سيتوقف بحثه وإلامَ سينتهي . أما بدايتها فقد حدثت على النحو التالي :

انطلق س ... مساء ذلك اليوم ، بعد أن انجز أعماله وارتدى ثوبه الجديد ، متجهاً الى منزل صديقه المحامي ليهنئه بعيد ميلاده فقد جرت العادة ان يهنىء س ... معارفه وأقاربه ، الذين لم يكونوا كثراً ، في المناسبات الرسمية ، ويعزيهم حين تلم بهم النوائب أو النكبات ، وأن يعودهم اذا مرضوا حاملاً اليهم الأزهار ويُبدي شيئاً من اللهفة على صحتهم الغالية ، ثم يخرج من عندهم وقد أنسي كل شيء يتعلق بهم . اتجه إذاً في ذلك المساء الى منزل صديقه المحامي ، ومع انه لم يكن يشعر بكثير من المودة نحوه فقد كان يقوم بهذه الزيارات مرة كل عام . وكان يسره أن يلتقي في منزل صديقه هذا ، وفي منزل الأصدقاء الآخرين ، أناساً غيره قد جاؤوا للسبب نفسه ، وللقيام بالمهمة ذاتها ، وكان ذلك يخفف عنه بعض مايشعر به من ضيق وإحراج ...

ومع أن منزل صديقه هذا كان بعيداً ، فانه لم يشأ أن يستأجر سيارة توصله اليه ، بل آثر أن يقطع المسافة سيراً على قدميه . فمضى يجتاز الدروب والشوارع شبه غافل عما حوله ، مطلقاً لأفكاره وتأملاته العنان ، متابعاً اياها ، إلا أن يدهمه صوت بوق سيارة أو شاحنة فيعود الى الرصيف وسرعان مايستأنف سيرته الأولى . كان الطقس ربيعاً جميلا ، والهواء يهب عليلا فينفذ الى صدره ويملؤه نشوة وطمأنينة وحبورا ، وانتهى الى البناية التي يقيم صديقه المحامي في شقة واسعة جميلة منها . (كانت بناية ذات نوافذ زرق ، مسوّرة بجدار تتعلق به شتى النباتات وتطل من فوق رؤوس الأشجار) وبعد أن اجتاز الباب الحديدي الأسود الكبير ، سار بضع خطوات في الممر الرخامي بين مجموعة من النباتات والأزهار ، ثم دخل المبنى وارتقى السلم الأبيض ببطء وحين بلغ الطابق الثاني ، دق الباب الذي على اليمين ، وانتظر هنيهة وهو يسوي عقدة عنقه وكانت تأخذ بخناقه بعنف ، ثم فتح الباب وسمع صوتاً يقول له :

ـ تفضل .

لم يتبين س ... الوجه الذي فتح له الباب ، فقد كان متوارياً تقريباً خلف الباب الخشبي الكبير ، ولكنه تبيّن فيه صوت فتاة ، فقدّر أنها الخادم . واتجه نحو المشجب ليخلع معطفه ويعلقه ، فانتهز هذه الفرصة ليستدير قليلا ويتفرس في وجه صاحبة ذلك الصوت ، ولم يلبث ان شعر بالدهشة حين رأى أمامه لا خادماً بل ممرضة ، ترتدي الصدار الأبيض وتضع فوق شعرها قبعة بيضاء وتنتعل حذاء وجوربا أبيض .

وقف لحظات صامتاً لا يستطيع ان يتفوه بحرف . ثم اعتمد على شجاعته والتفت الى الفتاة وقال لها :

عفواً ، أتراني أخطأت منزل صديقي المحامي ...

لم يبدُ على الفتاة أنها فهمت شيئاً ، فقالت له :

ـ ليس هذا منزل محام ، انه مستشفى كما ترى ، تفضّل ، تفضّل ...

قال لها بسرعة وهو مرتبك :

ـ ولكنني لم آتِ الى المستشفى ، انني أقصد منزل صديقي المحامي .

ثم أضاف :

ـ آسف ، لعلي أخطأت في الباب .

وهزّ رأسه وكأنه أصبح واثقاً من ذلك وقال :

ـ لابد أن يكون في الطابق التالي .

ولكن دهشته بلغت غايتها حين قالت له الفتاة :

ـ ولكن المستشفى يشغل البناية كلها ، وليس فيه أي منزل .

فقال لها :

ـ آسف ، على كل حال ، لابد انني سهوت فدخلت البناية خطأ وكان ينبغي ان أدخل البناية التي قبلها او بعدها . ربما كنت شارد الذهن فتجاوزت البناية التي يقيم فيها صديقي .

لم تقل الفتاة كلمة واحدة بل سارعت تفتح نافذتين متقابلتين تطل منهما على احد جوانب الطريق ، وقالت له :

ـ انظر من هنا ومن هناك !

فلم يتحرك س ... كانت الدهشة ماتزال مستولية عليه ، فألحت الفتاة تقول :

ـ هيا انظر !

ووجد س ... نفسه مسوقاً الى ان يمد رأسه في كل من النافذتين على التوالي . وفعلاً لم يكن هناك أية بناية في كل تلك المنطقة .

وقف يسائل نفسه أتراه ضل طريقه او تاه في هذه المنطقة من المدينة مع انه يعرفها حق المعرفة وقد سبق له ان زارها عشرات المرات . بل انه ليجهل ان هنا مستشفى ، ولم يره من قبل ولم يسمع به قط . وحين بلغت به الحيرة أوجها قال سائلاً الفتاة :

ـ هناك سؤال أرجو أن تجيبيني عنه :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل هذا المستشفى جديد في هذه المنطقة ؟

لم تجبه الفتاة بل راحت تضحك ، ثم قالت بعد ان انتهت من ضحكها :

ـ لست أدري متى شيد ، كل ماأعرفه انني أعمل فيه منذ خمسة أعوام .

ثم أشارت اليه أن يتريث هنيهة ، ذلك بأنها تحت بمرضة مسؤولة عن هذا

الجناح ، ورأت ان تترك لها موضوع هذا الانسان المحير ،فنادتها بحركة من يدها، وسرعان ماأقبلت تلك ، فتفرست في وجه س . . . وافتر فمها عن ابتسامة عميقة، وقالت له :

— انتظر هنا لحظة ، وسأعود اليك فوراً . فقد انتهت فترة عملي وسأبدل ثيابي . لقد أتيت في الوقت المناسب .

ثم التفت الى الممرضة التي وقفت ذاهلة : وقالت لها :

— أما أنت فأرجو ان تتجزي ما كلفت بالقيام به ، ريثما يحين موعـــد انصرافك وتحل محلك الممرضة المناوبة لهذه الليلة .

ومضت كل منهما في اتجاه وخلّفتا س . . في بهو الانتظار . مسح هـذا جبهته بيده ، لايدري ماذا سيفعل ، ولا يملك تفسيراً لكل ماحدث له ومايجري أمامه . وكان اول ماخطر له ان ينسحب بسرعة ويعود ادراجه . ولكن تلك الابتسامة العذبة التي انطلقت من وجه الممرضة قد حملته على التردد لحظة ، وقال في نفسه : « ليست هذه الفتاة بغريبة عني . وليست هذه هي المرة الأولى التي أراها فيها » : وبذل كل جهده ليتذكر شيئاً عنها إلا أنه لم يفلح . ولكنه ظل مصراً على انه يعرف هذه الفتاة ثم أضاف : « اذا كنت لم تتعرفها فربما لأنها ترتدي هـذا الثوب الأبيض » .

وهمّ بمغادرة المكان على عجل ، وفي اللحظة التي كانت فيهـا عيناه تبحثان عفواً عن المخرج ، انتهى اليه من الخلف صوت الفتاة الذي ملأ بعذوبته كل ما كان يحيط به ، يقول له :

— حسناً ، لقد انتهيت ونستطيع الآن أن نخرج . أرأيت أنني لم أتركك تنتظر طويلا !

لا الوجه عنه بغريب ولا الصوت بجديد ، انه ليستطيع أن يميزها بين آلاف الوجوه والأصوات فأين التقى بهذه الفتاة ومتى كان ذلك !؟ لم يتح له أن يجيب عن هذا السؤال ، اذ ما أسرع ما وجد نفسه يسير معها في الدروب الطويلة من مدينته الواسعة الكبيرة – ولأول مرة من حياته فيما يذكر ، رأى أن بلدته جميلة – واما جن الليل توجها نحو مرقص ليلي قطعا فيه وسهرا ورقصا ماطاب لهما أن يرقصا ، حتى اذا ماتعبا ، او خيل اليها أنها تعبا – فقد كانا أبعد شيء عن التعب – استراحا متقابلين ، ينظر أحدهما في عيني الآخر نظرة ، دون كلام ، تنفذ الى أعماقه فيرى ما فيها ، وكانت الأعماق بحيرة زرقاء صافية ، لاعاصفة فيها ولا اضطراب ، ما من شيء يعكر صفوها ، ولا يطغو عليها أي كدر ولو ضئيلا . ولم يجد أي منها حاجة لأن يلقي على جليسه أسئلة . أو يتعرف عنه شيئاً . فلقد بدت الأواصر التي تشدهما بعيدة المدى ، بعيدة التاريخ عميقة الجذور ، تعود الى ازمان لا يمكن تحديدها . هل كان س ... سعيداً تلك الليلة ، ام تراه كان فرحاً ، أم أن نفسه كانت قد امتلأت غبطة فأوشكت أن تفيض ورقت حتى شابهت البلور ، وخفت حتى لكأنها تطير ؟ كان يشعر أنه طفل نبت له جناحا فراشة فطار حراً في حقل لم تطأه قدما بشر قط .

ولما تصرم الليل وأقفل الملهى أبوابه – وس ... في دهشة من أمر ساعته كيف حثت خطا عقاربها بمثل تلك السرعة – خرج فتأبط ذراع الفتاة وانطلق بها ليوصلها الى منزلها . ركبا سيارة أجرة لم تلبث أن هبطت منها الفتاة مودعة على أن يلقاها اذا كان الغد . وعاش س .. يومه ، كل دقائق يومه ، على أمل ذاك اللقاء . حتى اذا أزف العصر توجه نحو المستشفى سالكا الدروب التي مشى فيها آمس حاثاً الخطا ، ولم تخطىء يده جرس الباب فدقه وهو يلتقط أنفاسه .

قالت له الخادم التي فتحت الباب ، ويبدو أن وجهه لم يكن غريباً عنها :
— ان معلمي ليس في المنزل فقد سافر لبعض شؤونه .
ولمّا لم يبد عليه أنه فهم شيئاً سألته :
— ألست تقصد منزل السيد المحامي ؟
قال س .. دون أن يعي ما يقول :
— منزل المحامي !

سرّت الخادم من أن محدثها قد فهم ما ترمي اليه ، فقالت له :
— لقد استقبل امس مهنئيه ، واضطر اليوم الى السفر ، وأوصاني أن أعتذر عن أي موعد أو مقابلة ، فقد اقتضته اعماله أن يسافر بسرعة .
تشجّع س ... آنذاك وقال لها :
— من حق صديقي المحامي أن أزوره ، ولكنني أبحث اليوم عن مستشفى قريب من هذا المكان ، فهل لك أن ترشديني اليه ؟
— مستشفى ؟
أطرقت الخادم هنيهة وأنظار س ... وانفاسه معلقة بفمها ، ثم قالت بصوت كصوت الجلاد :
— لا وجود لأي مستشفى في هذه المنطقة كلها ، فلا تتعب نفسك في البحث عبثاً ، فأنا أعرف كل البنايات كما أعرف ساكنيها ..
ولم تلبث أن تهيأت لاغلاق الباب فاستدار س ... وحيّاها بحركة من رأسه .
منذ تلك اللحظة انطلق س ... يبحث ، والحق أن بحثه هذا كان طويلاً ممضاً مضنياً شاقاً . فقد طرق ابواب كل مستشفيات البلدة وتنقل فيها في أوقات

فراغه كافة مسائلاً متطلعاً، يأمل أن تقع عيناه على ذاك الوجه ذي البسمة السحرية.
كما طرق عيادات الأطباء في كل احياء المدينة . كان ينظر الى كل ممرضة ليتعرف فيها فتاته . ومن عجب أنه لم يكن يعرف اسم الفتاة وان كان يعرفها ، وأنه لم يقع لحظةً عليها وان كانت تشكل حضوراً حياً حوله . ولم يمتد بحثه وتطوافه يوماً واسبوعاً وحسب . بل امتد اياماً وشهوراً وسنوات، لم يترك مظناً الا اقتحمه ولا شارعاً الا توقف فيه ، جلس في المقاهي التي تطل على الشوارع المزدحمة ، ودخل المقاهي المنعزلة التي تطل على شوارع صغيرة ، وأمّ الحدائق في مختلف ساعات النهار وشتى فصول السنة وأقام عند مواقف الباصات والحافلات والقطارات ، وجال في مرائب السيارات ومكاتب السفريات. لقد جعل من هذا البحث معنى حياته ، فاذا ما أنجز عمله في وظيفته انطلق كأن له عملاً آخر عليه أن يؤديه او رسالة ينبغي أن يقوم بها كأنما حياته نذر لها . ورغم مرور الأيام ورغم مرور العمر الذي خيل اليه انه بدأ في تلك الامسية البعيدة القريبة الغامضة الواضحة فانه ما يزال يبحث ، شأنه شأن مسافر في صحراء قاحلة تفيأ لحظة في واحة بليلة، ثم لم يلبث أن اضاعها ولم يعد يطيق حياة الصحراء دونها . او شأن نائم منح حلماً أخاذاً حتى اذا ما استيقظ عجز عن الامساك به او استرجاعه ، كما يعجز الانسان عن استرجاع براءة طفولته . وظل يبحث في حركة دائبة . وكان يتاح له في بعض الاحيان أن يقع بصره على من يشبه تلك الفتاة ، ولكنه سرعان ما يستبين خطأه ووهمه ، فيرتد اليه بصره ، وكان يشعر في احيان اخرى بوميض يلتمع فجأة في أعماقه فيحد البصر فيه ولكنه لا يلبث أن يخبو ويتلاشى . ومع ذلك كله فانه على ما يشبه اليقين من أن تلك الفتاة قائمة في أغوار نفسه ، حية مادام على قيد الحياة،

قريبة منه قرب أنفاسه ، وأنه بحاجة اليها حاجة النهر الى مصبه . اين تراه يلتقيها وأيان يتم ذاك اللقاء . ان س ... يجهل ذلك ، ألم اطلب اليكم ألا تسألوا كيف انتهت هـــذه القصة أو كيف ستنتهي ، فأنا لا اعلم شيئاً عن نهايتها وإلام أفضى الأمر بـ س ...

السجين (...)

حسام الخطيب
لندن —

— ١ —

في الصباح كان شديد الانقباض . حين أفاق كان قلبه ينكمش ويتقلص في صدره . قالت امرأته الصبية : لا تتركنا اليوم . انني أتوجس من الآتي . ابق الى جانب الأولاد .

رسم ضحكة مغتصبة على شفتيه :

— ان دائرة البريد تحتنا في الطابق السفلي . لو كنت ميتاً فلن يعذرني أحـــد . ثم هناك معاملات مالية والموسم في أوجه ، هل تريدين ان يسرق مساعدي وأتحمل الجريمة أنا ؟

في الدائرة جلس وراء مكتبه . مدير بريد . سلطان لاينقصه الا التاج . عبوس الصيف زاد من انقباضه . تسارع احساسه بالشر القادم . فكر في مأساة شبابه . أحب صغيراً وترك المدرسة واشتغل في وظائف بسيطة ، وأخيراً حين واتت الفرصة واصبح مدير بريـــد فوجيء بأن له اسرة كبيره ، ثلاثة أولاد يأكلون الأخضر واليابس وامرأة معتدة بظهرها لا تتساهل في مصروفها وزينتها .

— ... —

بحث لنفسه عن مخرج . هذا الوضع لا يمكن أن يستمر ... انني أعمل (جرسونا) عند هذه الأسرة الكبيرة . في منتصف الشهر أبدأ بالاستدانة وأغير دخاني من (ل . م) الى (ناعورة) . أية بلية لصقت بي . أريد أن أتنفس . أن اسافر . أن أسكر . أن الهو . ولكنني مسؤول لا امام امرأتي واولادي فحسب ، بل امام الناس . لكم أكره الناس . انهم يتدخلون في كل صغيرة و كبيرة من أموري باسم الصداقة . وكلما حاولت التحلل من مسؤولياتي تهددني امرأتي باللجوء اليهم . بل انها بالفعل شكتني مراراً الى عائلة ف .. والى الدكتور و . والى زوجة مدير الناحية وغيرهم ... لقد اصبح الناس سلاحها الأول ، انهم قيدي وعذابي .

آه لو استطيع ان اكم افواههم جميعاً ، او اقتلهم بدفع رشاس او قنبلة ذات مفعول فتاك ، ولكنهم كثر كالنمل ، كالجراد ، وداتماً ينبتون ويتكاثرون ويزدادون التصاقاً بي ، انفاسهم تحرقني . كلامهم يجـــدد مأساتي التي تشبه افعى استوائية كلما اهترأ لها جلد تجدد لها جلد اكثر التماعاً وأقوى اغواء .

. . .

— سيدي . أريد أن أرسل حوالة بثلاثة آلاف ليرة الى العاصمة . ولكنني متردد . هل هناك ضمانات لمثل هذا المبلغ ؟

— ماذا؟ هل هي المرة الأولى . إن الدولة تأمننا على أكثر من ذلك ، على أضعاف ذلك . انظر . هذه هي القيود . في أيام الصيف يبلغ معدل دخلنا من الحوالات عشرين ألف ليرة . ثم هناك الوصل الذي يكفل لك حقوقك وزيادة — على بركة الله .

. . .

— إبراهيم . إبراهيم .

— نعم . سيدي .

— هل وضعت الآلاف الثلاثة في كيس الإرسالية .

— نعم .

— هل لك في اقتسامها . إن فيها خلاصي الروحي وخلاصك المادي .

— لا أفهم ياسيدي .

— لقد خنقتني لكثرة ماتتظاهر بالبلاهة . سنشق الكيس ونقول ان المغلف سرق على الطريق . كان يجب ان نفعلها منذ زمن . لقد فوّتنا فرصاً كثيرة .

— ولكن . ستحوم حولنا الشبهات . ومن يدري . فقد يجلدنا مدير المنطقة الوحش ، وقد يسلطون علينا الكهرباء حتى نعترف .

ضحك المدير . ضحك من قلبه : هل أنت متأكد من أنهم سيكرهوننا على الاعتراف ، وأننا لن نستطيع المقاومة !.. وفرك يديه بسرور ورقص شارباه ولمعت جبهته ...

— سيدي . أراك واثقاً من نفسك ،وإنني مستعد لخوض المغامرة معك ، على شرط أن تعطيني نصيبي فوراً .

— احضر المغلف وخذ ماتشاء .

- ٢ -

قال المحقق لمدير البريد :

— لم يلمس هــــذا الكيس إلا أنت وابراهيم ، ومدير المركز الذي اكتشف السرقة .

— هل تتهمني ؟ منذ أشهر وأنا أستلم مبالغ طائلة ، ولو كان في نيتي أن أسرق لسرقت مبلغاً ضخماً وهربت عبر الحدود القريبة .

— ...

— ...

— حججك معنوية ، وأمامي أدلة مادية . الكيس لم يثقب ولكنه فتح بطريقة طبيعية لايحسنها الا من يملك مكبس الفتح أي أنت ومساعدك ابراهيم .

— لاشأن لابراهيم بالموضوع . وأنا لم أسرق وهذا يكفي .

— ...

— لاتلحوا علي . لاتضايقوني . لم أسرق . وهل يعقل ؟ هنـاك لغز . فتشوا عنه .

— لدينـا سر اللغز . كثيرون مثلك لم يصمدوا أمامي منذ أن كنت عريفاً في الشرطة ... اجلدوه .

— هس" . هس" . هس" . آه . آه . إن الجلد لذيذ ومؤلم . هذا ما كنت أبحث عنه . ألم اللذة ولذة الألم .

— لن أعترف ، لست سارقاً .

— اضربوه . في كل مكان من جسمه . على رأسه . على أنفه . فليسبح في الدماء . انه المجرم .

— آه ... آه ... آخ ... آخ ...

— زيدوا . هل زنودكم من تنك ؟

— ... كفى النقود مع زوجتي ، وابراهيم شريكي . والعالم تآمر ضدي وحفر لي هذه الحفرة .

— ٣ —

السجن جميل أمين ... اشخاص متباينون لايجمعهم جامع . الكراهية دستورهم ، ليس لديهم مجاملات ولا شفقة . وحوش كاسرة . كل واحد مشغول بعالمه ، بذاته . ماأجمل أن يترك المرء وشأنه ...

— نعم أيها الشرطي .

— زوجتك وأولادك أتوا لرؤيتك . اقترب من قضبان الباب حتى تراهم .

— من أنتم ؟

— عصام . ماذا دهاك ؟ أنا فيحاء .

— لا أعرفكم . خلصت منكم ، نلت خلاصي . نلت راحتي . لستم الا أطلال حياة بائدة انتشلت نفسي منها .

صاح الأطفال . بكت الزوجة . تعلقت بالقضبان الحديدية . انضم السجين الى الأشباح الاخرى التي كانت تتحرك بشكل غامض ، تماماً كما تتحرك الظلال على الجدران في ضوء مصباح يحتضر .

— ٤ —

— أيها السيد المحقق . مضى عليّ زمن في السجن . ولي مطالب يجب أن تسمعها .

— أعرف . اشتقت الى الهواء الطلق . الى الناس . الى أسرتك . ولكن

هيهات . أنت مجرم ورغم عطفي عليك لا بد من قضاء سنوات من العذاب في الظلام والأقذار .

– أيها المحقق . منذ أن كنا أنداداً ، أنا موظف وانت موظف عرفت أنك اعجز من ان تفهمني . استمع إلي . سأحـــاول ان ابسط مشاعري بأوضح الكلمات . ساعدني . مدّ جسور فهمك الى كلماتي . كلماتي التي لا أفهمها تماماً انا نفسي .

– سنحيلك الى طبيب عقلي .

– اسمع . كل ما اطلبه منكم أن تبدلوا لي السجن .

انقلوني الى أي سجن آخر . لا أريد رحمتكم . لا اريد اختصار المدة . خلصوني من مصابي الجديد ياناس .

– ها أنت تدخل في نوبة هستيرية . إنك في أحسن سجون البلد .

أبعدوني عن هذا السجن . دخلته لأحرر نفسي فاذاهو يسجنني . لن تفهم ايها المحقق . لقد تورطت وأنشأت علاقات مع سكان السجن ، وفجأة أدركت الحقيقة الجارحة ، القاتلة . إنهم يتعاطفون معي وأتعاطف معهم . نحن نأكل معاً ونقتسم المصروف ونتبادل أحاديث المستقبل وذكريات الماضي . عدت الى الأسر . لا أريدهم . ضعوني في زنزانة منفردة . أبعدوني . هل تريدون أن أجن سأرتكب جريمة أفظع من الأولى . لقد بعت اسرتي الحقيقية لأقع في قبضة أسرة جديدة بشعة مزيفة ولكنها متعاطفة .

– ها ... ها ... مم . مم... منذ يومين كنت تتوسل كالمجنون لتضعك في السجن المنفرد . لماذا تمد رأسك هكذا من بين القضبان . لماذا تعيد طعامك كما هو . ألم أقل لك إن الانسان لا يستطيع أن يستمر في الحياة إلا إذا تسلى

مع الناس . سأعطيك فرصة واحدة : إما أن ترجع فوراً إلى المهجع الكبير وإما أن تبقى هنا حتى تنتهي مدتك .

— أنا أكرهكم . أكره الناس . إنهم ألحّ علي من ظلي . دائماً ورائي ومن حولي . أبعدوا عني . اتركوني .

— إذاً قررت البقاء في السجن المنفرد .

— لا أيها المحقق . لا تجهز علي . أنا لست من الناس ولا أشعر معهم . ولكن هذه الزنزانة ، باردة ، رطبة ، كريهة الروائح ، موحشة .

— كذبت . الشمس تصافح زنزانتك أكثر مما تصافح المهجع الكبير . أنت سجين غريب . سجين جهلك لنفسك ، لما تريد .

— أراك تتفلسف ، وكنت دائماً تكره التفلسف . ليس هذا أوان الفلسفة . خلصني من هذه الزنزانة . اسرع . وأنا أعدك انني لن أتقدم بأي طلب آخر . سأتدبر أمري في المهجع . لن أكلم انساناً إلا بما يلزم . سأهدم كل الجسور . سأقتل حواسي . سأتجاهل الجميع ...

— ... —

— ... —

— انقلوه الى المهجع . انقلوا هذا الدّعيّ واعطوه رقم (.....) . امسحوا اسمه من السجلات . يكفي رقمه . لاتسمحوا لأحد برؤيته . لاتلبوا له أي طلب . واذا احتج أخبروني . لكم أنا مشتاق لاعادة جلده وتصفية دمه .

حين دخل المهجع كان في أوج ذهوله ، في أوج تحققه . لم ينتبه الى أن الشرطي الذي تعمّد أن يركله عدة مرات كان بالأمس يشق الارض تحية له كلما أتى ليرسل طرداً الى زوجته البعيدة .

مسرحية

أرملة الكولونيل [1]

-٢-

للكاتب السوفيتي
حوان سمول

ترجمة : فاطمة السقطي

المؤلف

اعذروني اذا لم اعط كل الكلام لأرملة الكولونيل وذلك مني قلة تهذيب ظاهرة للعيان الا ان الانسانية تقضي احيانا بقلة التهذيب . وعلى كل حال فان الرفيقة نفسها لن تستطيع ان تسكت ارملة الكولونيل لأن طبيعة هؤلاء الناس تتحدى المستحيل : ولابد من الانتظار بعض الوقت لتلفظ هذه الأرملة الجليلةالبالغة الاهمية مانصر على تسميته بالنفس الأخير لئلا نعود نسمعها ابدا .

واذا ماساقك سوء طالعك ايها المشاهد الكريم الى الجلوس على مائدة امثال هؤلاء الناس فانهم يقدمون اليك مع الحساء تطورات عسر الهضم ، ومع اللحم المحمر كل انواع احتقان المرارة ، ويأتونك بالامراض العصبية مع الحلويات . ولاتتصور انهم يتركونك حينما تذهب لغرفة الاستقبال لتدخن سيكارتك الرهيبة بارتياح ، بل عليك ان تتحمل درساً بأضرار التبغ او انحلال النسيج العظمى تحت تأثير البلوتونيوم الاشعاعي ، وحينا تتعلم بان نقطة من النيكوتين تكفي لقتل حصان فحل قوي مما سيصيبك حتما في اليوم

---

(١) نشر القسم الأول من المسرحية في العدد ٦٨ (تشرين الأول - اكتوبر) من المعرفة .

التالي، حتى لو لم يكن فيك شيء من صفات الحصان الفحل، وحتى لو كانت بغيتك متوسطة، فانك تشعر فورا بالتعلق الشديد بالحياة التي اخذت تفارقك. وبمركب النقص الذي يكاد يخنقك وباحتقار نفسك اذ ينبا لتلقيحك بكل الامراض مرة واحدة . وبالاختصار فانك لن تكون كما تقول الكولونيلة ، الا كبدا وقلبا ورئتين وجهازا أوعية دموية وشبكتين عصبيتين ولكنها كلها مصابة بالامراض التي يمكن للانسان ان يتصورها . ولن يبقى عليك الا ان تبعث الى غيرك بانواع الحصى والسرطان الخفيف او الشديد والسكتات القلبية (تسمع دحرجة صندوق كبير) وعلى اثر ذلك تسحب صندوق السكائر الذي اخفيته عن طبيبك وعن نفسك ، من مخبئه فيا اذا كنت منعت منعا باتا من التدخين ، وتتذوق سيكارتك وانت تبتسم ابتسامة ساموراي(١) البطولية بعد ثلاث دقائق من بدء انتحاره بطريقة الهارا كيري (٢) او ابتسامة فارس روماني وهو يصيح : « ايها الاموات أحييكم ! » .

ولنفرض الآن انك ودعت المشروبات الكحولية القوية الى الابد واخلصت اخلاصا تاما لوعدك الذي قطعته لطبيبك ولنفسك ايضا، فانك تطير من الفرح وتشعر بأنه ظهر لك جناحان وان كانا كجناحي البنغوان (٣) في الوقت الحاضر . وانه لم يعد لديك سوى ذكرى باهتة من رائحة الكونياك ، لابل حتى من لونه ؟ فاياك ان تطلع ارملة الكولونيل على عزمك هذا لأنها اذا ما علمت ذلك فانها لن تكلمك الا عن الكحول . وانها، لسمو نفسها ، تتنازل عن ترديد اسطوانة التحدث عن امراضها التي لايعرف الاطباء عنها شيئا، ولم يسمعوا بها، لتهمس في اذنك اليمنى عن المضار الفظيعة للكحول وتهمس في اذنك اليسرى ان الكولونيل كان يفضل النوع الفلاني من الكحول المناسبة الفلانية بالكمية الفلانية وبنوع من الاقداح التي يجب ان تقدم بها ، وبينما تذهب بك بعيدا وتقضي اليك بانواع الاطعمة الساخنة او الباردة التي تناسب كل نوع من انواع المشروبات وكيفية طبخها ، فتبدء (جوزة حلقك) بترقيص ساق ذقنك عند ربطة عنقك ويسيل لعابك وتشعر بارتخاء غريب في جسمك ، وحيث انك تتمتع بارادة قوية فان هذا الموقف الحرج يدفعك الى طريق الشعر فتنظم في عقلك مثلا هذه الابيات :

---

(١) ساموراي : من افراد فرقة ابطال الحرب في اليابان .

(٢) طريقة انتحار يابانية تتم ببقر البطن .

(٣) البنغوان طائر قطبي ذو جناحين قصيرين جدا Pingouin

جعلت غـــذائي الملفوف		والصافي مـــن اللبـن
وعفت طعـــام ابليس		وما فيـــه من الوهن
لكي ادخل في التاريـخ		والابطـال في قرن
فنعم الحــــظ صادفني		بتخليدي عـلى الزمن

« ولكنك مع ذلك ستظل تسمع صوتا مغريا يهمس في اذنيك (ان الكولونيل لم يكن يشرب الا الخمرة المعتقة الممتازة – في المساء فقط – مع قطعة ليمون مرشوش عليها سكر ناعم) فتشعر بان الشيطان ينتف بريش جناحيك ، وتعود رائحة الشامبانيا اللذيذة ، ويغدو صوت ارملة الكولونيل اوركسترا من الجاز وناديا ليليا وراقصة ذات ساقين جميلتين وذراعين ناعمين خلقتا خصيصا لتتعلقا برقبتك ، وزوج من العيون خلقتا لتحكما بالهلاك الابدي على اتقى عشرة دزينة من القديسين ، وخصلة شعر سوداء تهتز وترتعش على اذن وردية وعنق غزال ، وانف بشكل اشارة استفهام ساخرة ، وفم اعذب من كرزة ناضجة لوحتها اشعة الشمس الذهبية . تشعر بكل هـــذه الأشياء تعزف بقلبك اعذب الألحان ، في قلبك الذي بدأ يحنو من جديد والذي كنت تتصوره مغلقا ومحكم الاغلاق اللهم الا لقبول الفضائل المتقشفة ، نعم ترى هذه الاشياء الحلوة تهجم على قلبك هجوم مدنسي المقدسات على المعابد ، في الوقت الذي يردد فيه صوت ارملة الكولونيل معزوفة الطيبات التي كان يفضلها زوجها المرحوم والتي تومي اليك بافكار لاتلبث ان تهدم النظام الذي طالما قاسيت الامرين في رسمه لنفسك ، وتتراقص امامك كل الغرائز البهيجة التي كنت تتصور انك اخمدت نيرانها للأبد ، وفي لحظة واحدة يعود قلبك المنيع فريسة الرجل العجوز .

وتأكدوا بأني عرفت اناسا ملحدين اصبحوا مبشرين بالدين بسبب متابعتهم للمحاضرات الدينية . واتفق لي ايضاً ان اجتمعت بأناس زاهدين متعصبين خاضعين بشكل مدهش لارادتهم في الامتناع عن الكحول العاتية ، نعم رأيت هؤلاء الناس ، من فرط كرههم للخمر وحب القضاء على هذا السائل المشؤوم من منبعه ، بدأو يشربون منه كما تشرب رمال الصحراء ، ومن اجله صاروا يبددون كل ما في منازلهم ، من السقف الى الارض ، ثم يبيعون معطف الفرو الاستركان لزوجتهم الحزينة وآخر قميص من قمصانهم وآخر ذرة من الخجل والحياء معها ايضاً ، أو ينتهي بهم الامر أن يغنوا في الاماكن العامة مقاطع غنائية مبتذلة وخلاعية . كذلك فانه اذا ما استمر اصدقاؤكم على الاصرار في التحدث اليكم عن الامراض وداء

عن الامراض كاستمرار الامواج على حث الشواطىء الصخرية فانكم ستصابون حتما بهذه الامراض، اللهم الا اذا ترتم على هؤلاء الناس وتتمتع بصحة جيدة وبنية قوية الى آخر أيام حياتكم نكاية بهم !

ارجو عفوكم لهذا الاستطراد المختصر في هذا العصر الذي تتطلب فيــه موضة الشرعية ان يبرش الانسان روحه حتى يبدمها حينما تتعالى الاصوات في كل مقهى : « يالها من جرأة ! » وفي كل مرة نحاول فيها بالعناد الاستوني المعروف لحصان الناعورة ، بان ندور وندوس عبط نقطتنا المركزية بالعبث ببعض كلمات مملة في السياسة والاجتماع والمثل العليا ايضاً ! في الوقت الذي نحلم فيه هاتفين هتاف الفرح لزمان ليس فيه إبطال وليس فيه مغامر ، اقول ! وهل يمكن في مثل هذا الوقت ان يطالب الكاتب بان يزين مؤلفاته باشياء قديمة ؟ وكون المرء اديباً لاينفي ان يكون انساناً ! فنحن لنا ايضاً كرامتنا ونود ان نتبع الموضة ونسير مع وقتنا ونثبت لكم باننا لانقل معرفــة عن غيرنا بالامراض والمرض ، وبالاختصار لندل اننا نقبنا في هذا المنجم دون ان نتوصل ، طبعاً ، الى الاعماق التي توصلت اليها كولونيلي لأنه اصبح خبزها اليومي ، بل الى الحدود المتواضعة العبقرية لايرتفع ادعاؤها الى مستوى العلم الحقيقي .

وتعرف البراكين عصوراً طويلة دون ان تثور فيها ، وليست ثورة البركان ، كما هو معروف ، الا نتيجة لضغط الطبقات الدنيا ، اعني بذلك الحمم السائلة التي يقذفها ، وحينما يبلغ السيل الزبى في القاعدة فلا بد من ان تنسف القمة . وان الخمس دقائق التي اخذتها من وقتكم قد كانت كافية لاستعادة نشاط ارملة الكولونيل واملاء جعبتها وان اصوات غليان طباعها واخلاقها تظهر الآن بوضوح يعادل اصوات بركان فيزوف حينما كان يستعد لانزال العقاب بهركولانوم (١) Herculanum وبومبي (٢) Pompe من اجل الدولشه فيتا (٣) Dulce vita واسمعوا غليان هــذا القدر المشؤوم وتصوروا الضغط الذي يتجمع ليتفجر من رأس هذا اللسان ، هذه القوة المدمرة التي لاترحم ، والتي هي من اختصاص المرأة منذ فجر التاريخ ، ستقذف بعمودها الناري حتى طبقات السحاب لتنقض به من هناك على الادمغة المملوءة ببخار الطيب او تدفنها تحت وابل من الرمــاد . ولقد قال لها الكولونيل فيما قاله حكم خالدة : « لاتقوم الحرب من غير تكسير البيض ! ».

---

(١) و (٢) مدينتان في إيطاليا دفنتا تحت حمم بركان ، فيزوف .

(٣) الحياة الحلوة باللغة الإيطالية .

« وحين القاء الجمل الاخيرة – وهذا يترك الى تقدير المخرج – تعود الانوار الى مائدة العشاء . وكل المدعوين جالسين في أمكنتهم ماعدا الطبيب الذي يوحي مكانه الخالي بالثقب في الفك بعد قلع الضرس منه . وتتكلم الكولونيلة دون ان يسمع صوتها . وتعزف الموسيقا العسكرية لحناً كأنه آت من بعيد في بادىء الامر ثم تقوى ثم تقف فجأة لدى القاء اول كلمة من ارملة الكولونيل » .

أرملة الكولونيل

« ... انها لقطاعة وراثية للحقيقة كما كان يقول الكولونيل (الى المؤلف) ولو كان عندك ياصديقي العزيز ماعندي من وثائق مع خيالي الواسع طبعاً وعبقريتي ايضاً ، بشرط ان تكون منصرفاً لهذه المسألة مثل انصرافي مضحياً بقدر ما أضحي أنا من الفرق العسكرية في هذه الحرب المقدسة ، لكان ملاك الموت داعبك من زمان ياعزيزي بدل ان تؤلف الكتب (إبتسامة بزهو) التي لم اقرأها طبعاً بسبب هذه الحياة المضنية التي احياها ، ولكنني استطيع على الاقل ان اتكلم عنها لأن الكتب ، والرجاء ان لاتخلط بينها وبين الموسيقا – اذا كان الانسان لايعرف نوطتها فانه من الخطر ان يفتش عن براغيث اللحن (أي انتقاده) – وحتى في التصوير يجب على المرء ان يكون حذراً لأن الرسامين قد درسوا فنهم دراسة حقيقية – اما الاطباء فانهم مثل الكتاب يكفيهم ان يحسنوا القراءة والكتابة والكلام بصورة خاصة حتى يمارسوا هاتين المهنتين . انهم لايزعجونك ولايوقعونك في الفخ بكلماتهم التقنية وطرق مناوراتهم ، كما كان يقول الكولونيل ، بل يمكن ادخال سكين بين اسنانهم كما كان يقول ديكي (الكولونيل) ايضاً ، لأننا نحن القراء الاصليون وصوت الشعب نستطيع ان نوقفهم قليلا تحت نيران حرابنا المتقاطعة . كما يمكن ان يفسره لكم الكولونيل لو كان على قيد الحياة ، وجربوا بألا تجيبونا بكبرياء وبجدة وإلا فاننا نحن القراء الاصليون وصوت الشعب نطحنكم بطاحونة اللحم . آه ! ولكني اعرف حقوقي ، حقوق المريض السوفييتي التي لاتوصف ، والشيء المزعج الوحيد هو اقحامهم في بعض الاحيان بلباقة وتصلب مثل العدالة ذاتها لكثرة مايشوشوننا بألفاظهم اللاتينية وهي مثل سجلات المرضى حينما يلقون عليك بالاسئلة وهم يكتبون هذه الشطائر (من الخبز والزبدة) التي لو سمح الكاتب لنفسه ان يكتب بهذا القدر لكانت الكتب خنقت بسرعة صوت الشعب ولكن صدقني يادكتور (وتلاحظ ان الكرسي خالياً) ... مسكين ، مسكين الدكتور ، لقد انتهت آلامه واستراح من الحياة ! وكم كانت عيناه مملوءتين بالقلق والالم

وهما تذكراني بوجه الكولونيل حينما قلت له باني حامل – (الى ابنتها) بك باكستكوتي – وأفهمته قائلة : « ياديكي ، عليك الآن أن تلمع ازرار بدلتك رقم -١- وان تجمع فتيان شرف باشكال جميلة وان تشتري ستة صناديق من النبيذ وكتبه وروب ابيض وعربة للطفل وان تستأجر الاواني المطبخية والقسيس واثني عشرة مركبة ، لأني انا اريد عرساً فخماً تزينه الفجريات برقصهن وغنائهن وودع سهراتك الصاخبة لانني بعد الآن سأضع مؤونتك التي تستلمها من الجيش وراتبك ومسدسك في خزانة ثيابي واقفل عليها بالمفتاح » مما جعله يعصي اوامري في بادىء الامر – والاطباء كذلك فانهم يعصون الاوامر في بادىء الامر – وحين ذلك وضعت النقط على الحروف قائلة : « يجب عليك ان تعطيني خراطيشك أيضاً » ، لان اول شيء يجب عليك عمله في كل مرة تتزوجين بهـا بعسكري هو ان تجرديه من خراطيشه لأن هؤلاء الناس لايعرفون سوى التدمير بالسلاح الناري، اما الحب، ماذا تريدين ، انه ليس الا ناحية صغيرة من حياتهم فقط واحسن طريقة لاستلامهم هي الشدة ، وهي ان تفهمهم فوراً بلباقة قوية مثل العدالة : « كفاك ضحكاً ياصديقي ! » بحيث لن يعودوا لتحدثك عن الحرية وان قصص العواطف والمثل كل يجب ان تنتهي ، وحتى الكولونيل ، وعلى ماهو عليه من رقة الكولونيل اقتنع لوله لدرجة أنه من اجلك فقط ياكستكوتي (نظرة حنان طويلة لابنتها) غدا ذلك الرجل العزيز المسكين اباك (اي انه لو لم تكن حاملاً بابنته لما تزوجها) .

تقفز المعترضة الى مقدمة المسرح

المعترضة

ستوب ! اريد قبل كل شيء ان اريكم ما استطيع ان افعله . وانتم جميعاً تحت امري ! (الممثلون يرتجفون من الخوف) انت يا ارملة الكولونيل عليك ان تستمري في الكلام . ولن يسمعك احد ، ولكن هذه التفاصيل لاتعنيك ، تصوري انه لم يبق امامك سوى ثلاثة ايام لسب الطب والاطباء . ولذلك فان وقتك ثمين عليك . (ارملة الكولونيل تهمهم بغضب بكلام غير مفهوم وبصوت خافت) واما انت ايها الاطرش الشيخ من قاووق كما يقولون ! (الشيخ الاطرش يهز رأسه ، حسناً ! والان تظاهر بالحزن والاسى لانك تفكر بشجيرات التفاح ! هذا لايكفي. دع الالم يبدو على وجهك بصورة اوضح ! لان مظهرك يدل على انك لاتفكر الا بشجرة تفاح واحدة ! الان احسن ! ولكن تعبير وجهك لايدل الا على انسان يفكر بشجرتي تفاح ماتتا من البرد ... هذه المرة اتقنت دورك بصورة جيدة جداً ... هيه ابنتها البنت ! ابنتها الحفيدة ! ديري رأسك وأنعمي

النظر في حبيبك ... لا ! ليس هكذا ! حركي نظراتك ، لقد كتب المؤلف : انها تنظر الى أعماق عينيه بحنان ! صوري في نظراتك شيئاً من الحنان ، يالشيطان ! زيدي تعبير الحنان في نظراتك ! إيضا ! ايضا ! ... وإكثر ! حسنا لقد احسنت دورك الان ! ان هذه النظرة المجنون يجب ان تقنع حبيبك بانك لن تصادري مسدسه ... لقد اجدت تعبير وجهك تقريبا فحافظي على مستوى الحنان هذا الى ان تتلقي امرا جديدا مني . اما حبيبك عامل الكهرباء فوجود ايضا في النص ... ماذا ؟ ايها العاشق الجالس هناك ؟ انه لايبدو على وجهك شيء من الحنان ! ... ارسل اليها الاشعار ! اية اشعار ؟ اقرأ دورك يافهيم إذن ! لقد كتب المؤلف بعض ابيات شعرية ؟ انها ليست واضحة ، أليس كذلك ؟ حسناً ! اكتب :

لاأرى شيئاً يفيد المصلحة مثل ضربي جدتك بالمملحة
علها تتركنا في خلوة في عناق بالهنا والبحبحة

لاتضطرب ! فقد (فبركتها) الان . فاعطها الى هذه الطفلة الحلوة . ببلاهة . لا ! ليس هكذا بل ببلاهة اكثر ! حسنا الان ، والان انت ايتها الطفلة الحلوة عليك ان تقرئي الاشعار وتحمر وجنتاك من الخجل . زيدي وجنتيك احمرارا ... احمري لدرجة ان يرى احمرارك المشاهدون من البلكون الثالث ويفهمون — وهذا ايضا موجود في نصك — ان احمرارا خفيفا يظهر على وجه الحفيدة ... حسنا ! لقد اجدت الان . وهنا يشير المؤلف : انها تطوي ورقة الشعر على اربعة وتضعها في صدرها تحت بلوزها . حسنا جدا ! ... وانت ايتها الكولونيلة ! لقد رأيت كل شيء . لقد كنت تتكلمين ولاحظت فجأة هذه التمثيلة . هكذا ! حسنا ! لقد اجدت التعبير ! . ان عينك تشبه الان عدسة التلسكوب ! ويقول المؤلف يجب ان تشبه عينيك عين السمكة المقلية ! والتعبير واحد تقريبا !

لقد لاحظت اذن تطور غرامها فسقطت بذرة سامة في روحك . استمري في الكلام ولكن يجب ان نشاهد على ملامحك تطور نمو هذه البذرة السامة الى أن تخرج نباتا من الأرض ...

أيها الصهر يجب ان تفكر بينما زوجتك تحلم ! وانت ياصديقة الكولونيلة سيغمى عليك بعد قليل ولكن لاحاجة للاضطراب قبل الاوان . انك لاتعرفين شيئاً بعد ! هكذا ! إبتسمي ! والان الموسيقا العسكرية ! (تعزف الموسيقا عزفا مريعا) ولكن

للحظات فقط ، خمسة اوستة إيقاعات لاأكثر ... ستوب ! (تسكت الموسيقا) اعطوا الصوت لارملة الكولونيل ... انتبهي ايتها الكولونيلة هيا! الى الامام .

ارملة الكولونيل

... كانت بداية قطيعة وكان تعذيبا حقيقيا وانتصارا لعدم التهذيب واية اسئلة لم يسمحوا لانفسهم بالقائها علي ؟ ... سألوني عن عمري مثلا وكأنه لم تر امرأة قبلي سئلت عن عمرها ؛ ولماذا اخفي عمري والنساء اللواتي هن اكبر مني سنا يقفزن على الزوج كما يقفز البؤس على الفقراء وما داموا يحرصون كل الحرص على معرفة عمري : اوه !لا!لا! لقد قلته لهم بصراحة ، وكنت افكر حينئذ بصديقتي العزيزة (نظرة اخلاص لاحدود له لصديقتها) ؛ اني افكر بك دوما ياعزيزتي — كنت افكر بصديقتي المسكينة التي اضاعت عشر سنوات من عمرها اثناء الاحتلال الاجنبي. أتظنون انه من السهل علينا ان نجد نفسنا كل يوم اصغر من الواقع بعشر سنوات ؟ .. — ارجوك بان تاخذي قطعه ثانية من فخذ الدجاجة ياعزيزتي — وهل تظنون انه من السهل على المرء ان يذهب كل يوم الى العمل بينما هو في سن التقاعد وان يكون فوق ذلك مجبرا على الابتسام للناس — نعم ان لك اسنانا كاللؤلؤ يظن من يراها انها طبيعية (لاهيرم) — وكل هذا بسبب العشر سنوات التي ضحيت بها مجانا الى مساعد مفوض الشرطة لقاء كيلو واحد من شحم الخنزير صافي الدسم . وهكذا فاني قلت فوراً الى هؤلاء الاطباء : « ها انتم امام انسان يعرف معنى الالم ، اوه ! لا ! لا ! اي من يحمل صليبه الذي سيصلب عليه بيده . (تقف الصديقة بحركات الانسان الامي ، وبالرغم من الكريم والبودرة والمساحيق تظهر عضلات وجهها المتغضنة وكأنها لوح تشريحي) . ان المسكينة العزيزة مصابة بالنوراستينيا اوضعف الاعصاب بالاضافة الى تضخم الغدة الدرقية في رقبتها والمسامير القطيعة في قدميها لانها تشتري احذيتها اصغر من قدميها بثلاثة ارقام . » (تتلاشى الصديقة رويدا رويدا ، وتغدو عينها كالزجاج ويتجه شبحها المتلاشي تدريجيا والقائم على كعب حذاء كالابرة نحو الباب بخطوات متداعية لامرأة ذكروها بان حذاءها يضغط على قدميها . وترافق الموسيقا العسكرية خروجها بنغم منتصر من (الدو) العليا على المزمار الصغير الى (الدو) السفلى على الكمنجة . وتنظر ارملة الكولونيل الى الكرسي الخالي بخيبة امل من أخيء فهم مزاحه بالرغم من رقته) وفي الحقيقة ان كل الناس يعرفون ذلك لاني ذكرته لهم مرارا قبل الان . وليس هناك مايدعو للغضب وترك المائدة ، وهل تريد هذه البلهاء ان تقنعنا بأنها هبطت مع اخر قطرة مطر من السماء لكي ...

(يقفز المؤلف الى مقدمة المسرح ، وارملة الكولونيل تظل فاتحة فمها وتبقى جلتها فيما بعد .)

المؤلف :

ايها المشاهدون الأعزاء ! يوجد في القاعة باب آخر على يمينكم وباب على يساركم وثالث في مؤخرة القاعة ، وانتم احرار اذا ما شئتم ان تتبعوا الصديقة ايضاً . ولكن لا تفرضوا ان الكاتب المؤلف يستطيع ان يكون حراً كذلك باسم حرية الابـداع . عندنا بالطبع حرياتنـا الصغيرة بالكلام والتفكير والديانة والضمير والاجتماع والنوم والمناقشة وبأن ينتقدنا غـيرنا ، والدفاع الشرعي عن النفس وبالضربات القوية الشرعية وبالخضوع الشرعي ايضاً . غير انه ينقصنا من الحريات اهمها والزمها الا هو حرية ترك بطل من ابطالنا حينما لم نعد نستطيع تحمله . فالمؤلف لا يستطيع ان ينجو حتى من شر الكولونيلة ! فباب اليمين وباب اليسار وباب مؤخرة القاعة مغلقة في وجهه: وهو سجين. ولقد استطاع الطبيب ان يدخل في دور الاحتضار ، والصديقة ان تترك المسرح غاضبة والشابان العاشقان ان يفرا والصهر ان يتوارى . اما المؤلف فلا يملك هذه السبل . واذا ما كان بطله محتالا فعليه ان يرافقه الى السجن ويقاسمه آلامه وامراضه ودموعه وموته ايضاً (ويجب ان يدفنه بعد ذلك !) . وهو الذي يتلقى الصفعات مع الكلمات النابية البذيئة ، ولكنه لا يستطيع ان يلوص من المعركة أبداً ، ولكن هذا هو المنطق الباطل والحقود لمقدورنا .

ارملة الكولونيل:

(تتم جملتها) ... لكي تغضب من التشخيص الذي لم افتأ بترديده برقة سيدة من ارقى سيدات المجتمع وماذا كان علي ان اقوله اناذن ، وقد صدق الكولونيل المسكين فيما كان يقول : ان الحياة حرب اعصاب. ولكنه قد علمني بان اركز دوماً محور جهودي على عقدة داموكليس(١) (اي انها تستعد للشرحق في ايام الهناء (وقد حققت تعلياته هذه، لأني لو كنت مرهفة الأحساس مثل هذه الشريرة لكنت مت ستا وثلاثين مرة قبل (ان يملأوا سجلي المرضي) لأن ذاك الطبيب لم يكتف بمعرفة تاريخ ميلادي بل يريد ان يعرف

---

(١) Damoclés احد افراد حاشية دونيز القديم ملك سيرا قوزه الجبار الذي سلط سيفه على داموكليس المسكين هذا اثناء حفلة عشاء كان المسكين يتذوق فيها اشهى المأكولات والمشروبات ويظن نفسه في منتهى السعادة .

ايضاً مهنتي ، لدرجة اني قلت له : « أرملة كولونيل » فسألني : « وقبل ذلك ؟ » فاجبته « زوجة كولونيل » فعاد يسألني : « وغير الكولونيل ؟.. » فقذفت في وجهه قولي : « مشتركة في التلفون » وحيث ان مظهره كان يدل على انه لم يفهم بعد ، طلبت منه بصراحة ان يكف عن تعريضاته المزعجة وقلت له بالحرف الواحد : اني لم اعرف احداً قط غير الكولونيل اتسمع ما أقول ؟ لم اعرف احداً ! لأن الكولونيل كان كل شيء في حياتي وقبل مهنتي كما كنت انا اكثر من كل شيء في حياته وحتى من فرقته العسكرية وعلى ذكر المهنة عليك ان تقوم بمهنتك لأني مريضة ويجب ان لا يكون بيني وبينك سوى حديث المرض فقط . » وبينما كنت اتكلم انا جاء طبيبان آخران دلالة على ان الأمور ستأخذ بالتعقيد ، ولكنهم لئن كانوا ثلاثة فانا وحدي والنصر يكون دائماً في جانب من يكون وحده كما قال لي الكولونيل في المرة التي تشاجر فيها مع كثيرين وهشمهم تهشيماً لدرجة اني لم اخف ابداً ولم أبال حين اجتمع ثلاثتهم ليقذفوا علي نيران رشاشاتهم بسؤالي من اية الامراض اشتكي ؟؟ فقلت : « من جميعها ! » فسألوني ثانية « من ايها تشكين اكثر من غيرها ؟ » وحينذاك ادركت قصدهم — لأنهم حينما يسألونكم اسئلة مثل هذه فان قصدهم ان يصلوا الى السؤال عن الاعصاب واذا ما تركتموهم يتدخلون بشؤون اعصابكم فستقع مصائبكم فوراً في البحيرة وبرسلونكم تتنزهون في باخرة دون وصفة او معالجة وهم يلقون عليكم : « اعمل حركات رياضية ، عش حياة اكثر تنظيماً واجتنب المنبهات ! . » وقد تتعرض ايضاً لأن ينصحوك بان تغتسل بالماء البارد وعرفت ايضاً من ينصحون بالاشغال اليدوية — وبالاختصار فقد ادركت ، كما كان يقول الكولونيل انه يجب قطع مؤخرة العدو بوضع الالغام في كل الطرق التي يمر بها ، فقلت : عندي كلوة عائمة فشدهوا مما قلت وسألوني قائلين : « كيف ؟ » و « اين هذا ؟ » وغيرها من الاسئلة اللامتناهية . فشرحت لهم بهدوء زائد قائلة : « كان في احدى الجزر صياد تجتاز كلوته كل ليلة بحر البلطيق ، أما أنا فليس الامر خطيراً عندي لهذا الحد » وبما انهم عادوا يريدون التفصيلات فقد وضعت النقط على الحروف قائلة : « ان هذا يرهقني ، وبدلت مكاني ، وبما اني راقبت تطور المرض فاني استطيع أن أقول لكم ان كلوتي تصعد الى الأعلى متبعة سير العمود الفقري منحرفة الى الجهة اليسرى ولكنها تبطىء قليلاً في صعودها اذا لم انتبه ، غير انني في الوقت الذي اقوم فيه بفحص دقيق فان تنقلها يصبح بمعدل خمسين سانتيمتراً في اليوم لدرجة اني شعرت بها يوم اول امس عند مفصل رقبتي مع جمجمتي ولكن هذا حادث استثنائي اذ انها في العادة تعوم في منطقة العنق وتضيق على انفاسي

لدرجة إنها في الحقيقة تعوم كما تشاء » وعلى اثر هذا القول مس احد الاطباء الثلاثة حنجرتي وسألني وهو ينظر الى بياض عيني : « هنـــا تشعرين بالضغط ؟ » فاجبته « في العادة ! نعم ! » فالتفت نحو الآخرين بشكل يريد ان يقنعهم فيـــه بانه عرف المرض وقال : « غلوبوس هيستيريكوس واضحة » ولكني انا كما تروني افهم اليوناني — وقد قالوا لي قبل هذه المرة عن الفلوبوس — وهذه طريقة من طرقهم للتخلص من المرضى — ولكني تبعاً لمبدئي التي لا اسمح به لطبيب ان يدوس على قدمي ، قذفت في وجوههم : « والكبد ؟ اتعرفون ماهو ؟ حسنا ! الكبد هو عضو ! » مما ادهشهم لدرجة تظاهروا فيها بانهم كانوا يعرفون ذلك من قبل. وشرحت لهم ايضاً : « في الكبد يوجد احجارا » فقالوا لي : بعدم مبالاة : « قد يحدث ذلك » وقلت لهم : « انا ، ربما كان عندي شينالاكوك » — في اللاتيني يسمون هكذا بق الكبد وهو حيوان اكبر من الجرثومة بقليل ولكنه لايبلغ حجم (ام الاربعة والاربعين) فقالوا لي « تريدين القول بأنك مصابة بالايشسينالاكوك ؟ » ولكني شعرت بأنهم وصلوا الى غايتهم لأني بعدما رفضت الفلوبوس ، سيكونون مسرورين اذا الصقوا بي بق الكبد، وحينئذ رشقتهم بسهم اسبارطي صلب مثل العدالة قائلة لهم : « لا ! لست انا المصابة ببق الكبد وانما عاشق حفيدتي . » — (وتدير وجهها نحو حفيدتها) انا ، عندي قلب، أليس كذلك ياملفوفتي الصغيرة ؟ اني آخذ امراض الآخرين و كأنها امراضي ولست كهولاء الاطباء الذين يضعون ارجلهم في زهور البكونيا للعواطف ، واني امد يدي انا، واقول: « قبلوها ! » — وعلى ذكر هذا ذكرت لهم قصة عشيقك الحالي ، اوه ! ولكنهم حاولوا ان يقاطعوني ، قليلو الأدب ، غير اني قذفت بوجوههم بأنه يجب عليهم احترام سيـــدة ضعيفة ارملة كولونيل ليس لها من يدافع عنها فقد اضطروا ان يغلقوا افواههم وقصصت عليهم ياملفوفتي الصغيرة كل قصة هذا الشاب المسكين الذي يحبك ويجري وراءك ومعه خمسة عشر مليون بقة كبد (شينالاكوك) في كبده ولايملك فلساً ، لأنك لو فكرت ثانية واحدة لوجدت انه من الفظاعة ان عاملا — تأكدي بأني اعبد العمال حينما لايتجاوزون حدودهم — ولكني لااتصور ابداً ان عامل كهرباء يدور ويدور ويلف حول حفيـــدة كولونيل متناسياً من هو ومن أية بيئة خرج بينما كان عشيقك السابق يستحق الثناء جداً، كان ينام في الثكنة العسكرية لأجل ان يتعلم كيف يمشي واحد ! اثنين ! في نفس الوقت الذي يجب ان استقبل فيه على مائدتي الخمسة عشر مليون من الشينوك لهذا الشاب — ان ! لقد كان الكولونيل على حق في أن يقول : « ان الطيور على اشكالها تقع » — وهذا لايمنع شابا من عائلة محترمة ان يأكل في القصعة ويخوض في الوحل وان يتغذى بالجلبان

المكسر بالرغم من ان له أبا وأما وقلباً يحب ، وافضت يهذا الحديث حتى إن احد الاطباء تنهد وقال : « بسم الله ! » ولكني قذفته بقنبلة من القول : الله غير موجود اذا كان عامل يدخل لبيوت الامر المحترمة ليخضع حفيدة كولونيل وإياكم ان تكلموني عن الحب ولكن بقات الكبد هي التي جعلت دودة الأرض هذه تعشق هذا الكوكب والذنب كله يقع على هذه الايشينتوك بق الكبد الذي هو اصغر من الجراثيم واكبر من ام اربعة واربعين بقليل . واذا كان لابد من المبادلة فاني اقبل بالفلوبوس وحتى بالهستريكوس على ان تخلصوني من عامل الكهرباء هذا .

المعترضة (بادعاء مضحك)

منذ اللحظة التي وصلت فيها ارملة الكولونيل اخيراً لأن نشرح شرحا علميا إيشينوكوك (او بق الكبد) العواطف الشخصية لعامل في معمل كهربائي ، يجب ان يكون دور الحفيدة وعشيقها مستوحى من كل ثروة نصوص تشيكوف وان كان دورهما ليس فيه اي نص . وذلك لمصلحتهما ذاتهما . وفي الواقع كم من المرات ينتقدون كاتب المسرحية الدرامية لأنه يعهد الى الممثلين بحوار مزعج مثلا : « كنت في النادي » — « أنا ذاهب الى المقهى » — « هل تأتي معي ؟ » — « كلا ! اني اشكو من الصداع » — « ماذا تقول ؟ » — « لاشي ! » — « آه ! » . والممثلون لايعرفون ان يجسموا كلمة شكسبير الخالدة : « ان تكون او لا تكون ؟ هذه هي المشكلة » اي انهم لايعرفون كيف يعبرون في وجوههم وحركاتهم ونبرات صوتهم عن كلمات ذات وجوه متعددة وبذلك يقدمون مادة خصبة للنقاد بان يقولوا وهم على حق ، بأن الممثلين لم يستطيعوا ان يبرزوا كل امكانيات النص اللامتناهية وعلى الأخص ، فانهم اثبتوا عدم كفاياتهم في الغوص الى أعماق الردود واظهار اغوارها ، وبالاختصار فانهم لم يقرأوا ادوارهم بل تصفحوها تصفحاً فقط . واخيراً اذا ما كان الكاتب مشهوراً اكثر من الممثلين بقليل فان كل اللوم يقع على هؤلاء الممثلين وحدهم . وبعبارة اخرى يجب عليكم يا اصدقائي ان تمثلوا وانتم على علم بانتظركم أي ان تتصوروا انفسكم انهم اعطوكم نصوصاً من ذهب .

(لقد وقفت حفيدة الكولونيل في الوقت الذي بدأت أرملة الكولونيل تهتم بكبد العاشق ، اما هو فلم يتحرك من مكانه بل كان يصغي لكلامها ، ويبدو انه اهتم بالموضوع في بادىء الامر . تنهره الحفيدة بغضب فلايترك مقعده مرغماً الا حينما علم بمسؤوليته العظيمة بدخول العاشق سلفه في الجندية . تجره الحفيدة نحو الباب ، فيقاوم : ويريد ان لايضيع

شيئا من تشخيص ربة الدار . وحين وصوله الى عتبة الباب تصيح ارملة الكولونيـل : « ماني الله .. الله غير موجود »

وحينئذ تبدأ الموسيقا العسكرية مفرحة وبطيئة . وعلى صوت الصنوج الـتي ترافق إغلاق الباب بشدة تلتفت أرملة الكولونيل وحاجباها بشكل ٨ ثمانية وتتم تعابير وجهها عن الغيظ اولا ثم عن الالم وأخيراً مثل المجانين ، ويجب ان تعبر الموسيقا عن كل هذا بنوع من لحن الفرسان الذي يعلن ان العدو قد ركز قواعده وبدأ ايضاً بنهب مركبات المؤونة . ان حديث المعترضة هذا ينهي سكوت أرملة الكولونيل الطويل وهي تستجمع افكارها) .

ارملة الكولونيـل

... كان ؟ ايضا ! اني اوجـه الحديث إليك ياصهري ! ياعيني على شباب هـذه الايام ! كيف ربيت بنتك ؟ ان تربيتها ليست مـن اختصاص امها طبعا وسيقول لك بيبوتوف كما اقول انا التي عملت كل شيء من اجل هذه الطفلة ، وناضلت كالنمرة لأحميها بنيران مدفعيتي ضد مناورات هـذا الغاوي الخبيث وكنت مستعدة ان اقاوم العدو بمتراس نهدي على الاقدام ، على الحصان او على موكبة تجرها الايدي . (يقف الصهر ويسلم وينصرف ويخرج مغضبا بسرعة تندهش منها زوجته ويبقى فمها مفتوحا من الدهشة نحو ١٥ ثانية ولم يتح للموسيقا ان تعزف الا (كواك) واحدة لترافق خروجه من القاعة . وتصاب ارملة الكولونيل بذهول) تخلص حسن ، كيف يقدر مقاومة الحديدُ من تكون مقاومته اقل من حذاء بال ؟ أرأيتم؟ كنت سأعلمه كل امراضي بصراخ قلب الحكيكة (حقيقة) ولكن حديثي هـذا هو فوق ادراك هذا المسكين ولقد رفع علم الاستسلام الابيض بيد ورفع السواعد الاخرى في الهواء منددا تماما كما فعل هؤلاء الاطباء حينما فتحت لهم اسرار كبدي وبقاتـه وحينئذ قال احد الاطباء لزملائه : « ني هي ليسّسي موم اكّوتوم Nthilissimum Accutum انـه المثال الحقيقي لنيهيليسّموم اكّوتوم » (الى المؤلف) هل لاحظت ياعزيزي انه يوجـد في الواقع كلمات تشعرك فورا برعشة خفيفة وامراض تجد نفسك مستعدا لتجربتها وكأنك تقيس قبعة جديدة ؟ نيهيليسّموم اكّوتوم ... ماذا تريد ؟ انه مرض يعجبني وقلت في نفسي فورا : « هـذا المرض اقبله وقلت ذلك للاطباء الذين اجابوني « تقبلين ماذا ؟ » فأوضحت لهم : « ان يكون عندي نيهيليسموم اكوتوم فأحنى لي احدهم رأسه احتراماً وقال : « ارجوك »

ولكن هل كنت أعرف هذا الكذاب ، هذا المنافق ، هذا السافل ، كان يقدم لي النيليسيام كما يقدمون لطفل بريء لغماً محفوظاً في علبة شوكولاته . وعلى الاخص وانهم كانوا يصرون على تقدمته لي ، هؤلاء النشالون ، في البلوزات البيضاء ! واتفـــق ثلاثتهم بان يقولوا لي : « بما إنك وافقت على النيليسيموم اكتوتوم فلنقف عند هذا التشخيص وسنعمل لك وصفة طبية وعليك إن تتبعي الرجيم ، وان تذهبي في اكثر الاحيـــان الى الهواء الطلق وإن تتجنبي الانفعالات النفسية وان تخففي من التفكير في امراضك . » تارا تاتا ! ان القرد العجوز لا يُعلّم على التكشير ! رأيت انهم للمرة الثالثة يحاولون الوصول الى قصدهم في ايجاد مرض عندي (فسددت بوزي بشيا كه) وبهدوء مثل هدوء يوحنا المعمدان وبصلابة مثل العدالة ، دون تردد ودون ضجه قلت لهم : « لا مكر ولا خداع وبصورة خاصة لا مكر ولا خداع ! فالأطباء لا يعرفون شيئاً ولكني انا اعرف نفسي وإذا ما عرفتم صدفة بان مرضي هو النيليسيموم اكوتوم فان إي انسان لا يسمح لكم الادعاء بانه ليس عندي امراض اخرى ايضاً . » واعطيتهم درساً في الطب تعلموا فيه في ساعة قصيرة من الزمن اكثر مما تعلـــم هؤلاء الحمير في جامعة تارتو Tartu خلال ست سنوات ، لأنني (الى المؤلف) لا اخفي عليك يا صديقي العزيز باني لم اعد املك اعصابي لكثرة ما صعد الخردل الى النفي من جراء لامبالاتهم بالمرضى ، ولكني اعرف جيداً القوانين الدستورية للمريض السوفييتي ، لدرجة انهم حينما حاولوا مقاطعتي اعدت عليهم القول : « لا لا مكر ولا خداع معي ! » وعملت لهم مناورة في خط الجبهـــة وعلى الجانبين دون ان انسى مؤخراتي — لأن الكولونيل كان يقول : يجب ان تتجه العيون دائماً نحو المؤخرات — وقد انسام هذا طعم مكرهم وخداعهم المعتاد وعدت لتعليمهم كل الأعضاء ، الكبد والرئتين والمعدة والمرارة (تلتفت نحو ابنتها) دون ان انسى ياكتكوتتي ، المزاج اللنغاوي الذي لابد معه من ان تسمني واذا ما ازداد وزنك خمسة كيلو غرامات اخرى في هذا العام فان رشيد بيبوتوف لن يقص عليك على شاطىء يالطا ... (الى المؤلف) اني لم اقل لك في الواقع بان ابنتي ذات طبيعة رقيقة جدا (البنت تنظر لامها بغضب بينما الام تحدج ابنتها بشغف) حينما كانت طفلة كانت مصابة بمرض المرتفعات حتى انها كانت تتسلق كل الاشجار وكانت تتألم جداً من مرض التعلق بالنـــاس وكانت اذا ما مرت بساحة النصر وصادفت انساناً تعرفه ، تتمسك به ٢٠ دقيقة بين ازدحام السيارات حتى كاد يدهسها اكثر سائقي السيارات ، وقد اوضحت وضعها للأطباء قائلة : « ان ابنتي هي بالتأكيد ضحية تسرب جرثوم جديد لأنها اغمي عليها مرتين في الشارع وفي المرتين امام رجال لا تعرفهم ولكنهم كانوا في غاية التهذيب حيث اوصلوها الى الدار ، واضف الى هذه الامراض خفقان قلبها

التربيع ومزاجها اللنغاوي وعلى الاخص فان هذه الاعراض تظهر بحضور الشبان من الرجال . انه بالتأكيد مرض وراثي لأني كنت مصابه بمثل هذا المرض حينا كنت في سنها وكانت النتيجة اننا بدأنا نفكر ، وان هذا مضر جدا بالصحة كما قالت مزينة وجبي ، بان الدماغ اصبح وعاء للغرائز الجنسية » وكانت تدل وجوه هؤلاء الحمقى بانهم يسخرون مني قليلا غير اني قذفتها في وجوههم صلبة كالعدالة ، اني لا اقبل التلميحات التي تفسر بشكلين وانهم لن يشتروا لي الصحون حينا تكسر كتكوتتي نصف دزينة منها بسبب مزاجها اللنغاوي (الموسيقا العسكرية تعكس بهدوء حنان الامومة وهدوء الاسرة وذكريات الشباب ؛ وتنهض ابنة الكولونيل وتعبر عيناها عن نظرة لوم حزينة وتتجه بهدوء نحو الباب ؟ والاطرش العجوز يغط في نومه ؛ وفي كل خطوة من خطوات البنت ينحني رأسها قليلا نحو صدرها ؛ وعلى الموسيقا ان تعبر عن هــذا الدور . وارملة الكولونيل تشير الى الباب الذي اغلق وتميل بحنان فوق كتف المؤلف) اني لا استطيع ان افعل شيئاً من اجلهم يا عزيزي الغالي لأن الأقدار شاءت ان تتزوج ابنتي الرصينة في التعبير عن عواطفها واحداً من هؤلاء المجانين الخطرين الذين لا اعصاب لهم وذلك ما يسميه اطباء الأمراض الفعلية انسانا عاديا ، وهذا يعني ان ثلاثة ارباع الانسانية متروكة تتجول بحرية خارج المستشفيات العقلية لانه لا يوجد اي طبيب يهتم بهم . بينما لانعرف حتى قبل خمس دقائق ماذا يمكن ان يفعل هؤلاء المجانين ودون ان يتمكن احد من منعهم مما يريدون ان يفعلوا لأنهم لايعملون الا مايريدون ، فانا مثــلا لم اتوفق ابداً في اثارة غضبه (اي الصهر) ، فما بالك بابنتي المسكينة التي لاتملك تجارب في الحياة اكثر من طفل صغير . فهل تتصور هــذا ؟ والآن وحيث اننا في جلسة اصدقاء فلنتكلم بقلب مفتوح ولنتحدث عن هؤلاء الاطباء . . .

قالى اين وصلت في حديثي عنهم ؟ . آه ! نعم ! . . . ولأجــل الا يكلموني عن اعصابي عددت لهم اذن جميع انواع الامراض التي اعرفها بحيث كانت اعراض كل تلك الامراض تحت تصرفهم ولم يبق عليهم الا ان يختاروا لي الامراض الــتي تناسب امرأة ضعيفة بمستوى ثقافي متوسط ولكنها تحب المطالعة وعلى الاخص مطالعة مايتعلق بالطب. والمرة الوحيدة تكلمت بقدر ما اريد . وتصور ان احــدهم كان لاينفك يمسح جبينه من العرق الذي يغسله . اما الآخران فلو رأيتهما لقلت انهما في حفلة موسيقية سنفونية وكانا يشبهان بشكل غريب الكولونيل ويبدو وكأنه منوم تنويما مغناطيسيا حينما كنت اجره معي الى الحفلات الموسيقية حيث انه كان يعبد الموسيقا لدرجة انه كان يستطيع

ان يستمع ساعات طوال الى فالس شتراوس والى موسيقى اجراس كتيبة الفرسان ، وانتهد من كان يمسح جبينه من العرق ونظر الى ساعته وقال : « الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة ! » ولكنه لم يستطع ان يزيد شيئاً لأني اجبته على الفور ! « ثم ماذا بعد ذلك ؟ » اني لم آت الى هنا لازيل ثالولة (تؤلول) لاني استطيع جيدا ان ازيل التواليل (تآليل) بخيط حرير او حجر يونس (كذا) ولكني اتيت الى هنا لتقولوا لي فقط عن الامراض التي ليست موجودة عندي اذا كنتم جديرين بان تذكروا لي مرضا واحدا لست مصابة به وحينئذ وجد الطبيب الذي كان مكللا بالعرق فجأة (تخفض صوتها) ، ولكني اخجل ان اعيد هـــذا امام الناس ، وصاح بأعلى صوته « ارتشاح في النسيج الخلوي للبروستات » وهذا صحيـــح حقا ولكن ياله من قليل الادب ! وبذلك ادركت اني لم اعد احتمل هؤلاء الاطباء فوضعت حل المشكلة بيدي قائلة كما تراني : لقد اعترفتم انه يوجد عندي مرض نينيليسموس Ninilissimus اكتوكوم Actucum ، وبعد المحاضرة التي سمعتموها اتأمل بأن لا اذهب بهذا المرض فقط » وهذا ما جعلهم فجأة مهذبين حيث اجابوني : « كوني مطمئنة ياعزيزتنا ، ستجدين حالا بعض الامراض » فقلت لهم على الفور : « يجب ان لاتجـــدوا لي امراضاً شائعة يصاب بها عامة الناس بل اتركوا تلك الامراض الشائعة الى مستشفيات القرى لـــ » فقالوا : « اوه ! لا ! ابدا ! كوني مطمئنة » وبعد ان اجتمعوا وتشاوروا اعطوني تشخيصهم : لوغورهيا غرادوس غرافيس Logorrhea-Gradus Gravis وهذا المرض اعجبني لدرجة اني اعدته ثلاث مرات على الاقل لوغورهي غراديس غرافوس . لوغيرس هوس غرافوس غراديس لوغيروس غرادا غرافيس . لاني كنت سعيدة جدا وم كذلك ، انا لاني وجدت مرضا باسم جميل كهذا وم ، لانهم عصابـــة مهرجين وفرسان معامل وجامعو البخشيش وسكيرون لايعرفون شيئا ولاشيء ولاشيء . ولكني لم الاحظ هذا في الحال ، لاني كنت مغمورة بسعادتي وانا اردده في نفسي نيليسيا اكوتيس ولوغـــور"وس غرادوم غرافيس حتى اني خرجت بعد ان شكرتهم جـــدا ونسيت ان آخذ وصفاتي الطبية ، ولو كان الكولونيل حياً كم كان سيفتخر بانهم اعترفـــوا اخيراً بصفاتي الممتازة وكان سيقول حتما قوله المأثور هذا « ان الطيور على اشكالها تقع » والخلاصة (تضع ارملة الكولونيل احد ذراعيها على كتف المؤلف والآخر على كتف الاخرس العجوز النائم ؛ وتعكس الموسيقا العسكرية هذا المشهد المؤثر) . وحينما خرجت من عند الاطباء كنت اشعر بان شايين جميلين النيليسيوم على اليسار واللوغوريا عـــلى اليمين يضع كل

واحــدة منها ذراعه في ذراعي وبضغطات عليها برفق وشعرت بأن ساقي اليمنى تحن الى رقص السوينغ وساقي اليسرى تحن الى رقص التويست وشعرت باستعـادة شبابي لدرجـة صرت أتمتم فيهـا لحن الملاك الازرق ، ودخلت الى المقهى حيث كانت صديقاتي تنتظرنني : فصحن بصوت واحد حبا لاحظن نضارتي وتألقي : « هل ربحت سيارة في اليانصيب : ماهي ماركتها هـل هي الفولكا ؟ » فاجبتهن : « لا ياعزيزاتي ! إنني اللواتي ربحتن ويمكنكن منذ الآن جمع النقود من اجل الزهور فعندي اثنان ! » — « اثنا ماذا ! » قلن لي ، وقالت احداهن ان الاطباء قالوا لها ان طول الحياة يتناسب عكسياً مع محيط الخصر — مسكينة ، ان من يراها يقسم بانها برميل ، ولقد قال عنهـا أحد البائعين في سوق الهال انها إشترت من صيدلية ساحة القصر البلدي وحدها طونين وربع من الحبوب التي تخفف الوزن ولقد كادت تختنق هذه الفيلة من كثرة ما كانت تردد اثنا ماذا؟ اثنا ماذا؟ ، وحينئذ اجبت انا بهدوء وشياكة مثل العدالة هامسة دون تردد: « مرضان اثنان نيهيليسيـوم اكوتسم مع امكانية مضاعفات هذا المرض ، ولوغورهيـا غرادوس غرافيس ، يتفاقم خطره تدريجيا وبعبارة اخرى فاني اقتربت من النهاية » وطلبت قدحاً من الكونياك . وبعد ذلك وخلال اسبوع كامل شعرت باني امرأة اخرى اصغر بثلاثين سنة من عمري الحقيقي ، انتقل من مكان لآخر وأنا بغاية النضارة ظاهراً وباطناً كزر المعطف العسكري اللمع حديثاً ، ولم يعودوا يتحدثون في المقهى الا عن مرضي نيهيليسيموم ناتالوم ولوغوروس غرادوس غرافيس وهذا ما أغاظ صديقاتي حتى اخضر لونهن أكثر من ترعة في بحر كثير الهيجان حيث كان يكفي ان ادخل المقهى حتى يسألني كل الحاضرين « كيف حالك اليوم ايتها الكولونيلة ؟ » ، فكنت اجيبهن بصوت ينم عن وضعي : « ان الهيليسيوم لايزعجني كثيراً ، واما الفوغوريا فانه مهلك » ، فغدت السمينة حزينة جداً من قولي هذا وتمتمت : « يوجـد ولاشك امراض كثيرة فلماذا لايجدون لي ابداً بعضاً منها ؟ » ودامت هذه الحال اسبوعاً كاملاً وفي اسبوع كامل كانوا يسألونني : « كيف حالك اليوم ايتها الكولونيلة ؟ » وأجيبهم : « مع النيهيليسيوم، أستطيـع ان أعيش مئة سنة ولكن اللوغورهيس هو الذي يحطمني » (الى المؤلف) اقترب مني ياعزيزي واسندني جيداً لأنهم في نهاية الاسبوع جاءتني صديقات المقهى برجل طائش حقير من جامعة تارتو Tartu طـالب طب وهو ابن أخي البرميلة التي تستورد حبوب تخفيف الوزن ، وحينما وصلت الى المقهى كان بانتظـاري ألسنة الافعى السامة مع طالب الطب وجعلوني اتكلم امامه عن امراضي واجبتهم بصوت ينم عن وضعي ان النيهليسيموم يتفاقم بسرعة وان اللوغورهوم يزداد خطرا وعلى اثر

قولي هذا نهق ذاك الطالب الحمار فسرّ هؤلاء الشريرات جداً شماتة بي حتى قلت للطالب: « أتجد هذا مضحكاً ؟ » فأجابني : « هل هذه أمراضك حقاً ؟ » فوضعت له النقط على الحروف وقلت : « انها عندي هما الاثنان النيهيليسيموم اكوتوس واللوغوروس غرادوس غرافيس ايضاً ، وكيف تعالجون هذا في جامعة تارتو ، أوضح لي على الأقل كيف تعالجون النيهيليسيموم » فأغرب من الضحك وقال : « ان هذا لايعالج وكيف تريدين معالجة مرض غير موجود ؟ » ان هذا المرض لاوجود له اطلاقاً أتفهمين؟ فصحت بأعلى صوتي: « ان ماتقوله ليس صحيحاً ! ان مرض النيهيليسيموم هو لي وحدي واشعر به يسبح في جميع احشائي مع كاولي اليسرى » وكان يغامرني شعور قوي وكأن السراق قد هاجموني وانتزعوا مني معطفي من الفرو الفيزون واقراطي الثمينة وان هذا الطالب اخذ في ملء جيوبه من اواني الفضية ولم يكتف بهذا بل كان يجب عليه ان يوضح لي ايضاً: «نهيليسيموم اكوتوم يعني (اقصى لاشيء بشكل حاد) ان تشخيص مرضك هو شيء غير موجود والشي غير الموجود لايعالج . » لدرجة قدرت فيها شعور اليابانيين حينما يحصل زلازل ارضية في بلادهم وصرخت صراخاً شديداً من الالم لأني تعودت على هذ المهليسيموم — وكنت احبه كثيراً . وكيف تريد ان لااحبه ؟ — ولكن بقي اللوغوريا ولله الحمد ، وسألت الطالب وقلبي يخفق من الخوف كيف يعالج هذا المرض في جامعة تارتو وعلى الاخص اذا كان غراديس غرافيس ، هل تعرف الانكى من هذا ؟ هو ان هـــذا الباقر لبطون الجثث اجابني : « يجب اجراء عملية تقصر اللسان مقدار سانتمترين بعد التخدير الموضعي ، غير انه يوجد هناك طريقة اخرى ولكنها مع التخدير الموضعي ايضاً ، وهي ان يخيط نصف الفم ، وقد جرب اطباء الامراض العقلية هاتين الطريقتين بعد ان عقدوا اجتماعاً نقابياً ولكن النتيجة كانت فاشلة واللوغوريا مازالت متفشية » فقلت له حينذاك: اما انا فليس عندي اللوغوريا وانما الغرادوس غرافيس » فأجاب ان هذا يعني فقط «الحالة الخطيرة » ، وبعدذلك تداخلت صديقاتي في الحديث وطلبوا . منه « ولكن ماذا تعني كلمة اللولوريا وماذا تعني لولورية كولونيلتنا العزيزة ؟ » فضرب هذا المجرم على فخذيه وهو يشرح لهن : « لوغوريا مشتقة من كلمة يونانية تعني كلاماً ومن اخرى تعني يسيل أي ان هذا المرض هو مرض الناس الذين يتكلمون بلا انقطاع ودون ان يستطيعوا منع انفسهم من الكلام او نوع من الاسهال بقذف الكلمات اذا صح التعبير وحينما تصل خطورة المرض الى الفرادوس غرافيس فان كلمة الاسهال لاتكفي بل .. »

ولفظ ألفاظاً بذيئة لدرجة لاتستطيع امرأة شريفة أن تعيدهـــا ولذلك ذكرته

بأني أرملة كولونيل فاجابني بأن الامراض تمزأ تماماً برتب الازواج وان هذا المرض يصيب بصورة عامة الناس الذين لاعمل لهم – بما في ذلك اكثر المثقفين – وان هذا ليس مؤلماً الا لمن يحيط بهم ، لدرجة انني فقدت الثقة والايمان بالاطباء وفهمت بأن اليابانيين م اشقياء حقاً . ولكن كان يجب ان ترى صديقاتي وكم كن سعيدات حتى كنت تظن انهن اصبن فعلاً بمرض الفوريبوس اللعين ، لوريبوم الى آخر درجة من الاكوتوس ونيفيليسيا بدرجة غراديس غرافوس ، اوه ! لا ! لا ! لو كان الكولونيل حياً الآن لكان القى عليهن على الاقل عدة مدافع ليخرسهن ولكني كنت اشعر بأني اكثر عراء وضعفاً من امرأة الاسكاف العادي حين يوبخها زوجها لمكرها وخداعها ، كذلك ، (تملىء قدحين كبيرين من الكونياك وتقدم واحد منها الى المؤلف) ، لنشرب ! لقد بقي لي على الأقل هذه السعادة في الحياة بأن الاطباء لايعرفون شيئاً وان يعرفوا شيئاً مطلقاً بالرغم من اني محرومة بالطبع من جميع امراضي (تمسح دمعة) كيف لاتريدين ان اكون منهارة الاعصاب؟ ولكن الامل يبقى دائماً ولن يتركني وهو يرفرف مترقباً سفينة الشاطىء البعيد تحمل الف طبيب وأردد دون انقطاع اقوال الشاعر الخالدة : تمسح الكلام وتبتدي من جديد.

تعزف الموسيقا لحناً هادئاً في اللحظة التي تفرغ فيه ارملة الكولونيل كأسها بكأس المؤلف . ويجب ان يكون اللحن بعيداً (كأنه آت من بعيد) في بادىء الامر ، حزيناً مستسلماً ، ويزداد شدة شيئاً فشيئاً ليعبر عن العزم القطعي الذي يحدو بهذه الروح التي لاتعرف الملل لتدبير هجمات جديدة . (ومن شدة الايقاع المتزايد بحماس ، يعرف فيها عشاق الموسيقا انغام ايقاظ المجندين من نومهم وموسيقا تحريضهم على الهجوم ضد العدو وانغام دعوتهم الى الطعام الى اخره ...) ويسلط البروجكتور على ارملة الكولونيل والاطرش العجوز والمؤلف . ويبدو هذا الاخير في غاية الاعياء وكأن كل امراض ارملة الكولونيل غدت من نصيبه .

المؤلف

حينما افكر بأني كتبت هذه المسرحية على شاطىء صغير جبل من شواطىء جزيرة القرم بين البحر الاسود والجبل ! وانا لااعترف بسوى معلمين غيري : طبيبي الذي اقدسه ، وارملة الكولونيل التي اكرهها ويزداد كرهي لها يوماً بعد يوم ، وحينما شعرت باني سأفقد عقلي اختبأت في ظل شجرة سرو وانفجرت باكياً . ولكن اللعينة اكتشفت مخبئي وجلست الى جانبي وبدأت في ازعاجي بصوتها الاجش قائلة : « كف

عن البكاموانته من وصفي » فكفكفت دموعي وانتهيت من وصفها . وانتم ترون النتائج ...

ارملة الكولونيل

هل انتهيت ؟ انسحب بسرعة !

المؤلف

تفضلي باسيدتي بادراك ....

ارملة الكولونيل

اغرب عن وجهي ! من الممكن ان تكون انت قد بعثتني ولكني انا التي اصبح بق ! بق ! بقوق ! ولقد انتهت مملكتك ! والمؤلف هو دائما اكبر سنا من مؤلفاته واذا ما اشتبك في عراك مع ابطاله فانه هو الذي يخسر المعركة دائما فالدنيا الى الشباب ياصديقي والامر لي وليس لك الان . ولن تكفي ارادتك ابدا لتحطيمي : وتأكد باني كنت موجودة قبــل الثورة الفرنسية ولكنها ، ولله الحمد لم تجرفني في تيارها لا هي ولا حتى ثورة اكتوبر (الشيوعية) .

المؤلف

عفوا ياسيدتي ! ولكني انا الذي خلقتك ووضعتك في هذا العالم !

ارملة الكولونيل

انه يجرؤ على التصور بانه فبركني ! لقد تعلقت بي كتعلق (الكامرولا) بذنب الكلب ! والكتاب يخلقون ويموتون كما كان يقول المرحوم ، اما ارامل الكولونيل فانهم باقيات مابقيت الحياة ! واني سأتبعك ياولدي حيث كنت ، لاني مثل السرطان اقاوم كل شي . آه ! لقد وضعتني في هذا العالم ؟ اما انا فسأرسلك الى العالم الآخر ، وسأسلخ جلدك واعيش لازعجكم جميعا . (تهز العجوز الاطرش حتى يستيقظ ويعيد الهز برأسه .) الاطباء لايعرفون شيئا ، عفوا ياعزيزي الدكتور ولكنهم في الحقيقة لايعرفون شيئا ابدا ... ابدا ... اما انا فأرملة كولونيل واعرف حقوق ... حقوق ... حقوق ... اللوغوريا ... رها ... رها ... رها ... رها رها ...

قرع الطبل بشدة
ومارش الانتصار
نور خفيف على المسرح وكأنه في ظلام
متابعة مارش الانتصار
ظلام على المسرح
ينزل الستار على المسرح .

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة — كل أربعة اعداد في مجلد واحد — وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » (وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي — دمشق) مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي او الجوي وفق الطلب .

الفنون

الكتاب والموضوعات

• ديزسو كريزتوري — الموسيقار الهنغاري زولتان كوادلي
ترجمة نواف أبو الهيجاء

الموسيقار الهنغاري زولتان كودالي (١) ZOLTAN KODALY
١٨٨٢ - ١٩٦٧

ديزسو كريزتوري Dezso Kereztury

ترجمة : نواف أبو الهيجاء

نما عمله كما تنمو اشجار السنديان حيث تحفظ حلقاتها السنوية ذكريات ماض تاريخي له أهمية تفوق أهميتها بالذات ... أغصانها تعمق الظلال ولحاؤها السميك الصلب يوحي بالقوة والجلد . صحيح أن مظهره الخارجي لايوحي بالسنديان ولكن شخصه بالذات يحمل طابع القوة الذي يحمله أولئك الذين لهم حياة حافلة غنية . فجسده العظمي الرقيق طوّر طاقته بمرونة لاحدود زمنية لها ... خطواته كانت مترددة الى حد ما حتى أواسط عمره حيث

---

(١) بمناسبة وفاته في آذار (مارس) من هذه السنة

استقر في هدوء الواثق . طريقته في الكلام ، تبتدىء في المناسبة، تتوقف عند جملة مختصرة طويلاً لكي يعطي للسلاسة مجالها حيث يأخذ صوته الهادىء نغمة أخشن . لقد بدا أن الرجل يزداد قوة حتى لحظة موته . كان يزح بأنه يستطيع صعود السلم كل درجتين معـــاً حينما يكون على عجلة من أمره . في السنوات الاخيرة سافر اكثر بما سافر طوال حياته الماضية، فبهر بحديثه الشيق الذكي الساخر كل انسان.

إن اهتماماته الواسعة وثقافته المعتمدة على منابع خارجية واستقامته الثقافية وفعالياته، كل هذا يعود الى حد ما الى تأثير كلية «بوتفوس» في بودابست حيث درس بعد أن أنهى دراسته الثانوية. تأسست كلية بوتفوس عندما كان شاباً ، على نمط مدرسة المعلمين العليا « Ecole Normale Superieure de Paris » ، وطرق تعليمها مستقاة من جامعتي كامبردج واكسفورد. هدفها كان تكوين «الرجل» بأكمله، واسلوبها درجات خلاقة مبدعة تعتمد على المعرفة المتخصصة . وتطور الشخصية المستمر من خلال المناقشة الحرة في سبيل خدمة المثل والمبادىء الانسانية . لقد أنتج الجيل الأول المتخرج من هذه الكلية عـــدداً من المبرزين المنغاربين في الأدب والفن والعلوم والمعرفة .

المثل :

لعل المثل تجسد كله في كودالي . وربما اعتمدت العظمة في قسم منها على الحقيقة القائلة إنه خلال حياته استطاع أن يُسيّر ويروّض نبوغه غير العادي بذلك التمرس على الهدف الثابت . لقد جمع كودالي في شخصه الفنان الخلاق والأديب المنهجي المنسّق . وان النتائج المستخلصة من هذا المزيج هي كنز للجمهور باعتباره كان مربياً ومثقفاً؛ إذ كان كودالي قد كرس حياته من أجل الادب القومي في وطنه.

المؤلف :

يدرس كودالي باعتباره طالباً في كلية يوتفوس آملاً أن يصبح مدرساً في مدارس فرنسا اوهنغاريا الثانوية . وحصل على الدكتوراه في الآداب . وفي الوقت ذاته درس التأليف في أكاديمية بودابست للموسيقى ، كان استاذه « جانوس كوسلر » متحمساً لـ «براهمز» ولكنه كان من النوع الذي يؤمن بوجوب إعطاء الطلبة الموهوبين مجالاً حراً في تطوير شخوصهم . وهؤلاء - وكان من بينهم (بيلا بارتوك) و(وليو ونير) و(زولتان كودالي) وكذلك (إمر كالمان) - هم الذين أحيوا الأوبرا الهنغارية . ففي الوقت الذي كانت فيه الاكاديمية الهنغارية للموسيقى تدرس حسب مدارس براهمز وفاغنر - وكان نفس هذا الذوق والمقاييس تسيطر على مستمعي الموسيقى الهنغارية - تولدت نخبة مثقفة جعلت من العاصمة الهنغارية مركزاً للموسيقى العالمية . أما كودالي فقد عارضهم جميعاً كما عارض الموسيقى الهنغارية « المشبّهة » في ذلك الوقت ، إذ كان يعتقد أنها فقدت كل فائدة وطنية كانت ذات يوم تمتلكها ، وليس لها أي مستقبل . ولربما كان التوجيه الفرنسي في كلية يوتفوس قد ساعد على توجيه اهتمامه شخصياً نحو المؤلفين الفرنسيين الذين عاصروه وبصورة خاصة «ديبوسي Debussy» . ولقد عرف كودالي هذا الرائد الموسيقي الحديث شخصياً ، اذ كانت مؤلفاته الموسيقية الهامة تتبع خطوات المؤلف الافرنسي . واقد كتب دراسة عن الموسيقار تعتبر من افضل ما كتب في الهنغارية عن ديبوسي . كل هذا ، على الرغم من أنه قدم مؤلفات ممتازة ، لم يكن سوى البداية . لقد عمل كودالي مع معاصريه الآخرين على البحث عن المصادر التي من شأنها بعث وتجدد الموسيقى الهنغارية ولقد وجدها وعند ذاك وجد نفسه .

وحتى «ليست Liszt» ، وإلى نهاية اعماله ، لم يكن راضياً اومقتنعاً بالموسيقى

المنغارية الكاذبة – ذات الاسلوب الشائع في القرن التاسع عشر . ولقد اختار جيل كودالي، معارضة هذا التراث لفترة طويلة . وبعد أن قووا ووسعوا الجهود الاولى لجامعي الموسيقى الشعبية ، تعمقوا في بحوثهم لايجاد اقدم لبنة في الموسيقى الشعبية المنغارية . لقد كان عالم الموسيقى قديماً لقرون عديدة وظل حياً في القرى المنغارية – في طبقة المجتمع المنغاري – يغوص في الاعماق، ويشذبه فقر هذا المجتمع .

اختزنت ذاكرة الشعب هذه الالحان، دون ان ينالها الفناء، بل قوية وصلبة . وفي هذا العالم من الموسيقى سار المؤلفون المنغاريون المحدثون امثال (فينر) و(بارتوك) و(كودالي). وهكذا بدأ بارتوك وكودالي يجوبان مقاطعة بعد اخرى من اجل هذه الموسيقى الشعبية ، ومن ثم الى الاقطار القريبة ، بل وحتى البعيدة التي تبدو اغانيها ذات صلة بالموسيقى المنغارية . لقد أكد كل منهما هذا وأصر عليه ليجمع او ليعرف المواد الموسيقية ويستخدم موضوعاتها . وعلى هذا وجب ان يذهب المرء بنفسه الى المكان الحقيقي حيث تغنى الالحان ... حيث تكون الموسيقى جزءاً لا ينفصل من ادوات التعبير ، بل هي زخرفة حياة الناس .

هذه الرحلات كانت ذات تأثير كبير في تطوير كل منهما . لقد فهما بأن الموسيقى هي صوت المجموعات البشرية ، وبأن الفنان الاصيل هو الذي يجسد روح وآمال وآلام مجتمعه . ولقد لعبت دورها في اتجاههم للانضمام إلى مجموعة الجناح، اليساري المثقف الذي كان في بداية القرن يطـــالب بالاصلاح الاجتماعي والسياسي والفكري ، والذي كان ، وبضمنه بارتوك وكودالي ، موضع هجوم دائم وتميز من المحافظين في ذلك الوقت .

ان تجربة الناس الذين تكون الاغنية تعبيراً طبيعياً عن حياتهم كان لها الاثر الاعمق في تطور كودالي بصورة خاصة . فالاغاني التي ألفها كانت في الحقيقة

اول اعمال ناجحة واصيلة له ، وبصورة خاصة اعمـــاله الكورالية المكتوبة للاطفال ولجوقة الناشئين ، حيث قدم الحاناً شعبية في دنيا الموسيقى الكوراليـة الكلاسيكية . لقد استعمل نفس طريقة الموضوع القـــديم في محاولاته الاولى للاوبرا : الاوبرا الشعبية (هـاري جانوس Hary Janos والغرفـــة الدوارة The Spinning Room) ، ضاماً اليها اغنية من الاغاني الشعبية القديمة . والجمع ذاته مابين المواضيع القديمة وبين الاغاني ذات الموسيقى الشعبية القديمة التي استعملت في جميع المصادر الحـــديثة للموسيقى المكتوبة دخلت موسيقاه الكنسيّة مثل (عيسى والمرابين) و (تي دويم البدفاري Te Deum of Budavár) وغيرها ، و (القداس القصير Missa Brevis) .

ولكن لنتجنب الخطأ . فكودالي لم يكن « فقط » جامعاً ومرضباً للموسيقى الشعبية . لقد ألف عشرات الاعمال التي تضم علامات معينة تعود الى ولع المؤلف القـديم بالاغنية الشعبية المتغاربة . فبالاضافة الى عدد من الاعمـال الكورالية الكنسية الجميلة ، كتب سلسلة رباعيات ؛ مقطوعات مشتركة للبيانو والتشيلو (Cello) ، ومقطوعات خاصة بالبيانو ، وأغاني للأور كسترا وغيرها وكل هذه كانت ذات روح اصيلة تماماً . وفوق هذا لم يكتشف اصول ومنابع الاغنية الشعبية فحسب بل جدد وشذب اكثر المصادر الشعبية عامة ، في ألحان « رقصات ماروزيك » و « رقصات جالانتا » و « تحولات الطـاووس Peacock Variations » حيث تمتزج الاغاني الشعبية القديمة بأغـان كثيبة حلوة من موسيقى القرن التاسع عشر الفربنكوسية « Verbunkos » .

وحتى هذا الحين لم يكن كودالي غير واحد من مجموعة من الملحنين الذين يستعملون في موضوعاتهم الموسيقى الشعبيـة ليعطوا شيئاً من التجدد للموسيقى الاوروبيـة . لقد أصبح كودالي موسيقيا يرى في نفسه رجلاً يجسد آمال وآلام

شعبه . في أعماله المؤثرة جداً بعيد الكورس والاوركسترا قوامها ، يرددان صدى الصوت المأساوي للماضي ، حيث تمتزج بالافئدة الغاضبة الحية كما في « مقطع النداء السريني Zrinyi's Appeal » و « المزامير الهنغارية Psalmus Hungaricus » .

الادب :

لقد استطاع كودالي الفنان أن يعتمد على كودالي الاديب دائماً : العمل الدؤوب المخطط مع حلقة هائلة من المعرفة في متناول يده . كان أول موضوع بحثه في الموسيقى الشعبية الهنغارية أن قام هو وبارتوك بجمع مجلد كبير عن مادة الموسيقى الشعبية . لقد استفاد من كل خطية ممكنة حديثة — منذ المسجلات الاسطوانية البدائية التي كانت في أيام شبابه وحتى أحدث أنواع اشرطة الصوت التي وجدت في شيخوخته ، وكذلك جميع أنواع الآلات والمواد الأدبية وأدوات التصنيف التي أعدت في البحث الفولكلوري — الشعبي — فلقد درب هو وبارتوك معاً الطلاب الباحثين الشباب وعلما فريقاً من المتخصصين الذين لحضوا وكانوا أعمالهما منقذين بذلك ، وفي اللحظة الأخيرة ، البقايا الباقية من كنوز الموسيقى الشعبية الهنغارية قبل ان تختفي . كان الجمع والتسجيل بالطبع أول بداية العمل . ثم تبعه أيضاً عمل : الوصف ، الضبط ، الدراسة المقارنة ، تصنيف وترتيب المادة : عمل يتطلب معرفة شاملة وإحاطة تامة بالمادة . لقد صرفت سنوات طويلة من أجل إعداد « مجموعة الموسيقى الشعبية الهنغارية » المطبعة .

غادر بارتوك هنغاريا إلى الولايات المتحدة بسبب الضغط النازي في هنغاريا ، ومات هناك . وهكذا تركت اللمسة الأخيرة والمقدمة لكودالي وحده . رتب المادة حسب ما هو متعارف عليه في العالم في بحث الفن الشعبي ، ولكن —

وكم كان هذا فكرة خاصة به ـ جمعها تحت عناوين وظائف خاصة تحت : أيام البطالة ـ ومظاهر الحياة الشعبية الأخرى ، وأبواب أخرى : كأغاني الاطفال ، واغاني الزواج ، المراثي .. الخ . وكنتيجة لهذا أصبحت المادة لا تلائم الاشكال الموسيقية فحسب بل ذات صبغة شعبية خالصة ، توضح مناسبات ومشاهد في حياة الناس . كانت صفحة كودالي الأولى حول تركيب الاغنية الشعبية الهنغارية ، اذ ظل النقد التحليلي والتصنيف للموسيقى الشعبية الهنغارية يحوز على اهتمامه طوال حياته . ترجمت أعماله عن الأغنية الشعبية الهنغارية إلى عدة لغات ، واعتمدت كمصدر للباحثين ، وكانت الأولى تضم جميع الأسس المفيدة للموضوع توضحها بأفق بعيد . في مقالة لعلامة أكد أن تاريخ الموسيقى الهنغارية وموسيقى اوربا الشرقية والشرق الاوسط والشرق لايمكن ان تكتب دونما بحث عن الموسيقى الشعبية للمنطقة في هذه الآداب الشفهية ، والتي تقدم بقايا الموسيقى القديمة بواسطة كلمة الفم ، تؤلف الموسيقى الشعبية المصدر الرئيسي لتاريخ الموسيقى .

وهذا لا يعني أنه تجاهل البحث عن تاريخ الموسيقى الأدبية في هنغاريا . لقد عمل بموجب عدد من المشاكل تتعلق بالموسيقى الادبية ، قديمة كانت أو حديثة ، لاسيما فترة المحادثة الصوتية الهنغارية في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر عندما كان الشعر الهنغاري في عصره الذهبي ـ فترة جانوس آراني ـ الذي كانت مداركه الأدبية كمدارك كودالي في مزج العنصرين القومي والشعبي .

وعندما ظهرت ـ قبل سنوات ـ مجموعة أوراق ومقالات ومخطوطات كودالي مطبوعة كان أبرز ما فيها أجوبة على اسئلة اخذت حيزاً كبيراً ، تتعلق بسياسة الموسيقى والتعليم الموسيقي ، لقد وضحت هذه المجموعة ، حتى لأولئك الذين لا يعرفون الكثير ، أنه في خلال النصف الثاني من فترة عمله ، اتجه كودالي

نحو جميع مشكلات الاهداف ، والطرق والتنظيمات العملية للتعليم الموسيقي في هنغاريا . كانت هذه الفترة موعد ظهور مساعداته ذات الافق الواسع في بعث تعلم الموسيقى ، تلك المساعدات التي غيرت اساليب تدريس الموسيقى في جميع أنحاء العالم .

المثقف :

أعطت كلية بوتفوس كودالي التدريب الكافي ليكون مدرساً في المدارس الثانوية ، ثم أصبح استاذاً في أكادمية الموسيقى . ان تلامذته يذكرونه كأستاذ اعطى الكثير وطلب الكثير . فبعد أن أخذ كرسياً في التأليف هناك ، نقل أهداف وطرق كلية بوتفوس الى الاكادمية . لقد طلب الدقة ذاتها والأفق الواسع نفسه في الاهتمام والشغف بالبحث من تلامذته ومن نفسه ، ما كان جميلاً كان صعباً : ان معرفة اشكال التعبير والتراث العظيم الموسيقي لا تتطلب اكثر من اساس للصمود وروح للمثابرة لتطوير قابليتهم الذهنية . كان استاذاً مدهشاً وهذا ما يعرفه تلامذته المعروفون عالميـــاً ، امثال ماتياس سيبر ، انتال دوراتي ، جيزا فريد ، ساندروز فيوس ، تيبر سيرلي وبال جاروانيي ، الذين أصلحوا الحيـــاة الموسيقية في هنغاريا . فلقد كان الأول الذي طور الاساوب والذي قرن « النوتة » المستعملة في تآليف جيلين او ثلاثة ، وهي بالاضافة الى عمله في تدريس النخبة الموسيقية فلقد وجه اكثر الاهتمام نحو مشاكل تعليم الموسيقى الشعبية . قبل بضع سنوات ظهرت سمفونيته الأولى والأخيرة للمرة الأولى . قال إن العمل في الحقيقة أنجز لمخطوط كان نصف مكتمل قبل ثلاثين عاماً . ولما سئل لماذا انتظر كل هذا الوقت ليقدمها قال : « لقد كنت مشغولاً بطريقة أو بأخرى ، كان علي أن أعلم مستمعين ! » .

كان تعليم الموسيقى في المستوى الشعبي مهملاً تماماً في هنغاريا حتى بعد أن أصبح كودالي في أواسط عمره . كانت المدرسة الموسيقية مخصصة لتعليم النخبة المثقفة على نهج روح الموسيقى الألمانية المعاصرة . إن الغالبية العظمى من الشعب الهنغاري نضجت ، وهي لا تعرف شيئاً عن موسيقى الوطن الأم ، او في الحقيقة، لا تعرف شيئاً عن أي موسيقى أخرى .

لقــد تطلب الاصلاح ، والتطـور في تعليم الموسيقى للشعب مجهودات فكرية جبارة . أول خطوة مطلوبة كانت أن تجعل الموسيقى مادة اجبارية في كل مدرسة في القطر ، أو أن تنظم طرق تعليم الغناء على المستوى ذاته المتبع في تدريس القراءة والكتابة واللغة الأم ، وتعليم التلاميذ الصغار الأغاني الشعبية الهنغارية وأعمــال المؤلفين الكلاسيكيين بحيث تلائم هؤلاء التلاميذ .

في افتتاح مركز ثقافي في إحدى القرى الكبيرة قبل موته بعدة اشهر قال كودالي في خطابه :

« في النصف الأول من حياتي ، وبعد أربعين عاماً من الالتصاق بقرى القطر اقتنعت بأن شعب القطر الهنغاري حتى آخر طفل مزارع ، مهيأ للفهم كابناء أي شعب آخر ، يجب فقط ان يعلموا ، وأن يعطوا الفرصة ليطوروا مداركهم . بعــد عام ١٩٤٥ بدأنا بحماسة متزايدة نعمل شيئاً في حقل تعليم الموسيقى عندنا .. ذلك الحقل الذي يبدو محدوداً ولكنه هام .. عملنا شيئاً لم يعمل من قبل . كان الكفاح شاقاً ، ولكننا انجزنا شيئاً ، وما انجزناه هو اننا في هذا اليوم نشهد اكثر من مائة مدرسة في القطر كهذه المدرسة التي نفتتحها اليوم في القرية حيث يتعلم التلاميذ لغة الموسيقى مبتدئين في سن السادسة . وهذه المدارس

الموسيقية برهنت على أن المسألة بسيطة للغاية. ان الموسيقى تؤلف جزءاً اساسياً من الثقافة البشرية. ليس هنالك رجل متعلم دون أن يعرف شيئاً عن الموسيقى لذا كان طبيعياً أن تصبح الموسيقى مادة تدرس هنـــا ، وكانت حتمية. ولقد اتضح في المدارس التي تكون فيها الموسيقى مادة اجبارية، ان الطلاب يقبلون على تعلم بقية المواد بسهولة وبشمول. ليس هذا عملاً سحرياً ولكنه ببساطة فعل الوقت القليل الذي يصرف مع الموسيقى يومياً – ينعش الذهن إلى حد أنه يتقبل أي شيء آخر. عندما يكون عندنا ألف مدرسة بدلاً من المائة الحالية سيوجد المخلص الذي لن يضع مؤسسة من هذا النوع في مصاف الاحلام، ولكن حقيقة بدون مواربة ».

هذه الكلمات والجهد الذي سكبت به توضح فهم هذا الرجل الذي كرس حياته للشعب الذي جاء منه. إن الاغنية الشعبية لغة الوطن الأم الموسيقية يجب ان تبعث من جديد بصفتها الأساس الحي لتراث الأمة. وهذا مايشغل الآن سياسة الدولة التعليمية.

« الموسيقى لكل فرد » كان عنوان إحدى مقالات كودالي حول السياسة التعليمية في المجلد الذي جمعه.

« شعب يغني » كانت هي الأمنية في رأسه .. الشعب الذي أصبح واعياً أنه أمة على الأقل. ولقد أخذ عجينة مادته من هذا الشعب.

الهنغاري والاوربي :

إن اخبار موته المفاجيء اذهلتنا جميعاً. لقد وقف قادة الفكر والسياسة الهنغاريون حراساًلنعشه وخلفهم شعب حزين اصطف في خط يريد ان يلقي احترامات

الأخيرة. محبو الموسيقى والموسيقيون في جميع انحاء العالم شاركوا المنغاريين أحزانهم. لقد كتبت كلمات الرثاء والمشاركة العاطفية في معظم المجلات والدوريات. "ذكر كودالي لا كمؤلف مبدع ومثقف واديب فقط، بل وكأحد عظماء عصره. لقد وُلد في السنة التي مات فيها جانوس آراني الشاعر المنغاري العظيم. ولم يحدث هذا ليؤكد نظرية معتقدي التقمص وانما ليوضح نوعاً من الاستمرار لأن كودالي قدم شيئاً للموسيقى المنغارية قريباً جداً لما قدمه آراني للشعب المنغاري. فلقد أخذ المقطوعات الغنائية القديمة للشعب كأساس للموسيقى المؤلفة وبأهمية وشمول قوميين، وشملت كل مايستطيع استعماله من انجازات المنغاريين الذين سبقوه ومن الكلاسيك من دون ان تكون مشتقة او صوفية. لقد طبع عليها استقلال العبقرية الخلاقة..

آمن كودالي، كما آمن اراني، بروح هردر بأن التعليم القومي يمكن ان ينضج ويتطور من خلال التطور والنمو الدائم في عقل الشعب. وهذه إشارة توضح كيف ان عمل كودالي يمثل أحد الانطباعات الأخيرة من الرومانسية الوطنية المنغارية، فيها المشهد الأخلاقي لرومانسيته التي تعتقد في تطلعها أن الأهمية الرئيسية والوطنية هي أن تكون جزءاً منها لكي تبني في ثقافة الانسانية ككل. لقد تحقق كودالي من وجود فوائد عالمية في الاغنية الشعبية العادية من خلال عمله المتميز بالعبقرية وسار في كليهما بصلابة. « إن الثقافة المنغارية هي الصراع الابدي بين التراث وبين الثقافة الغربية، يمكن ان ينتهي هذا الصراع فقط إذا ماتطورت ثقافات الشعوب حسب قوانينها، الى ثقافة عالية ». كتب هذا في اوج عمله وأضاف بأن ثقافة منغارية عالية تكون اوربية حينما تصبح ذات جدوى عالمية فقط. لقد اختزل بنفسه المسافات مابين الاقطار ضاماً

بساطة الفوغل Vogul ، أو التاتار او المجر الى النغمة المحكمة المعقدة لموسيقار مثل باليسترينا Palestrina . بيد واحدة امسك يد طفل قروي وبالأخرى قبض على يد باخ Bach . وهكذا انتهت حياة طويلة ناضجة . كان موت كودالي نهاية لحياة دامت ردحاً طويلاً من الزمن . روحاً طيبة . حياة ، مضغوطة – مهزوزة معاً .. ومن ثم ممتازة ، وختمت بسعادة الانجاز . ماذا غير هذه النهاية يمكن ان نتمنى له؟ ماذا يمكن ان نتمنى لانفسنا أفضل من الإلهام الذي كان من نصيبه؟.

سلسلة
كتب قومية

تصدر عن وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، سلسلة «كتب قومية» تهدف الى اغناء ثقافة المواطن العربي بالبحوث التي تمس اهم شؤونه ومرافقه، ومشاغله الفكرية والقومية، وتوزع بأسعار زهيدة رغبة في تعميم الفائدة منها، وتحقيقاً لهدف اساسي من اهداف الوزارة.

وفيما يلي بعض البحوث التي صدرت في هذه السلسلة الجديدة:

التسيير الذاتي والتجربة اليوغسلافية للدكتور صلاح وزان
« صدر في الحلقة الاولى »

التخطيط الاشتراكي للدكتور عبد الله عبد الدايم
« صدر في الحلقة الثانية »

المغتربون العرب في امريكا الشمالية للدكتور جورج طعمة
« صدر في الحلقة الثالثة »

القومية العربية في القرن التاسع عشر للدكتور توفيق برو
« صدر في الحلقة الرابعة »

الفن والقومية للدكتور عفيف بهنسي
« صدر في الحلقة الخامسة »

الموقع الاستراتيجي العربي لهيثم الكيلاني
« صدر في الحلقة السادسة »

الاشتراكية في البلدان المتخلفة لمحمد الجندي
« صدر في الحلقة السابعة »

التحويل الاشتراكي الزراعي في سورية لأحمد محمد الزعبي
« صدر في الحلقة الثامنة »

كيف نكتب تاريخنا القومي تحقيق مجلة المعرفة
« صدر في الحلقة التاسعة »

التنمية الاقتصادية لعبد الله مكسور
« صدر في الحلقة العاشرة »

كتاب المعرفة

الاقتصاد السياسي للتنمية — د. صلاح وزان

مقابلات المعرفة

مع الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي — ممدوح عدوان

في المكتبة العربية

- تهذيب الأخلاق — عبد المعين الملوحي
- مدريد العربية — ظافر عبد الواحد

مجلة المجلات

- كيف نواجه اسرائيل بعد العدوان
- قضية فلسطين وامكانات الحل السياسي — هشام الدجاني
- غويفارا — ابن محمد ترجمة ا. ل.
- لماذا يكره الناس الاموريكيين — أوريانا فالاتشي ترجمة دلال حاتم

اخبار ثقافية

كتاب المعرفة

الاقتصاد السياسي للتنمية

تأليف: پول باران

عرض وتحليل: د. صلاح وزان

بول باران ، واحد من كبار اساتذة الاقتصاد الاشتراكيين، وهو من الغربيين القلائل الذين ساهموا مساهمة جديدة في اغنـــاء الفكر الاقتصادي الاشتراكي ، واضافوا الى التراث النظري الذي يتصدى لقضايا النمـــو الاقتصادي والاجتماعي معلومات على غاية من الأهمية .

وكتاب « الاقتصاد السياسي للتنمية » الذي نحن بصدده ، صدر منذ حوالي عشر سنوات ، واعيد طبعه للمرة الثانية عام ١٩٦٢ باللغة الانكليزية حيث ترجم الى عدد من اللغات منها الفرنسية والالمانية والعربية (١) .

وللكتاب اهمية علمية بالغة وخصوصاً بالنسبة للبلدان المتخلفة؛ ذلك لانه يبحث في قضايا التنمية باسلوب تحليلي عميق . انه يتعرض لقضايا النمو الاقتصادي في كل من البلدان الاستعمارية الامبريالية « المتقدمـــة » والبلدان « المتخلفة » ، ويكشف عن العوامل التاريخية التي ادت الى تقدم الاولى وتخلف الثانية . كما انه يفضح العلاقة الاستغلالية التي كانت (ولا تزال الى حد كبير) قائمة بين ازدهار بعض اجزاء هـــذا العالم وانهاك بعضه الآخر ، ويوضح كيف ان تقدم هذا « البعض » يعلل تخلف « البعض » الآخر . انه النهب الاستعماري بكافـــة صوره واشكاله ، وفي مختلف مراحله ، يكون العامل الحاسم الذي وفّر الشروط اللازمة للنمو في البلدان المتقدمة وسبّب التخلف في البلدان المتأخرة . فالسيطرة الرأسمالية الاحتكارية الامبريالية في البلاد المتقدمـــة والتأخر الاقتصادي والاجتماعي في البلاد المتخلفة ، هما على

(١) ظهرت مؤخراً ترجمة عربية لهذا الكتاب بعنوان : الاقتصاد السياسي والتنمية ، ترجمة احمد فؤاد بلبع ، مراجعة الدكتور حامد ربيع – سلسلة الالف كتاب – القاهرة ١٩٦٧
اما الترجمة الفرنسية للكتاب فقد صدرت منذ شهور قليلة فقط – بعنوان :
Paul Baran - Economie Politique de la Croissance - Editions Maspero - Paris: 1967

اوثق رباط ، ولا يمثلان سوى جانبين مختلفين لما هو في الواقع مشكلة عامة واحدة . وهذا مايجعل من الامبريالية المعاصرة العدو الطبيعي لكل مبادرة اصيلة تتخذها البلدان المتخلفة لتنمية اقتصادياتها .

ان العمود الفقري لنظرية باران عن التنمية ، يتجسد في مفهوم الفائض الاقتصادي . وهكذا يتوقف معدل التنمية واتجاهها في بلدما، وفي فترة معينة، على حجم هذا الفائض الاقتصادي وعلى طريقة استخدامه بآن معاً. ومن هنا فان مهمة فهم العوامل المسؤولة عن حجم وطريقة تكوين واستخدام هذا الفائض تأتي في طليعة مهام اية نظرية عن التنمية الاقتصادية . وهذا بدوره (اساوب توليد الفائض الاقتصادي وحجمه وطرق استخدامه) يتعلق بدرجة تطور القوى الانتاجية وبالبنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة في المجتمع. ومالم يتم تبديد البنى الاقتصادية الاجتماعية الفاسدة ، والاستعاضة عنها ببنى وعلاقات جديدة ومتطورة ، فان العقبات الاساسية في وجه انطلاقة انمائية جذرية وسريعة ، ستبقى قائمة .

* * *

وللفائض الاقتصادي، بمفهوم المؤلف، اشكال مختلفة :

ـ فالفائض الاقتصادي الفعلي (Surplus économique effectif) في مجتمع ما يتكون من الفرق بين الانتاج الفعلي الجاري وبين الاستهلاك الفعلي الجاري لهذا المجتمع.

ـ والفائض الاقتصادي الاحتمالي (Surplus économique potentiel) عبارة عن الفرق بين الانتاج الذي يمكن تحقيقه من مجموعة معينة من الموارد التكنولوجية والطبيعية وبين مايمكن تسميته « بالاستهلاك الحيوي » أو الاستهلاك الضروري . وللفائض بهذا المعنى أهمية كبرى تساعد على تفهم اللامعقولية التي تشكل إحدى السمات البارزة للنظام الرأسمالي .

— اما الفائض الاقتصادي المخطط (Surplus économique planifié) فانه يمثل الفرق بين انتاج « امثل » يمكن تحقيقه في فترة تاريخية معينة وفي اطار طبيعي وتكنولوجي مخطط على اساس الاستخدام « الامثل » للموارد الانتاجية المتاحة ، وبين حجم « امثل » للاستهلاك يتم اختياره وتحديده بصورة ارادية (١)

ويختلف مضمون وشكل كلمة «الامثل» في مجتمع مخطط اختلافاً اساسياً عن معنى هذه الكلمة في الادب البورجوازي انهـا في مجتمع مخطط ، لا تعكس صورة للانتاج والاستهلاك تحددهما اعتبارات الربح والاذواق وتوزيع الدخل والضغوط الاجتماعية السائدة في نظام بورجوازي ، وانما تعبر عن تقدير مدروس لمجتمع اشتراكي يوجهه العلم والعقل .

* * *

ويستعرض المؤلف **تطور حجم واستخدام الفائض الاقتصادي خلال المراحل التاريخية المختلفة** . ويوضح باسلوب تحليلي خلاّب كيف ان الانتقال من الاقطاع الى الرأسمالية كان يمثل تغيراً جذرياً في اسلوب استخراج الفائض الاقتصادي وفي حجمه وطريقة استخدامه . ففي عهد الرأسمالية التنافسية ازداد حجم الفائض الاقتصادي المتوفر وازداد استخدامه عقلانية ورشداً . لماذا ؟

١ — لأن التبذير والتبديد للحاشية

(١) شارل بتلهايم ، في كتابه « التخطيط والتنمية المتسارعة » الصادر عام ١٩٦٤ ، يقترح تقسيمات أخرى للفائض الاقتصادي ، ويميز بين ثلاثة أشكال لهذا الفائض :

١ — الفائض الاقتصادي الجاري —Le surplus économique courant

٢ — الفائض الجاري المتاح للتنمية —Le surplus courant disponible pour le developpement

٣ — الفائض المستخدم في التنمية —Le surplus utilisé au développement

راجع :

Charles Beltelheim. Planification et groissance accélérée. François. Maspero. Paris 1964. pp. 100 - 111

الضخمة في بلاط الامراء الاقطاعيين ، والترف الذي كان يغرق فيه اعيان المدن، ولأن ابهة المؤسسات الكهنوتية ، لم تعد تجد المناخ الملائم في ظل النظام التنافسي الجديد لامتصاص وهدر ذلك القسم الكبير من الفائض .

ب ـ لأن الجهاز الحكومي الاقطاعي، الوصولي والفاسد ، والذي كان يعتبر آنذاك اكثر العوامل شراهة في ابتلاع الفائض الاقتصادي سيؤول الى التقلص والانكماش ، ان لم يكن الى الاختفاء النهائي .

جـ ـ لأن المنظمين الأفراد ورجال الاعمال الرأسماليين كانوا يحرصون على التراكم وعلى توسيع مشروعاتهم وتخفيض نفقات انتاجهم وازالة التبديد وعدم المفعولية في اعمالهم الانتاجية . اذ أن ذلك وحده كان يتيح لهم الاستمرار والبقاء داخل حلبة التنافس الضاري الذي لا يرحم .

د ـ لأن النهب الاستعماري كان قد بدأ يلعب دوره الحاسم في تكوين وزيادة حجم الفائض لدى الدول المستعمرة .

وفي فصلين متتاليين ، يبرز الكاتب قسمات المرحلة الاحتكارية «المتقدمة» من التطور الرأسمالي. فاذا كان الانتقال من النظام الاقطاعي الى الرأسمالية التنافسية أدى لا إلى توسع هائل في الفائض الاقتصادي وحسب، وانما أيضاً الى تحويل نصيب كبير منه من الامير الاقطاعي الى رجل الاعمال الرأسمالي ، كذلك نتج عن الانتقال من الرأسمالية التنافسية الى الرأسمالية الاحتكارية زيادة ضخمة في الحجم المطلق للفائض الاقتصادي وانتقال السيطرة عليه من طبقة الرأسماليين الصغار الى حفنة من الشركات العملاقة . ونتيجة لذلك ، كان نمو الاحتكار الفردي واحتكار الاقلية في مرحلة معينة من التطور الرأسمالي يعتبر ظاهرة تقدمية باعتبارها دفعت الانتاجية والعلم شوطاً آخر الى الامام . إلا ان هذه الظاهرة التقدمية نفسها اخذت تتحول الى قوة

رجعية اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً، تعوق وتمنع المزيد من التطور. والواقع، **أنه بالرغم من النمو الضخم للفائض الاقتصادي في ظل الرأسمالية الاحتكارية، فان الجزء المخصص منه للاستثمار الانتاجي يميل الى الركود بل الى التناقص من حيث قيمته النسبية.** وبتعبير آخر فان **الفرق بين الناتج الفعلي والناتج الممكن** يميل الى الزيادة بسبب البطالة، والطاقات غير المستخدمة، وبسبب تبديد قسم كبير من الفائض الاقتصادي في الميادين الاعلانية والسياسية، وفي تكاليف المؤسسات العسكرية «اللازمة» لفرض سياسات معينة في الخارج، ولاعداد وتنظيم حملات الدعاية والتخريب والتجسس في كل المناطق الخاضعة، وفي المناطق «المشكوك في موقفها». لقد ازداد الانفاق غير الانتاجي في ظل الرأسمالية الاحتكارية زيادة مضطردة، كما قلّت نسبة العمال المشتغلين في الحقول الانتاجية بالنسبة لمجموع «العاملين» بصورة ملحوظة (في الولايات المتحدة وفي عام ١٩٢٩ كان يقابل كل ١٠٠ عامل يعملون في انتاج السلع ٧٤ عاملا يعملون في مجالات اخرى. وبحلول عام ١٩٤٩، كان يقابل كل ١٠٠ عامل يعملون في انتاج السلع ١٠٦ من العمال يعملون في مجالات اخرى) وذلك لعدم توفر المنافذ الملائمة للاستثمار الانتاجي للفائض ولاضطرارها الى الاحجام عن هذا النوع من الاستثمار بسبب التناقضات التي تعاني منها الرأسمالية الاحتكارية نفسها. وهذا يعني بأنه، بالرغم من تطور التكنولوجيا الهائل، وبالرغم من نمو الطاقات الخلاقة لدى السكان، فان النظام الرأسمالي الاحتكاري في هذه المرحلة يخلق انتاجاً اقل، وأقل بدرجة كبيرة في اغلب الحالات، مما تتيحه له الطاقات التكنيكية والبشرية والطبيعية الموجودة تحت تصرفه. **اي ان معدلات نموه لا تتصف فقط بانها لاتتمشى مع قدراته الهائلة، بل انها تميل الى التناقص.**

فقد هبطت معدلات نمو الدخل القومي في الولايات المتحدة مثلاً من حوالي ٢٧٪ كل خمس سنوات في بداية مرحلة الرأسمالية الاحتكارية الى حوالي ٩٪ فقط في الجزء الأخير من هذه المرحلة .

* * *

ومع ذلك ، فان عجز المجتمعات الرأسمالية عالية النمو عن استخدام الفائض الاقتصادي الضخم بصورة رشيدة لا يمثل الا جانباً واحداً من الصورة العامة للرأسمالية المعاصرة . أما الجانب الآخر ، الذي لايقل أهمية ودلالة ، فهو ذلك الجزء الكبير من العالم الذي يوصف عادة بأنه متخلف .

فالتخلف يعتبر احد مكونات الرأسمالية المعاصرة واحد نتائجهـــا بآن واحد .

ويتعرض المؤلف لقضية التخلف مبيناً بأن البلاد عالية الدخل والتي لم تكن تشكل من حيث عدد سكانها سوى حوالي ١٨٪ من مجموع سكان العالم في عام ١٩٤٩ كانت تحصل على ٦٧٪ من الدخل العالمي . في حين ان البلدان المتخلفة (المنخفضة الدخل) والتي تضم ما يقارب ثلثي الجنس البشري (٦٧٪ من مجموع سكان العالم) لم تكن تحصل على اكثر من ١٥٪ من الدخل العالمي في العام المذكور (بمعدل ٥٠ — ٦٠ دولاراً سنوياً للفرد الواحد) . والأخطر من ذلــك أن النظرة الدينامكية تشير الى مزيد من التفاوت والتدهور . ان **التفاوت في توزيـــع الدخول بين مختلف الافراد في العالم يميل مع الزمن الى التفاقم بدلاً من ان يتجه نحو الانحسار .**

وهنا يطرح المؤلف السؤال الجوهري التالي :

ما هي اسباب هذا التفاوت المذهل في الدخول بين البلدان المتخلفة والبلدان المتقدمة ؟

لماذا عجزت الدول « الرأسمالية » المتخلفة عن تحقيق معدلات النمو التي حققتها الدول الرأسمالية المتطورة ؟

لماذا كان التقدم بطيئاً في البلدان « الرأسمالية » المتخلفة أو حتى معدوماً ؟ ، وأين تكمن جذور التخلف ؟ ان الاجابة الصحيحة على مثل هذه التساؤلات ، ذات اهمية أساسية . اذ ينبغي على المرء ان يكتشف العوائق التي تحول دون قيام تقدم حقيقي في هذه البلدان ، وان يحاول ان يحدد شكل وطريق التطور الواجب تطبيقهما في المستقبل .

للاجابة على هذه التساؤلات الجوهرية يوضح المؤلف بأنه ينبغي تذكر الظروف التاريخية التي نشأت فيها الرأسمالية في كل من الأجزاء المتقدمة والأجزاء المتخلفة الآن من العالم . فجميع هذه الأجزاء ، المتقدم منها والمتخلف في الوقت الحاضر ، كانت تخضع في مرحلة معينة الى اسلوب انتاجي والى نظام اجتماعي — سياسي يعرف بشكل عام « بالاقطاع » . وبالتأكيد ، فان بنية الاقطاع لم تكن واحدة ومتجانسة في مختلف البلدان ، بل على العكس . الا ان ما يمكن قوله هو ان النظام السابق للرأسمالية ، سواء أكان في اوروبا او في آسيا ، قد دخل عند فترة معينة من تطوره ، في مرحلة من التحلل والتفكك . وبصرف النظر عن درجة وعنف هذا التفكك فقد كان لتلك المرحلة اتجاهها العام ولها قسماتها البارزة التي تجلت في الزيادة البطيئة للانتاج الزراعي ؛ وفي الهجرة من القطاع الزراعي الى القطاعات الأخرى ، وفي بدء انتشار تقسيم العمل ، وفي تراكم رأس المال لدى التجار الرأسماليين الخ ... والحال ، اذا كان النظام السابق الرأسمالية في بلدان اوروبا وآسيا متشابهاً من حيث قسماته واتجاهاته الرئيسية ، فكيف يمكن ان يفسر التفاوت الصارخ بين البلدان الرأسمالية المتقدمة والبلدان الرأسمالية المتخلفة في الوقت الحاضر ؟

نجـد الجواب على ذلك في النهب والاستغلال الاستعماريين بصورهما واشكالها المختلفة ومراحلها المتلاحقة ،

واللذين بدأا مع بداية الغزو الاستعماري منذ مراحله الأولى .

وقد باشرت اوروبا الغربية هـــذا الغزو لمعظم بلدان العـالم نتيجة لتوفر ظروف خاصة مساعدة لها (التراكمات التجارية المركزة، الموقع الجغرافي لاوروبا الغربية الذي منحها امكانية التطور المبكر للملاحة وبالتالي امكانية التوسع في التجارة البحرية والنهرية ، وفقرهـــا في الموارد الطبيعية الخ ...) . ودفعتها هذه الظروف وساعدتها على غزو اجزاء مختلفة من العالم كامريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندا من جانب، وآسيا وافريقيا واوروبا من جانب آخر . واستقر الغزاة في مجموعة البلدان الأولى واستوطنوها، وهي بالتالي لم تتعرض للنهب ولعمليات النزف الاقتصادي التي تعرضت لها مجموعة البلدان الثانية .

في هـــذه المجموعة الثانية (آسيا وافريقيا ..) كانت هناك حضارات غنية وعريقـة . وكانت التنظيمات الاجتماعية القائمة تعيق اي استيطان دائم . ولذلك استقر عزم « الزوار » على استخلاص واغتصاب ونهب اكبر قـدر ممكن من ثروات البلدان المضيفة ونقلها الى القارة الأم تحت ستار التجارة .

وهكذا كانت الثروات تسير في اتجاه واحد من البلدان المغزوّة الى البلدان الغازية مما ادى الى مضاعفة الفائض الاقتصادي المتاح لاوروبا الغربية، ووفر لهـــا بالتالي احد أهم الشروط اللازمة للتطور والتنمية .

وبعد ان يعدد المؤلف صور الاستغلال والنهب المختلفـــة (تصدير المحصولات الى اوروبا الغربية ، استيلاء الاوروبيين الفوري على مساحات واسعة من الاراضي ، ضرب واضعاف الصناعات الحرفية في الدول التي خضعت للغزو عن طريق المنافسة الصناعية ، ارغام البلاد « المضيفة » على تحويل جزء من فائضها الاقتصادي لتحسين المواصلات بانواعهـا بغية تسهيل عمليات نقل الثروات الى اوروبا ، الخ ...) يقدم مثالاً عملياً

لهذا النوع من الاستغلال الرأسمالي المبكر".

فالهند التي تجسد التخلف في الوقت الحاضر، تعتبر كذلك لا لأنها كانت في الماضي الاكثر تخلفاً (حتى القرن الثامن عشر، كانت الحالة الاقتصادية في الهند متقدمة نسبياً. فكانت تصنع وتصدر اجمل وافخر الاقمشة في الوقت الذي كان فيه اسلاف البريطانيين يعيشون حياة بدائية للغاية. اضافة الى ان العنصر الهندي كان يتمتع بمدارك ممتازة وبعقل جلي" وموهبة لدراسة الارقام والعلوم الدقيقة ...) بل لأنها خضعت الى نهب محكم منظم خالي من الرحمة بواسطة رأس المال البريطاني منذ بداية الحكم البريطاني. فخلال فترة ستين عاماً تقريباً (من ١٧٥٧ الى ١٨١٥ وهي فترة ذات اهمية حاسمة بالنسبة لتطور الرأسمالية البريطانية) نهبت بريطانيا من الهند مايتراوح مقداره بين (٥٠٠-١٠٠٠) مليون جنيه استرليني. ويمكن تصور ضخامة هذا المبلغ عندما نعرف ان رأس المال الاجمالي لجميع الشركات المساهمة التي كانت تعمل في الهند في نهاية القرن التاسع عشر، كان في حدود (٢٦) مليون جنيه استرليني. ومع ذلك، فان الاستغلال الاستعماري للهند لم ينعكس على حياتها الاقتصادية فقط، بل انه تعمّد تحطيم اسس المجتمع الهندي نفسه وحرص على ان يُبقي اهالي الهند في احط حالات الظلام عن طريق بث الفرقة وتغذية الخلافات الداخلية وتطبيق سياسة تعليمية على غاية من الخبث.

وهكذا، بلغت كارثة الهند بسبب غزو الرأسمالية البريطانية، ابعاداً مذهلة. **ويقرر المؤلف بدون تردد بأنه لو كان الفائض الاقتصادي الذي انتزعته بريطانيا من الهند (والذي قدر حجمه السنوي في العقود الاولى من القرن الحالي بما يزيد عن ١٠٪ من الدخل القومي الاجمالي للهند) قد استثمر في الهند نفسها، فان وضع**

الهند الاقتصادي اليوم لم يكن ليحمل اي تماثل مع الصورة المظلمة القائمة حالياً في تلك البلاد . ويقارن الاستاذ باران بين وضع الهند واليابان ويتساءل: ماالذي مكّن اليابان مثلاً من تحقيق نهضته وثورته الاقتصادية والصناعية المعروفة ؟ ويوضح بأن الاجابة البسيطة على ذلك ترجع الى حقيقة ان اليابان هو البلد الوحيد في آسيا (وفي افريقيا وامريكا اللاتينية) الذي افلت (لاسباب عديدة يشرحها المؤلف) من التحول الى الى مستعمرة ، اوبلد تابع للرأسمالية الاوروبية او الامريكية، والذي اتيحت له فرصة التطور القومي المستقل .

* * *

ويتابع المؤلف في فصلين آخرين (السادس والسابع) تحليله لاسلوب استخدام الفائض الاقتصادي في البلاد المتخلفة ويوضح كيفية تبديد هذا الفائض وكيفية استمرار الدول الاستعمارية باغتصابه ونهبه بالرغم من اختلاف الوسائل . وهو يفند حجج الاقتصاديين الرأسماليين الذين يدافعون عن « الاستثمارات الاجنبية » وعن « المشروعات الاحتكارية » في الدول المتخلفة ويفضح حقيقة هذه الاستثمارات والمشروعات ويبرز دورها كأداة « عصرية » لاستغلال الدول المتخلفة اقتصادياً ، وكوسيلة لعرقلة وتجميد التطور الاجتماعي والسياسي في البلدان المذكورة ولحماية الائتلاف المتكون من البورجوازية التجارية والاحتكاريين الصناعيين والملاك الطفيليين .

والحقيقة التي يراها المؤلف هو ان القوى التي صاغت مصير العالم المتأخر مازال لها تأثيرها القوي على الظروف السائدة في الوقت الحاضر ، وان كانت هذه القوى قد اتخذت تعمل باقنعة واساليب تختلف في بعض الاحيان عن اساليب القرنين الماضيين .

ويذكّر الاستاذ باران ، بان انتاج البلدان المتخلفة (كما يفهم من كلمة التخلف

نفسها) منخفض ، وهي لا تستخدم من مواردها المادية والبشرية إلا القليل . كما ان النظام الرأسمالي في هذه البلدان، بدلاً من ان يعمل كمحرك للتوسع الاقتصادي والتقدم التكنولوجي والتطور الاجتماعي، فانه يمثل اطـــاراً للركود الاقتصادي والتكنولوجي والتـــأخر الاجتماعي .

فالاقتصاد الزراعي يمثل السمة البارزة لاقتصاديات هذه البلدان ، والانتاج الزراعي بالتالي ، يكوّن نصيباً كبيراً من الناتج القومي في البلاد . وبالرغم من انخفاض الانتاجية الزراعة (انتاجية المساحة وانتاجية الفلاح) ، يحتمل ان يشكل الفائض الاقتصادي الذي يتحقق من الزراعة ، نصف ، وفي بلاد كثيرة اكثر من نصف ، الانتاج العام . وواضح بان اوجه استخدام هذا الجزء الهام جداً من الناتج القومي، يحدد الى درجة كبيرة التطور الاقتصادي في البلدان المتخلفة . الا أن مايحدث من الناحية العملية ، هو ان الجزء الاكبر من هذا الفـــائض لا يستثمر في الميادين الانتاجية . فقسم منه ، يستأثر به اصحاب الاراضي ليبددوه في مباذلهم واستهلاكاتهم الطفيلية المعروفة، وقسم يلتهمه المرابون والتجار الزراعيون، والقسم الآخر يصب في خزينة الدولة . وعلى ذلك ، فبينما يظل نصيب كبير من الفائض الاقتصادي الذي تنتج من الزراعة فائضاً احتمالياً يمكن استخدامه في الاستثمار اذا ماقضي على الاستهلاك المفرط والنفقات المتنوعة غير المنتجة ، فان اي فائض فعلي متوفر ، تمتصه المسام الاقتصادية للمجتمعات المتأخرة ولا يسهم الا بقدر ضئيل وتافه في زيادة الانتاجية .

اما القطاعات الأخرى غير الزراعية (قطاع التجـــار والوسطاء من جميع الانواع والمموِّلين والمرابين) فانه يستحوذ على نصيب كبير من الفائض الاقتصادي الاجمالي الأمة . وبالنظر لكثرة عـدد افراد هذه الطبقة التي تعمل في ميادين التداول ، وبالنظر للمنافسة الضارية بين مختلف فئاتها ، فان متوسط دخل الفرد

منخفض ، الا ان الربح الاجمالي الذي تحصل عليه الطبقة بجملها يصل الى مقادير ضخمة . وان هذه المجموعة الكبيرة من السكان التي تعمل في مجالات الوساطة والمضاربة والربا والسمسرة، والتي كانت أو لاتزال منتشرة بشكل يستوعي الانتباه (في جنوب شرقي آسيا وفي الشرق الادنى والصين القديمة وشرقي اوروبا فيما قبل الحرب) لاتسهم بشيء يستحق الذكر في الناتج الاجتماعي وتميل الى المحاولة دون خروج رأسمالها من دائرة التداول العقيمة .

الى جانب القطاعات التقليدية السابقة يوجد **قطاع المشروعات والاستثمارات الاجنبية في البلدان المتخلفة** . فماهي حقيقة الدور الذي تلعبه هذه الاستثمارات بالنسبة للتنمية في البلدان المتخلفة ، وماهي دلالاتها وآثارها المباشرة وغير المباشرة على البلد المتخلف في مجموعه .

في هذا المجال ، يقدم باران تحليلا رائعاً لحقيقة دور المشروعات الاجنبية في البلدان المتخلفة ويفضح التقييم الكاذب الذي يحاول أن يقدمه الاقتصاديون الرأسماليون الغربيون عن هذه المشروعات .

فالمشروعات الاجنبية التي تعمل في البلدان المتخلفة ، وخصوصاً تلك التي تنتج وتستخرج سلعاً من اجل التصدير ، قد بدأت نشاطها بشكل عام (وباستثناء مشروعات البترول) **باستثمارات قليلة نسبيا من رأس المال** . ذلك انها كانت تسيطر على الموارد الطبيعية الضرورية (الارض للزراعة والارض لاستخراج المعادن) عن طريق نزع ملكية السكان المحليين بصورة قهرية أو عن طريق شرائها بسعر اسمي على نحو أو آخر من الحكام الامراء الاقطاعيين او رؤساء القبائل وشيوخ العشائر او عن طريق رشوة الرسميين واصحاب النفوذ. فان الزيادة في رأسمال البلدان المتخلفة ، الناجمة عن بدء الاستغلال الاجنبي لمواردها الطبيعية ، كانت تافهة .

ثم ان **آثار العمليات الجارية**

لهذه المشروعات الاجنبية التي تهتم بانتاج واستخراج وتصدير السلع الى الخارج تبقى ضئيلة ومحدودة . فالاجور التي تدفعها هذه المشروعات لعمال البلدان المتخلفة لاتشكل سوى نسبة ضئيلة من من دخولها . ان اجور عمال البترول في الشرق الاوسط مثلا ، لاتشكل سوى حوالي ٥٪ من ايرادات البترول علماً بأن قسماً من هذه الأجور يخصص للمستخدمين والموظفين والخبراء الاجانب الذين يدخرون انصبة ضخمة من دخولهم ليصدروها بانتظام الى مواطنهم الاصلية، اضافة الى ذلك ، فان المبالغ التي يصرفها المستخدمون الاجانب في الاغراض الاستهلاكية لاتنفق بكاملها على المنتوجات المحلية ، ذلك ان جزءاً كبيراً من هذا الإنفاق يوجه نحو استيراد السلع والاصناف المألوفة لديهم والتي اعتادوا استهلاكها في بلدهم الأم .

اما الاستثمارات او التسهيلات المساعدة التي تقوم بها المشروعات الرأسمالية في البلدان المتخلفة التي تعمل بها ، والتي تتجلى في انشاء الطرق والسكك الحديدية والموانىء ومحطات القوى الكهربائية وما شابه ، فهي في معظمها وفي حقيقة أمرها لاتساعد سوى المشروع الاحتكاري . وحتى لو كانت هذه المشروعات المساعدة مصممة بحيث تتمشى مع المتطلبات التكنيكية للنمو الاقتصادي في المناطق المتأخرة ، فان تأثيرها سيظل معدوماً او (سلبياً) مادامت تشكل اجساماً غريبة في هيكل اجتماعي — اقتصادي أقحمت عليه بطريقة مصطنعة .

والمشروعات الاجنبية بخصائصها السابقة ، خلافاً لتقييمها المزركش والكاذب من قبل الاقتصاديين الرأسماليين، فانها تشحن باستمرار جزءاً كبيراً من فائض العالم المتخلف وتعرقل تصنيعه وتساهم في ابادته العضوية . كما انها تدعم نفوذ الرأسمالية التجارية (التي تتوسع وتنتعش في فلك رأس المال الاجنبي) ومصالح الفئات البورجوازية والاقطاعية

التي تعتبر الفئات الوحيدة التي تحصل على مزايا جوهرية من هـذه المشروعات الإجنبية .

وباعتبار المشروعات الإجنبية تفيد فئات التجار والوسطاء واصحاب الاراضي الكبار ، فان هذه الفئات تعيش في ائتلاف سياسي واجتماعي مكرس للدفاع عن النظام الاقطاعي التجاري القائم . وهذا الائتلاف اذ يحكم البلاد بأي اسلوب سياسي يراه (نظام ملكي متخلف ، ديكتاتورية عسكرية فاشستيـة) لا يكون لديه مايرجوه من نشوء الرأسمالية الصناعية التي ستزحزحه عن مواقع الامتياز والسلطة .

وهو اذ يعطل كل تقدم اقتصادي واجتماعي ويؤيد كل ماهو متأخر ومحتضر ، لا يكون له رصيد شعبي حقيقي في الريف او المدينة ، ويعيش في ذعر دائم من الجماهير الجائعة الساخطة ، ويعتمد من أجل استقراره على جرس من المرتزقة وعلى مؤسسات عسكرية يخصص لها جزءاً هاماً من الدخل القومي يعادل ، او يفوق في كثير من الحالات ، الجزء المخصص لكافـة الاستثمارات الانتاجية .

ومع ذلك ، فقد أدت التطورات السياسية والاجتماعيـة الى قلب مثل هـذه الإنظمة في كـثير من بلدان العالم الثالث . الا انهـا إستمرت في أجـزاء اخرى منه (في معظم بلدان امريكا اللاتينية وفي بعض بلدان الشرق الأوسط وفي بلاد « حره » في جنوب شرقي آسيا) بفضل المساعدة والتأييد اللذين يقدمها « دون مقابل » رأس المال الغربي والحكومات الغربية التي تعمل لحسابه . ذلك لأن المحافظة على هذه الأنظمة وعلى نشاط المشروعات الأجنبية في البلدان المتخلفة قد اصبح كل منها يتوقف على الآخر .

والحقيقة ، إن استغلال المواد الاولية في البلاد المتخلفة بواسطة رأس المـال الأجنبي ، ووجود « الكومبرادورية » الفاسدة والرجعية في هذه البلاد ، لا يعتبر لقاء عفويا ، وانما يشكل جانبين على

صلة وثيقة لامر لا يمكن فهمه على نحو ملائم الا على انه الامبريالية في كليتها . وهذا ما يفسر تسخير الغرب سياسته لتأييد الشركات الكبيرة في جهودها المرسومة للمحافظة على مواقعها في البلاد المتأخرة ، ولتخريب التنمية الاقتصادية فيها . ويكشف عن ذلك التصريحات الرسمية اكثر مما تكشف عنه الكتابات الاقتصادية . فقد حدد الرئيس ايزنهاور اهداف السياسة الخارجية الامريكية «بانها اتخاذ كل اجراء تستطيع الحكومة القيام به بطريقة مناسبة لتشجيع تدفق الاستثمار الخاص الى الخارج . ويتضمن ذلك ، كغرض خطير وحاسم من اغراض سياستنا الخارجية ، العمل على توفير مناخ كريم ومضياف لمثل هذا الاستثمار في البلدان الأجنبية » . كما عبر اوجست مافري ، وهو اكثر الاقتصاديين نفوذاً في وول ستريت ، في تقرير خاص أعده لوزارة الخارجية الامريكية ، عن ضرورة دعم وحماية الاستثمارات الامريكية في الخارج بقوله : « . . وينبغي على جميع هيئات الحكومة الامريكية المختصة بالتنمية الاقتصادية في الخارج ان تكون يقظة على الدوام لاية اجراءات تتخذها الحكومات الأجنبية يمكن ان يكون لها آثار ضارة على مصالح المستثمرين الامريكيين ، وان تستخدم جميع اشكال الضغط الدبلوماسي الممكنة لمنع هذه الاجراء او لعلاجها » . ونجد احد المبررات الاقتصادية لمثل هذه السياسة التي تحرص كل هذا الحرص على المشروعات الاحتكارية الخارجية في الارباح الاسطورية التي تحققها هذه الاستثمارات في الخارج ، والتي هي في الحقيقة اكثر ارتفاعاً بكثير من ارباح الاستثمارات المحلية .

ويتساءل الكاتب عن مقدار الحصة التي تحصل عليها الحكومات الخاضعة للنفوذ الامبريالي من نشاط المشروعات الاجنبية ، وعن مقدار الفائض الاقتصادي الذي تنتزعه تلك الحكومات التابعة من السكان

المحليين ، ثم عن كيفية استخدامها لهذه الموارد . ويوضح بأن هذه الموارد التي تحصل عليها حكومات البلدان المتخلفة من المصدرين المذكورين آنفاًوان كانت تتفاوت من حيث قيمتها المطلقة والنسبية من بلد لآخر (وهي كبيرة للغاية في كل مناطق العالم المنتجة للبترول) فانها بمعظمها ، وبصورة عامة ، تنساب في بالوعـــة الفساد والاسراف والتبديد .

وهنا تكمن العقبة الرئيسية امام النمو الاقتصادي السريع في البلاد المتأخرة. ان امتصاص الفائض الاقتصادي بواسطة اشكال مختلفة من الاستهـــلاك المفرط للطبقات العليا ، وبواسطة اضافات الى المكتنزات في الداخل والخارج، وبواسطة الاحتفاظ بادارات بيروقراطية ضخمة غير منتجة وبمؤسسات عسكرية اكثر تكلفة وليست اكثر جدوى ، ان ذلك، يشكل عاملاً من اهم عوامل التخلف . ويركز باران بصورة خاصة على طوفان الموارد المتزايد باستمرار الذي يصب في خزائن الحكومات البترولية . وبالرغم من ان ذلك لايشكل الا نسبة ضئيلة من الارباح التي تحصل عليها الشركات الاجنبية من استثمارات البترول ، فانه يشكل طوفاناً حقيقياً من الموارد بكل معنى الكلمة . الا ان معظم الحكومات المحلية لاتخصص منه إلا جزءاً يسيراً وتافهاً لخدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلادها . ويستشهد الكاتب بمجلة الايكونومست نفسها اذ تقول « ان سياسة بذر بذور البترول كانت بطيئة بطئاً مؤلماً في تقديم الثمار ... وببساطة فانها لم تمس حتى الآن سوى اهداب موارد الامة الاقتصادية » . ثم ان القسم الاكبر من هـــذه الموارد يصب في الجيوب الخاصة لحكام البترول حيث تقول الايكونومست ثانية بأنه « ... في الدول والامارات البترولية التي لاتزال تسير على اسس اقطاعية ، ليس هناك فاصل كبير بين الايرادات القومية والجيب الخاص للحاكم » .

وهكذا ، فان ما ينفق على التنمية

الاقتصادية والاجتماعية في البلدان المتخلفة، وخصوصاً تلك التي لا تزال خاضعة لحكومات دكتاتورية ورجعية تساندها الشركات الاجنبية ، اقل بكثير مما هو متاح لها مما يعجز عن توفير النمو الاقتصادي السريع والمتوازن .

ان ما يمكن استنتاجه مما سبق ، هو انه ، خلافاً لما يقدمه الغربيون عن البلدان المتخلفة ، فان العقبة الرئيسية التي تحول دون تقدم هذه البلدان لاتكمن في نقص رؤوس الاموال ، وانما تكمن في نقص ما أسميناه الفائض الاقتصادي الفعلي المخصص للاستثمارات الانتاجية المتزايدة . وان الفائض الاقتصادي الذي يمكن توفيره لمثل هذه الاستثمارات كبير المقدار في كافة الدول المتخلفة . ومن المؤكد انه ليس كبيراً من حيث قيمته المطلقة اذا ما قورن بمثيله في الولايات المتحدة او بريطانيا الا انه كبير من حيث نسبته الى الدخول القومية للبلدان المتخلفة بما يكفي لتحقيق معدلات نمو عالية ، وعالية للغاية .

والواقع أن الفائض الاقتصادي الاحتمالي في معظم البلاد المتخلفة يشكل ٢٠٪ او اكثر من الدخول القومية لتلك البلدان . ومهما يكن معدل انتاجية رأس المال الذي يمكن اعتماده ، فان الاستثمار المتنج لهذا الفائض يستطيع ان يحقق زيادات في الدخل تتراوح بين ٧ - ٨٪ سنوياً ، بل واكثر من ذلك في بعض الحالات .

واذا كانت معدلات النمو الحالية في دخل البلدان المتخلفة ، اذا وجدت ، تتمشى تقريباً مع معدلات تزايد السكان في تلك البلدان (التي تقدر بحوالي ١ او ٢٪) ، ولا تتجاوزها الا نادراً ، فان المسؤول (بصورة مباشرة او غير مباشرة) عن هذا النمو البطيء او المعدوم في الدخل، هو النظام الرأسمالي الامبريالي؛ اذ انه هو الذي يحول دون التعبئة الكاملة والملحة للفائض الاقتصادي الاحتمالي ودون بلوغ

معدلات التقدم الاقتصادي التي يمكن توفيرها بمساعدة الفائض المذكور .

* * *

إذن « **الهوة في البلدان المتخلفة . بين الفعلي والممكن هوة صارخة** » . وبتعبير آخر إن امكانات التطور والنمو متوفرة ، وبدرجات هائلة ، لدى معظم البلدان المتخلفة . ولكن **كيف يمكن الانطلاق السريع في طريق التطور والنمو المتسارع والمتوازن ؟**

الحل الجذري يكمن في الثورة الاجتماعية اي في تغيير البنى والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة في البلدان المتخلفة لتحرير فائضها الاقتصادي ووضعه تحت تصرف المجتمع لاستخدامه وفق اسلوب عقلاني رشيد . ولا يعني ذلك ان الطريق سهلة . فالارتقاء صعب ولكنه ممكن .

ويكمن الشرط الضروري والاساسي لضمان هذا الارتقاء في اقامة **اقتصاد اشتراكي مخطط** يهدف الى « ضمان اقصى اشباع ممكن للمتطلبات المادية والثقافية المتزيدة باستمرار للمجتمع بأكمله من خلال التوسع والاتقان المستمرين للانتاج الاشتراكي على أساس أساليب تكنيكية اكثر تقدماً » .

وتخطيط الاقتصاد في ظل نظام اجتماعي جديد وتنظيمه وفق أسس عقلانية سليمة ، يثير عدداً من التساؤلات والقضايا المحورية التي تعتبر على غاية من الأهمية بالنسبة لكافة البلدان النامية التي تختار الاشتراكية كنظام لتطورها .

فالبلدان المتخلفة التي تباشر ثورتها الاجتماعية تجابه أولاً **المسألة الزراعية** « التي تكاد تنتمي الى العصور الوسطى والتي تمثل اكبر تركة للنظام الرأسمالي في البلدان المتخلفة ينبغي على المجتمع الاشتراكي التغلب عليها » . وبهذا الصدد ، يناقش المؤلف الجوانب المختلفة لهذه المسألة ويحلل الدور الحقيقي للاصلاح الزراعي في مختلف الظروف . ثم يبحث في الأشكال والصيغ التنظيمية الملائمة للزراعة

ويتعرض للزراعة الجماعيـــة وضرورتها (لتعبئة الفائض الزراعي الممكن تسويقه وتوفير اليد العاملة اللازمة للتصنيع) بالرغم من الصعوبات التي تعترضها ومن التكاليف المادية والبشرية التي تستوجبها .

ثم يناقش النقاط الاساسية التي تتعلق بتثمير الفائض الاقتصادي في الفترات المختلفة على النحو الامثل ، ويتساءل **عمـــا اذا كانت التنمية الاقتصادية ينبغي السعي الى تحقيقها من خلال التصنيع ام انه ينبغي البحث عن التقدم بزيادة الانتاجية الزراعية** . ويوضح بأن تطبيق الاساليب الحديثة في الزراعة والتصنيع الواسع النطـــاق يرتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً كتوأمين . « اذ لا يمكن ان يكون هناك تجديد للزراعة دون تصنيع ، ولا يمكن ان يكون هناك تصنيع دون زيادة في الناتج والفائض الزراعيين » . وهكذا ، فقد يبدو لاول وهلة ان ما يواجه البلدان المتخلفة هو حلقة مفرغة ، الا ان الموضوع لا يبدو كذلك الا اذا نظر اليه نظرة مجردة .. نظرة « مضاربة » .

والحقيقة أنه في « مجتمع اشتراكي ، تصبح معضلة الاختيار بين التصنيع أم تحسين الزراعة لا معنى لها بالمرة ما دام التقدم غير قابل للتقسيم ، نظراً لأن الاحتفاظ بالانسجـــام والتنسيق بين قطاعي المجتمع يشكل احد الشروط الاساسية للتنمية السريعة والصحيحة » . ان سيـــاسة الاستثمار يجب ان تركز بصورة رئيسية على تنمية الصناعات ـ مع النهوض بالزراعة في نفس الوقت نهوضاً يكفي لمساندة عملية التصنيع ـ بحيث تكون قادرة (أي الصناعة) فيما بعد على ان تستدير وتقدم للزراعة سنداً هاماً بفضل الموارد المتسعة للانتاج الصناعي .

ثم هناك مسألة أخرى تتعلق بمهمة التخصص الامثل للفـــائض الاقتصادي ، **وفيما اذا كان ينبغي السعي الى التنمية الاقتصادية من خلال التوسع في صناعات السلع الانتاجية (الثقيلة) ام من خلال**

زيادة صناعات السلع الاستهلاكية (الخفيفة) . للاجابة على هذه المسألة ، يستشهد باران بما صاغه ماركس وما وضعه لينين، والمتضمن بأنه « لكي يتسع الانتاج .. من الضروري ان ننتج اولاً وسائل الانتاج ، ويتطلب هذا بالتالي التوسع في ذلك الفرع من الانتاج الاجتماعي الذي يصنع وسائل الانتاج » .

ثم ، ماذا عن السؤال القديم ــ الذي لايزال موضع بحث ومناقشة في كثير من المجتمعات ــ والذي يتناول مسألة ما اذا كان ينبغي ان نختار لبرامج التنمية في البلاد المتخلفة اساليب الانتاج ذات كثافة رأس المال العالية ام اساليب الانتاج ذات كثافة العمل العالية . بول باران يرى ، بعد مناقشة ملخصة وسريعة لهذه المسألة الهامة « بأن الاساليب التكنيكية ذات كثافة العمل العالية تؤدي الى ابطاء عملية التوسع والى تخفيض معدل النمو الاقتصادي » اضافة الى انه « لاتكاد توجد اية سلع انتاجية اساسية يمكن انتاجها اعتماداً على كثافة في اليد العاملة » وبالتالي فان مجال الاختيار ــ بين كثافة العمل وكثافة رأس المال يصبح محدوداً واحياناً معدوماً بالنسبة لقطاع التجهيزات والآلات الانتاجية . ان مجال الاختيار الوحيد الذي يتبقى هو ان ننتج او لا ننتج سلعة معينة . وانطلاقاً من هذا ، يبدو للكاتب بأن الحل الذي يقترحه الاقتصاديون البورجوازيون الذي يعتمد على اعطاء افضلية للتثميرات المعتمدة على كثافة عالية مرتفعة لاتبرره « البراءة » النظرية كما قد يبدو لاول وهلة . بل على العكس تماماً ، انه مخالطة تمثل حلقة في الحملة الذائعة الآن للتدليل «بطريقة علمية» على انه ينبغي على البلدان المتخلفة ان تسير ببطء شديد (او لا تسير اصلاً ، وهو الافضل) في اتجاه التصنيع والتنمية الاقتصادية .

مقابــلات المعــرفة

مع الشاعر العراقي

عبد الوهاب البياتي

محمدوح عدوان

في القاهرة التقيت بالشاعر عبد الوهاب البياتي .. وعبد الوهاب يفاجئك حين تلقاه لأول مرة أنك تعرفه ويعرفك .. يتحدث اليك ببساطة وحرية .. بلا مجاملات ولا مقدمـــات .. وكأنكما افترقتما منذ ساعة فقط .

سألته كما يحاول أي امرىء فتح حديث مع شاعر معروف : هل تكتب شيئاً جديداً ؟ قال : والله لقد كتبت قصيدة اسمها « الحلم الكاذب [1] » ثم توقفت .. أخشى ان كتبت في فترات متقاربة ان أكرر نفسي .. انني أصمت طويلاً لكي أكون قادراً على التجاوز باستمرار » .

وفي لقاء حددناه لإجراء هذا الحوار بدأت بسؤال عن أثر النكسة فقال :

— كما ان هزيمة العرب في عام ١٩٤٨ قد أحدثت آثاراً عميقة اجتماعية وسياسية وثقافية ، فأنا أعتقد ان نكسة عام ١٩٦٧

(١) القصيدة منشورة في هذا العدد ـ ص ٧٨

ستترك آثاراً أكثر عمقاً واختلافاً. فالذين قادوا المعركة في ١٩٤٨ هم القادة الرجعيون. اما في ١٩٦٧ فهم القادة التقدميون. وهذا ما يرجعنا الى تقسيم الشعر ذاته الى شعر ثوري .. وشعر لامنتم ثوري .

● لامنتم ؟

— اللامنتمي العربي الثوري لا يتناقض مع المنتمي . المنتمي هو المرتبط بتنظيم سياسي معين . أما اللامنتمي فهو الثوري الذي لم يجد شكله التنظيمي بعد . وفي الشعر ، أعني المعنى الفلسفي وليس المعنى المستهلك للانتماء . اللامنتمي هو الانسان الجاد في بحثه عن انتماء لكنه لم يجده بعد . وهو قريب من أبطال ألبير كامو الثوريين . انه اختيار دائم ومتجدد وليس جامداً . الثوري له مواقف متجددة دائمة تنبع من محاولة الصعود الى ذرى الأشياء . وترجع الى فكرة الولادة والموت ذاتها . وهذا ظاهر في انتاج الجيل الشاب .. انه لا يتعارض مع التنظيمات السياسية بل يتخطاها .. وهذا عائد الى طبيعة الفنان القادر على تخطي السياسي .

● حسناً .. نعود إلى الشعر .. ما الذي أردت قوله في شعرك حتى الآن ؟

— بالرغم من الحرية التي يتمتع بها الشاعر في التعبير .. تظل هناك ظروف قاهرة في الوطن العربي تحد من حرية الأديب .. ولا تمكنه من تسمية الأشياء بأسمائها — ولو ملكنا حرية القول لقلنا : « كلا » لآلاف الأشياء التي تحيط بنا .

ان الصراع الحقيقي الآن لا يدور بين الرجعية والتقدمية فقط .. إذ أن أمد هذا الصراع لم يته بالضبط وما يزال قائماً .. إلا ان صراعاً جديداً قد ولد أثناء الصراع الأول وهو الصراع بين ما هو تقدمي حقيقي وتقدمي زائف .

والأديب يقف حائراً بين هذين الموقفين . ولو استطاع القول لطرده الجميع . فالكثير من أنظمة الحكم العربية ، وحتى بعض الأنظمة التقدمية ، هي ديكتاتورية مقنعة لا تحمل اية ايديولوجية معاصرة واضحة .

● هذا ما لم تستطع قوله . فما الذي قلته ؟

— نحن ساهمنا ، كأدباء ، مساهمة لا بأس بها في الصراع بين التقدمية والرجعية . ولكن الصراع بين التقدمي الحقيقي والزائف لم يأخذ شكلاً واضحاً ، سواء في الفن أو الأدب أو السياسة .

● وكيف تستطيع الحكم على أنك قد طورت نفسك حتى وصلت إلى ميدان المعركة الجديدة ؟

— من خلال تجربتي الشعرية الطويلة ونقدي لنفسي ، ومن خلال النقاد والقراء أستطيع ذلك . والشاعر حين ينظر بعين ناقدة الى نفسه ونتاجه يستطيع التأكد من الجودة والرداءة .

● وهل هناك مراحل شعرية في شعرك ؟

— نعم .. مررت في ثلاث مراحل .. الأولى متمثلة في « أباريق مهشمة » وقد حاولت تصوير اللامنتمي الذي يعمل من اجل الثورة والحرية . والثانية في « المجد للأطفال والزيتون » و« أشعار في المنفى » و « عشرون قصيدة من برلين » و« كلمات لا تموت » .. وهنا كنت أكتب ملتزماً بتطوير المرحلة الأولى بمفاهيم جديدة . والمرحلة الثالثة في « النار والكلمات » و « سفر الفقر والثورة » و « الذي يأتي ولا يأتي » والديوان الجديد : « الموت في الحياة » .

هذه المراحل الثلاثة كانت صدى للأزمات التي مرت بالأمة العربية عامة ، والأديب الثوري خاصة . لقد بدأنا متفائلين جداً لاعتقادنا بخلاص العالم العربي على أيدي بعض التنظيمات السياسية التي كانت موجودة عام ١٩٥٤ . وقد بذلت هذه التنظيمات كل جهودها باخلاص ولكنها كانت تحمل جرثومة موتها في الوقت ذاته ، لأنها كانت تمثل المجتمع العربي في ذلك الحين . وقد استطاع المثقفون اكتشاف أبعاد جديدة وكفروا بهذه التنظيمات . وهذا ما قلته في المرحلة الثالثة من شعري.

ان على الانظمة ان تطور نفسها وإلا

ماتت. وقد استطاع حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية، مثلاً، ان يطور نفسه لأنه كان أمام خيار: إما أن ينتهي كحزب او أن يطور نفسه. لكنه انقذ نفسه بتطوير نفسه. وكان ما فعله حزب البعث خطوة حقيقية رائدة لبناء أحزاب حقيقية في الوطن العربي. وهذه المرحلة هي عودة البطل الثوري اللامنتمي — الى التنظيمات السابقة — الى البحث عن الينابيع والجذور.

● وماذا عن تطورك الفني؟

— لقد اخذ أشكالاً عديدة. في «اباريق مهشمة» نجد الشكل والمضمون في انسجام تام متلائم مع طبيعة المرحلة.. وفي المرحلة الثانية كان هناك طغيان المضمون على الشكل، ثم هناك عودة الى المرحلة الاولى لأشكال جديدة.

● وكيف يمكنك تحديد هذه الاشكال؟

— في «اباريق مهشمة» كل الشخصيات التي تناولتها والموضوعات كانت من خلال نفسي بأشكال فنية مختلفة.. ولكن يظل للشكل الفني اهمية كبرى. اي ان هناك التزاماً فنياً الى جانب الالتزام الثوري لا ينفصل احدهما عن الآخر. وفي المرحلة الثالثة بدأت عملية اخفاء شخصية الشاعر وراء قناع الرمز والاسطورة والتاريخ.

● وهل وظيفة الرمز والاسطورة والتاريخ هي اخفاء شخصية الشاعر فقط؟

— الى جانب اعطاء النتاج الفني نوعاً من الاستقلال ومحو آثار الظرفية

● أنت متهم فنياً بالعودة الى الكلاسيكية في قالب جديد. انك تصر على القافية إصراراً مزعجاً أحياناً كأن تقف على المضاف للقافية ويأتي المضاف اليه في أول البيت الثاني.

هذا قليلاً ما ألجأ اليه في بعض القصائد. ففي بعض الأحايين يكون هنالك معنى لا ينتهي في بيت واحد وانما في بيتين أو ثلاثة فاستخدم المضاف في نهاية بيت والمضاف اليه في اول البيت الثاني. اما اللجوء الى القافية بكثرة فانا أشعر ان هناك ضرورة

فنية لذلك . وأنا لا أريد إن تبتعد القصيدة العربية الحديثة كلية عن القصيدة الكلاسيكية .. وأريد ان اضع ، من خلال القافية ، نظاماً جديداً للقصيدة . والى جانب ذلك أبذل جهداً فنياً يهدف الى محو آثار هذه القافية ووقعها عند القارىء بحيث تأتي طبيعية جداً .

والتخلي تماماً عن القافية يؤدي الى ضياع الركائز الضابطة داخل القصيدة وتحويلها الى بيت واحد من أولها الى آخرها . وهذا ما يفقد القصيدة شيئاً من موسيقاها . ولذلك أرى من الأفضل التركيز على القافية اذا كانت في كلمات لا يمكن الاستغناء عنها ودون الاساءة الى البنيان الداخلي وتكامله .

وهناك قصائد مثل « المغني والقمر » و « النار والكلمات » لا يمكن تذوقها دون التفكير في القافية التي تلعب دوراً مهماً في البناء الشكلي للقصيدة .

وقد تأتي القافية لمجرد انها كلمة يجب أن تأتي في نهاية البيت .

● حسناً من يعجبك من الشعراء المعاصرين ؟

ـــ السياب والحاوي بالدرجة الاولى

● لماذا ؟

ـــ لأنني أوكد على ظاهرة الوضوح وأنا أرى ان اشعارهما اكثر وضوحاً وتجربتهما أكثر صدقاً . والسياب يعجبني اكثر لأن هناك امتزاجاً لديه بين التجربة الشعرية والتجربة الحياتية . ولي ملاحظات عليه طبعاً . لكنه يعبر عن الانسان الثوري اللامنتمي الذي أهتم به اكثر من غيره .

● وأدونيس ؟

ـــ في رأيي ان محاولات ادونيس محاولات شكلية عقيمة تدور في نطاق استحداث لغة جديدة . ولكن هذه اللغة الجديدة لغة ميتة . وانا ارى انها بلا جذور فلسفية بالرغم من ادعائه ومحاولات التمويه الظاهرة .

● وغير ادونيس ؟

ـــ اكثر الشعراء الآخرين

لايعجبونني لانهم يمثلون تطلعات البورجوازي الصغير واحزانه .. وهذا البورجوازي بلا جذور اذ انه لايعبر عن طبقته .

● ألم تظلم ادونيس ؟

— ادونيس يقع في المنطقة الميتة بين هؤلاء وبين السياب والحاوي . لانه ينتهي بالشكلية اللفظية كما قلت ... وقد ينجذب الى ادونيس بعض الشباب في سن معينة اذ يقعون في شراك اللفظية ويعتقدون ان قصائده تقول شيئاً ... وانا ارى انها لاتقول شيئاً على الاطلاق .

● هل ينطبق هذا الرأي على كل شعره ؟

— قصائده النثرية افضل من قصائده الاخرى لانها اكثر وضوحاً . وهو صدى لنيتشه في « هكذا تكلم زرادشت » ومحاولة لاعادة كتابة سان جون بيرس بالوبية وبشكل اكثر غموضاً .

● وبمناسبة قصيدة النثر ، من يعجبك من شعرائها ؟

— محمد الماغوط ، وأنسي الحاج .

كل ما قرأت للماغوط فيه صدق وأصالة ووضوح . وأستطيع ان أضمه إلى السياب والحاوي . وأنا لا أعترض على قصيدة النثر وأعتبرها نوعاً من الأنواع الادبية . ولكني أعترض على الغثاثة والهذيان واللامعنى ، واتخاذها من قبل بعض أنصاف المثقفين مطية للتعبير عن لا شيء .

● هل قرأت «العصفور الأحدب» للماغوط ؟

— قرأت فصلاً منها نشر في مجلة « حوار » وقد أعجبني جداً .

● هل تعتقد ان للشعر العربي امكانات لخلق حركة مسرحية شعرية ؟

— أنا ضد « العربة قبل الحصان » او « الحصان قبل العربة » .. هناك من يقول ان الشعر الحديث من افضل الاشكال الشعرية لكتابة المسرح ، والقضية ليست بهذه البساطة . المهم في الدرجة الاولى وجود دوافع حقيقية وحضارية في الوطن العربي لكتابة المسرحيات الشعرية .

● وهل هي موجودة الآن ؟

— لا . ولكن ليس معنى هذا ان نقف دون المحادثة .

تهذيب الأخلاق

ـ تأليف : أبي علي أحمد بن محمد مسكويه
ـ تحقيق : د. قسطنطين زريق
ـ بيروت ـ ١٩٦٦

عرض : عبد المعين الملوحي

أصدر المفكر العربي الكبير الأستاذ الدكتور قسطنطين زريق طبعة جديدة محققة لكتاب « تهذيب الأخلاق » الذي ألفه الفيلسوف العربي مسكويه .

ومسكويه هو أحد فلاسفة الأخلاق في الإسلام كان قيماً على مكتبة ابن العميد ثم على مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، ولعل قيامه على المكتبة مكنه من تأليف كتابه الضخم « تجارب الأمم » وهو يشتمل على مادة تاريخية جيدة ، تتناول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العباسية ، وهذا العنوان « تجارب الأمم » يدل على النزعة الفلسفية في استقصاء أسباب الحوادث ونتائجها في الأمم الغابرة للاعتبار بها في حياة الأمم الحاضرة . وقد طبعت اجزاء من هذا الكتاب .

وله مؤلفات أخرى هي « كتاب

السعادة » أو (ترتيب السعادات) وهو مطبوع ، و « آداب العرب والفرس » وهو مخطوط و « الأدوية المفردة » و « الأشربة » وغيرها .

وأصل مسكويه من الري وسكن أصفهان وتوفي فيها (٠٠ — ٤٢١ هـ) (٠٠ — ١٠٣٠ م) .

والكتاب الذى حققه الأستاذ قسطنطين زريق هو كتاب « تهذيب الأخلاق » .

وقد بحث الأستاذ زريق طويلا في اسم هذا الكتاب ولاحظ أن الكتاب عرف في طبعات القاهرة الأولى باسم « كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » وأن عبارة « وتطهير الاعراق » لم ترد الا في المصادر المتأخرة . كما لاحظ ان نص الكتاب ذاته ليس فيه مايدل على على تسميته تهذيب الاخلاق . ولكن الكتاب كله يدور حول هذا الموضوع .

والدليل الوحيد الذي ورد في النص على تسمية الكتاب هو ماجاء على لسان صاحبه ص : ٩١ س ١٩ من الطبعة الجديدة : « ولذلك سميته أيضاً بكتاب الطهارة » ويستفاد من كلمة أيضاً أن الطهارة كانت تؤلف إما جزءاً من العنوان او عنواناً بديلا لتهذيب الاخلاق .

وذكر الاستاذ أن « تهذيب الاخلاق » قد طبع مراراً وانها بحسب ماورد في في تاريخ الآداب العربية لبروكلمن ، وفي معجم سركيس وفي فهرس دار الكتب بالقاهرة بلغت ١٤ طبعة ، وان الطبعة القاهرية الاولى (١٢٩٨) هي من اهم هذه الطبعات القديمة ان لم تكن اهمها وانها كانت الى حد كبير اساس الطبعات التالية .

ولم يكتف الاستاذ المحقق بهذه الطبعات بل اعتمد في تحقيق نص الكتاب على ست مخطوطات : اربع منها في مكتبات استانبول وواحدة في دار الكتب المصرية في القاهرة وواحدة في المتحف البريطاني . ووصف المحقق هذه النسخ الست وصفاً مفصلا .

واتبـــع في تحقيق النص أرقى الأساليب العلمية ، فاعتمد اقدم النسخ وأقلها تحريفاً وتصحيفاً. ثم حاول ضبطها بالاستناد الى باقي النسخ ، ولم يثبت كل اختلاف ورد في كل نسخة بل اقتصر على اثبات الاختلافات التي تتفق عليها نسختان على الاقل ، واعتبر تصحيحات الناسخ جزءاً من المتن ، وأثبت مواضع النقاط وكانت مهملة ، وأخيراً حاول أن يستخلص من هذه النسخ الست أقرب صورة الى الأصل الذي وضعه المؤلف .

كان مسكويه يعتبر مذهب أرسطو – مثله في ذلك مثل كثير من فلاسفة المسلمين – المثل الأعلى للعقل، ولقـــد وضع مذهبه الأخلاقي معتمدا على مذهب أرسطو في الاخلاق ، واهتم في الدرجة الاولى بتهذيب النفس الانسانية ، وهو يرى ان الطريق الى الفلسفة – كما لاحظت الموسوعة العربية الميسرة – لاتبدأ بالمنطق بل بالاخلاق . وهكذا ركز بحثه في قوى النفس وملكاتها ليسلك بها سبيل الفضيلة . وسعادة الانسان هي أن يبلغ كماله من حيث هو انسان ، فتصدر عنه الافعال بحسب الروية ، مبتدئاً بأموره الخاصة ، ومنتهياً الى « التدبير المدني بين الناس حتى يسعدوا سعادة مشتركة » .

ويريد مسكويه ان يبتدىء الانسان بتربية نفسه تربية ذاتية ، فيجاهد شهواته ، ويتحلى بالعفة والشجاعة والحكمة ، ويحقق العدالة . وهو يدعو الى التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، والى قوة الأمل والثقة بالله .

ويرى الفيلسوف ان في استطاعة الانسان ان يكتسب الخلق الجميل ،وان يصلح فساد الاخلاق ، ويعتقد ان نفس الطفل صفحة بيضاء سريعة القبول لكل ماينقش عليها ، لذلك يجب تعويده منذ الصغر الافعال المحمودة ، ومنعه من مخالطة قرناء السوء ، ويضع مسكويه بعض القواعد التربوية لتهذيب أخلاق الطفل ، ويرى ألا يكاشف الطفل بخطئه ، بل يتغافل

عنه ولا يعاقب الا اذا تكرر منه الفعل القبيح ، وعلى ذويه أن يمدحوه ويشجعوه اذا احسن عملا .

وأوضح مسكويه فائدة الرياضة والألعاب ، وقال : انها تحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتزكي النفس .

ويقسم مسكويه كتابه « تهذيب الأخلاق » الى ست مقالات .

المقالة الاولى : مبادىء الاخلاق : النفس وقواها ، الخير والسعادة ، الفضائل والرذائل .

المقالة الثانية : الخلق وتهذيبه ، الكمال الانساني وسبله .

المقالة الثالثة : الخير واقسامه ، السعادة ومراتبها .

المقالة الرابعة : العدالة .

المقالة الخامسة : المحبة والصداقة .

المقالة السادسة : صحة النفس : حفظها وردها .

لقد اعتذر الاستاذ عن البحث في مسكويه وحياته وفلسفته ، والحق ان التحقيق ليس من عناصره ان يتضمن مقدمات عن الكاتب وعن الكتاب بل هو في الدرجة الاولى تقديم نص صحيح ، ولكن الاستاذ الذي حقق الكتاب في كثير من الجهد يملك في الواقع كل الامكانات للبحث فيه وايضاح مشكلاته وذكر اهدافه الاخلاقية ومصادرها وما جد من تطور على هـذه النظريات الأخلاقية .

وهكذا حرم المحقق القارىء العربي من بحث هو أقدر الناس عليه كان يمكن ان يسد فراغاً كبيراً في دراسة النظريات الاخلاقية عند العرب والمسلمين .

من المؤكد أن تحقيق هذا الكتاب يعتبر ذروة في التحقيق العلمي الصحيح ، كما أن نشره في هذه الصورة الأنيقة والطباعة الراقية يعتبر مثلاً أعلى في التحقيق وقد حاولت في قراءتي الكتاب أن أعثر على بعض الملاحظات في التحقيق والنشر فوجدت ملاحظة واحدة كنت أتمنى أن

يعني بها الاستاذ المحقق، وهي شكل بعض الفقرات الهامة والكلمات من الكتاب .

نعم ان الذين يفهمون هذا الكتاب من المختصين يستطيعون قراءته دون شكل ومع ذلك يبقى أن عدداً غير قليل من المثقفين الذين تهمهم الثقافة العربية والتراث القومي يرغبون في قراءة مثل هـذا الكتاب وهم مطمئنون الى صحة ضبطه وشكله، كما اطمأنوا الى صحة تحقيقه ونشره.

وأحب أن أشـير الى أن نظرية « الاوساط » التي شاعت في فلسفة الأخلاق في الاسلام وأخذت شكلاً واضحاً في كتاب مسكويه بل اخذت شكلاً واضحاً في الشعر العربي العباسي كانت لها جذور عميقة في حياة الجاهلية وتفكير حكمائها وذوي الرأي فيها ، ونجد ذلك واضحاً في معنى كلمة « وسط » في اللغة والمعاجم وفي القرآن الكريم وفي الحديث مما لا نريد ان نتوسع في ذكره ، وحسبي أن أذكر أربعة أبيات منها بيتان لا يعرف قائلهما وقد وردا في خزانة الأدب ١ : ٢٨٢ وأغلب الظن انهما جاهليان :

عليكَ بأوساطِ الأمورِ فإنها
طريقٌ الى نهجِ الصوابِ قويمُ
ولاتكُ فيها مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً
كلا طرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ

والبيتان الآخران للخطابي :

فسامحْ ولا تستوفِ حقَّكَ كُلَّهُ
وأبقِ ، فلم يستقصِ قطُّ كريمُ
ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمرِ واقتصدْ
كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميمُ

مدريد العربية

– تأليف : د. محمود علي مكي
– نشر : دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة

عرض : ظافر عبد الواحد

مما يعطي أهمية لهذا الكتاب ان مؤلفه مختص بالشؤون الاسبانية . واذا تركنا الخلفية التي تدور حول وجود العرب في اسبانيا ، وفيها امور مازال موضع المناقشة ، وجدنا أن المحور الرئيسي للكتاب هو اثبات أن العرب هم الذين بنوا مدريد .

وفي الكتاب خرائط منها خريطة لمجريط العربية وخريطة لمدريد ، يتبين من المقارنة بينها موقع مجريط العربية من مدريد الحالية .وقد وضعت الخريطة التقريبية لمجريط العربية على أساس تلك التي رسمها أنطونيو إسبينوساي ليس مونتيروس Antonio Espinosa de les Monteros في سنة ١٧٦٩ . ويلاحظ ان مجريط العربية كانت تتألف من جزئين : القصبة او المُدينة وهي المنطقة الحصينة التي كانت مقر عامل المدينة والحامية العسكرية ، وفي شمالها قصر العامل الذي يقوم عليه الآن قصر الشرق أو القصر الملكي ، ثم المدينة نفسها . ويلاحظ أن مدريد اتسعت وانبسطت حول المركز الذي كانت تقوم فيه مجريط العربية .

ويستعرض المؤلف تطور اسم المدينة من (مجريط) الى (مدريد) . ويذهب الى ان (مجريط) مؤلفة من مقطعين عربي ولاتيني . العربي (مجر) ويرمز الى مجاري المياه التي انشأها العرب تحت المدينة ، واللاتيني (يط it) وقد أخذ العرب يرمزون به الى الكثرة ، وبذلك يصبح معنى اسم المدينة (كثيرة المجاري) .

• كيف نواجه اسرائيل بعد العدوان
• قضية فلسطين وامكانات الحل السياسي

عرض وتقديم
هشام الدجاني

في الأعداد الماضية قدمت « المعرفة » في هذا الباب بعض الدراسات التي نشرت في المجلات العربيـــة حول موضوع النكسة وتقويم آثارها . وتقدم اليوم نماذج من الدراسات حول سبيل مجابهـــة اسرائيل ، والامكانات التي تستطيـع الأمة العربية أن تستخدمها في هذا المجال .

من هذه الدراسات اخترنا اثنتين :الأولى وقد نشرت في مجـلة الطليعة المصرية تحت عنوان : **« اسرائيل.. كيف نواجهها بعد حرب ٥ يونيو »** .وهي بقلم الاستاذ محمد سيد أحمد . أما الثانية فقد نشرت في مجلة الكاتب تحت عنوان : **« قضية فلسطين وامكانات الحل السياسي »** . بقلم الأستاذ احمد نبيل هلالي .

اسرائيل
كيف نواجهها بعد حرب ٥ يونيو؟[1]

بعد تقويم آثار النكسة وشرح الأسباب والظروف التي أدت اليها ، آن لنا أن نبحث في طرق مجابهة العدو إثر ما أصابنا من هزيمة

(١) مجلة الطليعة – القاهرة – عدد (١٠) ت١ – ١٩٦٧ – ص ٥٢

سياسية وعسكرية. لقد أصبح العدو بعد الخامس من حزيران يحتل مواقع جديدة من الأرض العربية، الأمر الذي أخل بالتوازن السابق في المنطقة. ومن الأهمية بمكان أن نراجع بنظرة نقدية بناءة سبل مواجهتنا للعدو، وأن نستكشف مواطن الخلل التي تسببت في النكسة بما يكفل تعميق فعاليتنا، وزيادة كفاءتنا في تحقيق أهدافنا مستقبلاً.

تشكل اسرائيل في جبهة القوى العالمية التي تناصب العداء للدول العربية المتحررة «العدو الخاص» المتصدي صراحة وبشكل مكشوف للعدوان، والمستفيد بشكل مباشر من ثمار العدوان. **ويكمن جوهر عملية «إزالة آثار العدوان» في افقاد اسرائيل هذه الميزة الخاصة، بكشف وعزل وتفتيت «عوامل القوة» التي تستند اليها.**

وينبغي علينا أن نسلم بأن كل هذه العوامل ليست من صنع اسرائيل وحدها أو من صنع القوى المناصرة لها وحسب. ان بعضها يرجع الى عوامل القصور والتخلف في مواجهتنا نحن لها.

ولا نستهدف في هذا المقال أن نتعرض لكل أوجه القصور في موقفنا، ولكننا نريد التركيز على أوجه القصور التي مست تقديرنا «للعدو الخاص»، والتي حالت دون إمكان تعبئة كل قدراتنا الفعلية لإنزال الهزيمة بتدابيره ومخططاته على أمثل وجه.

قبل أن نستعرض هذا الموضوع علينا أن نوضح حقيقتين هامتين:

الأولى: إن اسرائيل كيان عنصري دخيل ومفروض على الكيان العربي، اغتصبت رقعة من الأرض العربية، وأثبتت على الدوام أنها ترمي الى توسيع هذه الرقعة المغتصبة. واسرائيل من وجهة نظر الاستعمار العالمي تمثل «حلاً» موفقاً لعدد من المشكلات. فقد كان وجودها حلاً للمشكلة التي أوجدها الاستعمار وهي مشكلة «العداء اليهود والسامية» كأبرز صورة من صور العنصرية كان يمكن للاستعمار أن يطلقها من عقالها في أوروبا. ووجودها معناه استيطان دولة «أوروبية الطابع» متفوقة تقنياً في قلب العالم العربي قادرة على ممارسة دور فعال في مناهضة حركات التحرر.

وهذا ما يجعل وجود اسرائيل، مرهوناً لا برفض العرب لهذا الوجود فحسب، بل باصرار الاستعمار العالمي على هذا الوجود واستعداده للتدخل بكل الوسائل، بما في ذلك الحرب، لضمان هذا الوجود.

فازالة هذه القاعدة العنصرية ليست مرتبطة بارادة العرب وحدهم، بل ترتبط أوثق ارتباط بالتوازن الدولي الراهن بين قوى الاستعمار والقوى المعادية له. وهي أشبه بمشكلة «فورموزا» التي لا يتوقف حلها على الحق والعدل، ولكن على موازين دقيقة يحددها توازن القوى الاجتماعية والعسكرية في العالم أجمع.. ويرتبط حلها الجذري بتغير جذري في هذه الموازين.

وهذا لا يعني بحال من الأحوال استحالة مناهضة اسرائيل أو استحالة إحباط مشاريعها العدوانية . فليس الاستعمار وحده هو الذي يحكم مقدرات العالم .

الثانية : إن الظروف الراهنة يجب الا تطغى وحدها في تحديد طرق مقاومة العدوان وإزالة آثاره ، وانما يجب أن ترتبط بتخطيط لحل المشكلة بصورة جذرية . ذلك لأن اهمال الجانب الاستراتيجي تحت وطأة ظروف النكسة المؤقتة يجعل علاج الموقف أقرب الى **رد الفعل** منه الى **الفعل** .

وربما كان أهم ماينبغي أن يستوقف انتباهنا هو موقع اسرائيل داخل القوى الشريرة الأخرى .

موقفان خاطئان :

تذبذبت الدعاية العربية في تشخيص علاقة اسرائيل بالدول الاستعمارية ، وبالاستعمار الأمريكي على وجه الخصوص ، بين موقفين كلاهما لايعبر عن الحقيقة تعبيراً صحيحاً .

الموقف الأول : يفترض أن اسرائيل هي الأساس ، وأنها استطاعت من خلال المنظمات الصهيونية ورأس المال اليهودي ان تجند الحكومات الاستعمارية كي تقف في صفها . ويقوم هذا الموقف على أساس أن اسرائيل وحدها هي العدو ، وانما اذا قمنا بضغوط مماثلة على الحكومات الاستعمارية أمكننا أن نؤثر بشكل حاسم على موقفها ، وفك ارتباطها باسرائيل .

وهذا الموقف يتجاهل تماماً الأرضية الاجتماعية للمعركة ، والتحالف الاستراتيجي بين إسرائيل والاستعمار في مواجهة حركات التقدم في العالم . ويعجز هذا الموقف عن تقديم تفسير شاف للضمانات التي تمنحها الدول الاستعمارية لاسرائيل الحيلولة دون المساس بكيانها : حتى ولو تطلب الأمر التدخل المباشر والمسلح لصالحها .

ولا يترتب على هذا الموقف التهوين من شأن صلة اسرائيل بالدوائر الاستعمارية ، والتهويل من قدرة اسرائيل على تحريك هذه الدوائر من اجل مصالحها الخاصة فحسب ، ولكن يترتب عليه كذلك **نظرة خاطئة الى قضية اسرائيل** ، من شأنها الحد من قدرتنا وفعاليتنا في مناهضتها .

يجب ان نعترف ان **الصهيونية لاتتساوى في دلالتها عند جميع اليهود** . والموقف منها يتباين مع تباين الموقع والظروف الاجتماعية . فقد اشتهر بعض اليهود بموقف العداء السافر للصهيونية ، مثل روزنتال الامريكي . كما وقف بعض اليهود موقف الدفاع الصريح عن العرب اثناء العدوان الأخير مثل الاستاذ بيتلهايم ، وماكسيم رودنسون . وهذا لاينفي بطبيعة الحال ان الصهيونية قد نجحت في تعبئة عدد كبير من

اليهود للدفاع باستماتة عن اسرائيل لدرجة ان قضية ولائهم لأوطانهم الأصلية اصبحت على شك في نظر حكومات الدول التي ينتمون اليها.

ولكن يجب التسليم بأن قدرة الدعاية الصهيونية على تعبئة جمهور عريض من المناصرين لها في اوروبا لم يكن يرجع فقط الى الأموال الباهظة التي أنفقتها ، او الى مجرد وجود عقدة الذنب في اوروبا بسبب الاضطهاد النازي لليهود . وانما كان يرجع كذلك الى قصور في أوجه دعايتنا ، او على وجه الدقة الى موقف فكري خاطىء يوحد بين الصهيونية وكل اليهود في العالم .

والواقع ان الموقف القائم على اعتبار ان اسرائيل هي الأساس وان دول الغرب لم تساندها إلا بفضل قوة المنظمات الصهيونية ، موقف يقلل من مسؤولية الاستعمار العالمي في مساندة العدوان . فاسرائيل لم تكن تجرؤ على القيام بهجومها المباغت صبيحة الخامس من حزيران لولا جو التوتر والحرب الذي انشأته تحركات الأساطيل الامريكية والبريطانية في الأيام السابقة ، ولولا وعود امريكا وبريطانيا باستعدادهما لفتح خليج العقبة ولو بالقوة .

الموقف الثاني : وهو موقف مناقض للأول تماما . **فهو يعتبر ان اسرائيل ليست سوى ذنب للاستعمار يحركها كما يشاء .**

فهو اذن موقف يفترض ان اسرائيل هي مجرد امتداد لمخطط الاستعمار العالمي ، وعلى رأسه الاستعمار الامريكي ، ليس الا . **وهو موقف يقلل من السمات المميزة « للعدو الخاص » ، والفاعل الأصيل في ارتكاب العدوان .**

ان اسرائيل تتسم بطابع خاص متميز تتفرد به دون غيرها من «قواعد الاستعمار» . فهي تستطيع ان تعبىء جزءاً هاماً من الرأي العام العالمي لمناصرة تحركاتها ، ولو اتسمت هذه التحركات بطابع العدوان السافر ، كما اثبتت ذلك الاحداث الاخيرة .

ويرجع ذلك الى ان اسرائيل ليست مجرد اداة في يد الاستعمار ، بل هي في نظر كثير من اليهود وغير اليهود **« حل » لمشكلة قومية** . وعلينا ان نسلم بأن الدعاية الصهيونية استطاعت ان تعبىء رأياً عاماً واسعاً في العالم لمناصرة هذا « الحل » وتطبيقه ولو بالقوة المسلحة على حساب تشريد مليون ونصف المليون من العرب من شعب فلسطين. ولكن علينا ان نسلم كذلك بأن نجاح الصهيونية في تنمية نوع من الشعور القومي الشاذ داخل اسرائيل لا يرجع الفضل فيه الى جهود الدعاية الصهيونية وحدها ، بل ساهم العرب في ذلك ايضاً بامتناعهم عن التمييز بين رفضهم المشروع

لوجود إسرائيل كياناً عنصرياً ، وبين التورع عن اللجوء ايجاباً الى كافة الاساليب الكفيلة باضعاف مكونات هذه الدولة .

فثمة متناقضات متنوعة الطبيعة داخل اسرائيل، ينبغي التسليم بأن العرب لم يبذلوا الجهد اللازم لاستثمارها بكفاءة لصالحهم. وذلك ضمن اطار الرفض الجذري للحركة الصهيونية بكل آثارها وتجسيداتها .

فاسرائيل ، القائمة على العنصرية ، تميّز اولاً بين مواطنيها اليهود والاقلية العربية التي تعتبرها تتشكل من « مواطنين من الدرجة الثانية » . وهي تميّز ثانياً بين اليهود الوافدين من اوروبا ، واليهود الوافدين من البلدان الشرقية والعربية .

علاقة اسرائيل بالاستعمار :

والآن ما هي علاقة اسرائيل بالاستعمار ؟

ان علاقة اسرائيل بالاستعمار ليست علاقة من النوع البسيط الذي يقتصر على علاقة التابع بالمتبوع. فلا الاستعمار هو التابع بمعنى ان اسرائيل تستطيع ان تحركه كيف تشاء من خلال نفوذ المنظمات الصهيونية ، ولا اسرائيل هي التابع بمعنى انها مجرد ذنب للاستعمار وامتداد لوجوده .

تنهض علاقة اسرائيل بالاستعمار على أسس اكثر تعقيداً . فهي اقرب الى حليف خاص للدول الاستعمارية الكبرى منها الى ذنب لها .

وقد أثبتت الأحداث الأخيرة ان اسرائيل قادرة على استبدال حليف استعماري بحليف آخر ، كما اثبتت انها تحتفظ بقدر من الاستقلالية إزاء الدول الاستعمارية جميعها . وهي قادرة على استثمار مواقف الدول الاستعمارية المختلفة لصالحها . وهي قادرة كذلك على ان ترفض بعض ماتطلبه منها دول استعمارية كبرى اذا قدرت أن هذه المطالب تتنافى مع مصالحها الذاتية .

وادراك هذه الحقيقة ، وهي ان علاقة اسرائيل بالاستعمار تتسم بصفة « الحليف الخاص » قبل ان تتسم بصفة « التابع » او « المتبوع » أمر جوهري لمعرفة وتحديد الطريق لازالة كيانها العنصري .

مواجهة اسرائيل :

لاينبغي أن ننسى ان **الأصل** في مناهضة حركة تحرر الشعوب بشكل عام هو الاستعمار العالمي وعلى رأسه الاستعمار الامريكي . وان اسرائيل في اطار القوى المعادية هي مجرد **جزء** . وهذا الجزء أياً كانت سماته الخاصة وخطره ، لايمكن ان يرتقي وحده الى **الكل** . ومهما كانت وطأة ظروف النكسة الراهنة وتأثيرها في جذب الانتباه الى اسرائيل اساساً ، فلاينبغي ان تفقدنا هذه الظروف اتجاهنا ، فنبحث عن حلول لمواجهة اسرائيل تقوم عملياً على اعتبار ان اسرائيل هي الأساس وما الاستعمار الا حليف لها ،

نعاديه أو نواجهه بالقدر الذي يتم ذلك مواجهة اسرائيل فقط . وانما ينبغي ان يستند نضالنا في الجوهر الى كافة القوى العالمية المعادية للاستعمار . وهذا التشخيص بالطبع لاينبغي ان ينسينا – في الوقت ذاته – ان اسرائيل هي « العدو الخاص » وهي «الفاعل الاصيل» في العدوان الاخير .

ان طرح القضية في اطارها الصحيح يخلق انسب الظروف لازالة آثار العدوان في الأمد القصير ، ولنسف كيانها كقاعدة عنصرية للتوسع والعدوان في المستقبل .

الا أن انجاز هذه الغاية بنجاح ، والتحكم في الموقف بصورة ايجابية وفعالة ، يستدعي تحديد عدد من القضايا المنهجية والمبدئية :

أولا : تجريد مواجهتنا لاسرائيل من شبهة العنصرية في أية صورة كانت فالعنصرية وقود للاستعمار واسرائيل ، وهي ذخيرة فاسدة في ايدينا ترتد علينا . وان الموقف العنصري في مواجهة اسرائيل هو توسيع لجبهة « العدو الخاص » بدلا من تضييقها ، ومعناه السير في خط مواز للدعاية الصهيونية وموافق لها .

ثانياً : تجاوز النظرة الى اسرائيل ككتلة واحدة متجانسة ، والاسهام بصورة ايجابية في فك مكوناتها المتنابذة .

ثالثاً : التمييز بين اسرائيل كدولة عنصرية وعدوانية ، وبين اليهود كبشر وكطائفة في فلسطين ، والتأكيد على ان رفض اسرائيل كدولة تنهض على مؤسسات عنصرية وعدوانية لايعني قط ازالة وابادة الطوائف اليهودية القائمة حالياً في فلسطين .

ان هذه النقاط الثلاث تستهدف تحديد « العدو الخاص » بدلامن ان نسهم من جانبنا في توسيع نطاقه .

ويفترض هذا الموقف في الوقت ذاته تركيز اتجاه ضربتنا بكل قوة على القوى السياسية والعسكرية التي تجسد في اشخاصها سياسة اسرائيل العنصرية العدوانية في ابشع صورها ، والمسؤولة اولا وقبل غيرها عن الجرائم التي ترتكبها ضد العرب . وهي التي تصر على الاحتفاظ بمكاسب العدوان ، وعلى اتخاذ اسلوب العنف اساساً لسياسة اسرائيل تجاه العرب .

* * *

قضية فلسطين

وامكانات الحل السياسي[1]

في غمار الجهود والاتصالات الدبلوماسية والسياسية . . كان من الطبيعي أن تفرض احاديث « الحل السياسي » نفسها على مجرى الأحداث .

ولابد من التسليم بأن تعبير «الحل السياسي» قد إكتسب في هذه الأيام سمعة سيئة . وخاصة بعد المحاولات المغرضة والمشبوهة التي تبذل هنا وهناك لجعل الحل السياسي قناعاً يخفي عمالة

(١) مجلة الكاتب – القاهرة – العدد (٧٩) تشرين الاول – أكتوبر ١٩٦٧ ، ص ٦

العملاء ، وتسمية دبلوماسية مهذبة يغلف بها الاستعماريون الاستسلام غير المشروط .

ولكن ذلك كله يجب الا يفقد القوى الثورية الاتجاه او يدفعها الى موقف الرفض الملتزمت لأية حلول سياسية . فثمة خط فاصل بين المفهوم الثوري للحل السياسي وبين المفاهيم الانهزامية التي تروج لها الثورة المضادة . ان اتضاح الرؤية في هذا المجال هو وحده العاصم من الخطأ . ولابد للتوضيح من ذكر عدة نقاط :

ـ ان الحل السياسي ليس بديلا عن النضال ؛ وانما هو شكل من اشكال النضال المتعددة . وهو ليس « وصفة سحرية » تغني عن الحل العسكري . فأي حل سياسي لايمكن ان تفرضه او تحميه اوتضمن تنفيذه سوى القوة العسكرية . ولذلك لايجوز الفصل بينها أو النظر اليها كحلين متقابلين ، بحيث يعتبر الالتجاء الى احدهما رفضاً او تخلياً او استغناء عن الآخر .

ـ يجب ألا نخلط ابداً بين الحل السياسي « لازالة آثار العدوان » والحل السياسي « لقضية فلسطين » . فالعرب يواجهون اليوم مهمتين .. الأولى عاجلة وهي ازالة آثار العدوان ، والأخرى استراتيجية (بعيدة المدى) وهي إزالة بؤرة العدوان .

والصهيونية — ومن ورائها الاستعمار — تحاول استغلال ظروف النكسة لتفرض على العرب حــلاً سياسياً يقلب « تصفية آثار العدوان » الى « تصفية لقضية فلسطين » . ولذلك تصر اسرائيل على ربط انسحاب قواتها بالصلح والمفاوضات المباشرة مع العرب .

والقوى الواعية تميز بوضوح بين ابعاد الحل السياسي « لازالة آثار العدوان » وبين أبعاد الحل السياسي « لقضية فلسطين » . فالحل السياسي لازالة آثار العدوان لايفترض ازالة اسرائيل . اذ يجب إزالة هذه الآثار قبل ان تتوفر الامكانات الذاتية لاستئصال هذا الورم السرطاني . وقد سبق ان ازيلت آثار عدوان ١٩٥٦ دون ان يتطلب ذلك ازالة اسرائيل من الوجود .

المهم هو ان أي حل سياسي لمهمة العرب التاكتيكية (١) يجب ان لايكون على حساب مهمتهم الاستراتيجية (٢) . لأن تحقيق هدفنا العاجل ، وهو ازالة آثار العدوان ، لايجوز ان يكون ثمنه هو التخلي عن هدفنا الآجل وهو تحرير فلسطين .

أما بالنسبة لقضية فلسطين فان اي حل سياسي لايمكن أن يكون مقبولا اذا لم ينطلق من ضرورة تصفية اسرائيل (كدولة) واذا لم يؤد فعلا الى ازالة هذا الوجود الاستعماري .

— ومعركة تحرير فلسطين لايمكن أن تخاض على الجبهة العسكرية وحدها . فالنضال

---

(١) (٢) اكثر مايستخدم هذان الاصطلاحان في المجال العسكري . ويقصد بالاول الاهداف المباشرة ، وبالثاني البعيدة وغير المباشرة .

السياسي من اجل ازالة الوجود الاسرائيلي جانب هام وأساسي من جوانب النضال العربي ، وخاصة خلال الفترة التي تسبق نضج الظروف الذاتية والموضوعية خوض معركة التحرير الفاصلة لاسترداد الارض السليبة .

والواقع ان الطريق الى تحرير فلسطين طويل وشاق ، ومليء بالصعاب والتضحيات التي يجب الا نستخف بها حتى لانتزلق في درب المغامرة ، كما يجب الا نبالغ فيها حتى لانغرق في لجة اليأس فنهرب من تحمل تبعات النضال.

وبديهي أن انتظار التوقيت المناسب لمعركة التحرير الفاصلة لايعني أن تشطب الأمة العربية من جدول اعمالها اي شكل من اشكال الصدام المسلح مع اسرائيل . خاصة وان اسرائيل لم تكف منذ اعلان قيامها عن اعتداءاتها المتكررة ، على العرب . لذلك يجب ان يتوقع العرب دوماً عدوان اسرائيل ومباغتتها .

واذا فرضت المعركة على العرب قبل الأوان فلا يجب ان يفقدهم ذلك رؤوسهم ، او يدفعهم الى رفع الرايات البيضاء .

ان كل القوى المحبة للسلام والمناضلة من اجل تصفية الاستعمار في سبيل التقدم يجب أن تدرك ان أي حل سياسي لقضية فلسطين لايمكن التوصل اليه من خلال التعايش والتفاهم العربي والاسرائيلي ، وانما يجب ان يقوم على اساس تصفية الوجود الاسرائيلي . وذلك لأسباب:

أولها : أن اسرائيل ليست دولة . وانما كيان عنصري استعماري يفتقد الى مقومات الدولة . والتعايش السلمي مبدأ يحكم العلاقات بين الدول .

وثانيها : ان مابين العرب واسرائيل ليس نزاع حدود اقليا ، وانما هو نضال وكفاح تحرري .

وثالثها: أن من البساطة في التفكير أن يتصور احد قبول اسرائيل للتعايش السلمي مع جاراتها العربيات .

ويستعرض الكاتب بعد ذلك هذه الاسباب بشيء من التفصيل .

اسرائيل ليست دولة : من الخطأ أن ننظر الى النزاع العربي الاسرائيلي على اعتبار انه نزاع دولي قائم بين مجموعة من الدول . ذلك لأن اسرائيل كيان استعماري يفتقد الى مقومات الدولة . واليهود لايكونون امة ؛ لأن الامة حسب التعريف العلمي مجموعة مستقرة من الناس تكونت عبر التاريخ وانبثقت من خلال وحدة اللغة والارض والحياة الاقتصادية ، ومن مزاج نفسي واحد يعبر عن نفسه في ثقافة قومية خاصة .

والمجتمع الاسرائيلي مجتمع مصطنع ؛ لأن شعبه مستورد من الخارج. وتدل الاحصاءات الاسرائيلية ذاتها على انه حتى نهاية ١٩٦٤ كان ٣٩,٣ ٪ فقط من سكان اسرائيل من مواليد اسرائيل .

والوجود الاسرائيلي « مولود غير شرعي » في الحياة الدولية ، لأن دولة اسرائيل تفتقر

الى أي سند يكفل لها الشرعية . فتصريح بلفور غير شرعي ، لأن بريطانيا بوصفها الدولة المنتدبة على فلسطين لم يكن من حقها التصرف في فلسطين وكأنها من ممتلكات التاج البريطاني . وقرار تقسيم فلسطين غير شرعي ، لأن ميثاق الامم المتحدة لايعطي الجمعية العامة سلطة أصدار قرارات ملزمة . كما أن قرار التقسيم يتناقض مع الميثاق ويهدر حقوق عرب فلسطين في تقرير مصيرهم .

النزاع ليس نزاع حدود : تحاول الدوائر الاستعمارية والصهيونية تصوير النزاع الدائر في الشرق الاوسط على انه نزاع حدود بين اسرائيل والدول العربية المجاورة . وتستخلص هذه الدوائر نتيجة قد تبدو للوهلة الاولى منطقية . وهي ان هذا النزاع – كأي نزاع حـدود – يمكن او يجب أن يسوى بالمفاوضات والطرق السلمية .

لذلك يتعين على العرب ان يحرروا قضية فلسطين من اطارها الاقليمي الضيق ، وان يضعوها في اطارها العالمي .

والصراع بين العرب وإسرائيل ليس نزاعاً طائفياً او عنصرياً ، وليس نزاعاً علياً او اقليمياً . انـه جزء لايتجزء من الصراع العالمي ضد القوى الامبريالية . ولولا ذلك لما القت الامبريالية العالمية بكل ثقلها الى جانب اسرائيل في الحرب العدوانية الاخيرة . ولما سخرت مبتكراتها التكنيكية في خدمة المعتدين الاسرائيليين .

اسرائيل لن تتخلى عن العدوان : ان صيحات التعايش السلمي التي تنطلق بين الحين والآخر من افواه الصهاينة يجب الا تخدع احداً . فاسرائيل – قاعدة العدوان الاستعماري – لايمكن ان تتعايش مع الدول العربية . لان اسرائيل يوم تتخلى عـن عدوانيتها تفقد مبرر وجودها .

واذا كانت اسرائيل تتشبث اليوم بعقد الصلح مع العرب ، فليس ذلك حباً في السلام وانما طمعاً في استغلال الصلح كنقطة انطلاق لمزيد من التوسع والتغلغل ، واملاً في مواصلة العدوان على العرب بعد الصلح وفي ظـل الصلح من موقع افضل .

وبهذا المنطق قبلت اسرائيل في الماضي قرار التقسيم الذي اعتبرته مجرد حجر أساس لدولة « اسرائيل من الفرات الى النيل »

لذلك كله يؤكـد ان العرب ان طريق السلام في الشرق الاوسط لايمر عبر المفاوضات ومعاهدات الصلح . فالسلام لن يتحقق الا بازالة الوجود الاسرائيلي .

والواقع أن تصفية الوجود الاستعماري في اسرائيل ، واقامة الدولة الفلسطينية ليس معركة العرب وحدهم . انها قضية يجب أن تتبناها وتؤازرها كل القوى المعادية للامبريالية وكل القوى المحبة للسلام في العالم .

تلك هي أمكانات الحل السياسي لتحرير فلسطين . وتلك هي الابعاد التي تضمن أن يكون الحل السياسي حلاً منزهاً عن التفريط أو المهـادنة في قضية لاتحتمل أي تفريط أو مهادنة .

غويفارا (١)

بقلم بن يحمد

ترجمة ا . ل .

« سواء استقرّ في قبر مجهول ، أو تمكن مرة اخرى من الهرب ليظهر من جديد في مكان آخر ، فان هذا الرجل الشجاع يستحق الاحترام والتقدير » . ان صاحب هذه الكلمات هو امريكي ، أحد رؤساء تحرير صحيفة « نيويورك تايمس » . والرجل الذي يتحدث عنه هو بالطبع « شي » غويفارا ، العدو الأول للولايات المتحدة .

التقيت به مرة واحدة سنة ١٩٦٠ ، في فجر ثورة كوبا . كان آنـــذاك رئيساً لمصرف كوبا . فبعثت اليه ، من احدى العواصم الافريقية التي كنت فيها ، ببرقية ألتمس فيها حديثاً معه . وتلقيت في اليوم التالي الجواب التالي : ان المقدم ارنستو غويفارا ينتظرك ظهر الثلاثاء .

في الساعة المحددة ، كنت في هافانا ، في بهو الانتظار لمصرف كوبا . وبعد دقيقتين او ثلاث دقـــائق ، انفتح باب المصعد ، ثم دخل الى البهو ، بخطى سريعة ، رجل ربعة ، في مقتبل العمر ، شاحب الوجه . واذ اقبل يسلّم عليّ ، لم ألاحظ

(١) المصدر : مجلة « افريقيا الناشئة » « JeuneAfrique » العدد ٤ ٣٥ (٢٢ تشرين الأول – أكتوبر ١٩٦٧ .

لحيته الطريفة المشوشة ، ولا سترته الخاصة المفتوحة ، ولا قبعته الزرقاء المائلة الى السواد تزينها نجمة حمراء ، بل لاحظت فقط عينيه الواسعتين السوداوين ، تبتسمان وشفتيه في وقت واحد . كنت اتوقع أن التقي برجل شرس ، وها أنذا أمام انسان خجول الى حد ما ، تطغى عليه العذوبة .

استمر حديثنا ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وإثر في نفسي تأثيراً عميقاً . ان غويفارا لايشابه أياً من الرجال الأفذاذ الذين اجتمعت بهم ، قبل ذلك التاريخ وبعده . لقد وُصف بالرومانتكية والشاعرية ؛ وكتب الكتّاب طويلاً عن تصلبه الثوري . فقد كان غاية في الدقة والتنظيم بحيث لايمكن ان يكون شاعراً ولا رومانتيكياً ؛ وإنّ الذي كتب هذه الكلمات « عليّ » أن اقول ، حتى لو بدا ذلك مضحكاً ، إن الثوري الحقيقي تقوده مشاعر الحب » لايمكن ان يكون ذاك المحترف للثورة العنيفة التي طالما تحدث الناس عنها .

ان الرجل الذي تخلى ، وهو في سنّ الرابعة والعشرين ، عن بلده ، ودراسته ، وعائلته ، وحياته البورجوازية ، واندفع الى مكان مجهول راكباً دراجته ، والرجل الذي تجاوز ، في تلك السنّ ، مفهوم الوطن ، ليناضل ضدّ الظلم في غواتيمالا ، ثم في المكسيك ، ثم في كوبا ؛ والرجل الذي لم يكد ، بعد اثنتي عشرة سنة من ذلك التاريخ ، يطمئن الى ان الثورة التي أنجحها ، وسلّمها الى أيدي رفاقه في السلاح ، حتى ذهب الى مكان آخر ، وقد كتب الى فيدل كاسترو : « إن ثمة بلاداً اخرى تحتاج الى جهودي المتواضعة . . إنني لا أترك أية ثروة مادية لزوجتي واولادي ، وليس في ذلك مايحزنني . إنني لا ألتمس شيئاً لهم . فستوفر الدولة لهم وسائل العيش والتعليم ... وحين تدنو ساعتي الأخيرة وانا تحت سماء غير هذه السماء ، فسيتجه تفكيري الأخير الى شعب كوبا ، واليك ... » ... انهذا الرجل لانظير له في عالم اليوم . إنه يعيد

الثقة بالانسانية الى اكثر الناس تشاؤماً. وإنني لفخور ان يكون هذا الرجل من مواطني بلاد العالم الثالث .

كان غويفارا ، مثل جميع الرجال العظماء يعرف انه يختلف عن الآخرين ، وانه اكثر حساسية وارحب نفساً منهم. والسمة التي تميزه من سائر الرجال العظماء، وتقرّبه من لينين ، هي كونه لم يَزْهُ بعظمته، ولم يأخذ الآخرين بأيّ احتقار. كان على العكس من ذلك ، يريد ان يكون جميعُ الناس مثله ، وكان يثور احياناً او ينفعل لأن الأمور لم تكن كذلك . فكرة وحيدة سيطرت على حياته ، هي تحويل الانسان الضائع في هذه الأيام الى انسان جديد وحرّ . «يهمنا ان يشعر كل فرد بأنه أصبح اكثر غنى في داخله ، ومزوداً بمسؤولية اكبر. ويعنينا ان يكون لدى الناس كل يوم شعور باندماجهم الضروري في المجتمع ، وفي الوقت ذاته شعور باهميتهم في تحريك المجتمع ».

« ان الطريق طويلة ، وهي مجهولة الى حدّ ما . يجب ان نعود في اغلب الاحيان الى الوراء . ففي بعض الاحيان وحين نمضي بسرعة كبيرة ننفصل عن الجماهير . وفي أحيان اخرى نسير ببطء كبير بحيث نحسّ بالجماهير تدوس على كعابنا . اننا بوصفنا ثوريين ، نحاول ان نسير بأقصى سرعة ممكنة لنفتح الطريق، ولكننا نعرف أن علينا ان نلتمس الغذاء من الجماهير ، وأن هذه وحدها تستطيع ان تتقدم بسرعة حين نحركها لتقتدي بناء.

ان الرجل الذي كتب هذه السطور، وفعل مافعله غويفارا ، وعاش حياته ، هو غويفارا الذي استقطب احترام الجميع، بما فيهم اولئك الذين كانوا يرون فيه كابوساً مخيفاً .

لقد مات وسلاحه بيده ، في خدمة الفكرة التي هيمنت على حياته ، مات وهو متيقن من أنه « عمل على دعم الثورة بشرف وتضحية » . وقد ظلّ حتى آخر دقيقة من حياته ، محتفظاً بالأمل .

لماذا يكره الناس الأمريكيين [1]

ترجمة : دلال حاتم

يعتبر نورمان ميلر Norman Mailer أحد كتاب الجيل الجديد البارزين في امريكا ومن اكثرهم صراحة .

وقد سجل آخر كتاب صدر له وهو رواية بعنوان « حلم امريكي » Un rêve américain أرقاماً كبيرة من حيث المبيع في فرنسا واعتبر من اكثر الكتب رواجاً أثناء الربيع والصيف .

وقد قامت الصحفية الايطالية اوريانا فالاتشي Oriana Fallaci باجراء مقابلة مع نورمان ميلر وضعته فيها وجهاً لوجه امام بلاده ومشكلاتها الحاضرة .

س: كنا في اوربا ، ومنذ عشرين عاماً ، نحب الاميركيين كثيراً وذلك عندما اتيتم لتحريرنا . لقد اعتبرناكم في ذلك الوقت ملائكة . ولكن الذي حدث الآن ، هو اننا لم نعد نحبكم ، بل نكرهكم . ان امريكا هي اليوم ، على الأغلب ، من اكثر البلدان تعرضاً لكراهية شعوب العالم .

---

(١) المصدر مجلة Le Figaro Litteraire № 1114 21 Aout 1967

ج : لقد احببتمونا في الماضي لأن الحب يعني الأمل . وقد كنا بالنسبة لكم أملا .

وربما أيضاً لأنكم ظننتم منذ عشرين عاماً اننا شعب طيب ، ولكن طيبتنا هذه كانت أقل مما كنتم تعتقدون ، وبذور الشر الاميركية كانت موجودة منذ ذلك الوقت ، فالجنود الذين قاتلت معهم في الباسفيك كانوا اكثر طيباً الى حد ما من الذين يقاتلون في فيتنام ، ولكنهم كانوا سيئين على كل حال . ومن الممكن ان اكتب اليوم رواية عن فيتنام مثل رواية العراة والموتى Les Nus et les Morts ولن تكون شخصياتها اكثر قذارة من شخصيات الرواية الاولى انكم ترونا اليوم اكثر عنفا ولكنكم لاتدركون ان لهذا العنف جذوراً قديمة .

صحيح أن انتصار قوى الشر قد تكرس بعد الحرب في التطور الصناعي وفي تحول الانسان الفرد الى الانسان المجموعة ، وفي ضياع الانسان عن وجوده الحقيقي . ولكن هذه القوى كانت قد بدأت تنمو منذ تسلم روزفلت الحكم ، لقد كان روزفلت رئيساً كبيراً ولكنه لم يكن مفكراً كبيراً . وعندما اتى الى الحكم كانت امريكا على مفترق الطرق . اما ان تدخل الرأسمالية في طور جديد ، او تحدث ثورة بروليتارية .

والذي حدث هو ان الرأسمالية قد تحولت الى رأسمالية الدولة . وليس من قبيل الصدفة ان تكون المؤسسات الكبيرة التابعة للحكومة ممثلة لليمين .

وقام اليمينيون القذرون بتهديم وتحطيم كل شيء معقول في الحياة الامريكية . ان الذين يقومون بشق الطرقات الواسعة ويحولون الحياة الامريكية الى حياة بالغة الترف ، هم انفسهم الذين يقطعون الاشجار ويدنسون المياه ويسممون الهواء .

س ــ هنا في اوروبا اختصاصيون ايضاً في هذا المجال. فليس الامريكيون اليمينيون وحدهم يتصرفون كذلك.

ج ــ صحيح . ان الظاهرة عالمية ، ولكن امريكا هي زعيمتها ، وهذا هو

السبب في كراهية الناس لها، لأنها زعيمة التطور التكنولوجي والثورة الاليكترونية التي تجرد الانسان من انسانيته . انتم ايضاً في اوروبا مذنبون لأنكم تتعامون عنها اسوأ اشكال الحياة الامريكية .

لقد غزت اجسامنا سموم الراحة ، ونحن نحاول أن ننتج نظاماً شاملاً في الحكم ليس فاشياً ، ولا نازياً ، ولا ستالينياً . ولكنه يشبه الداء ، كالسرطان . انظري كيف تخدع الرأي العام ، كيف تحطم الفرد ، والأصالة بجعل كل الاشياء في مستوى واحد .

س — لقد نشأت امريكا من النزعة الفردية والعصيان .

ج — هذا صحيح ، ان الذين أتوا ، والذين اوجدوا امريكا كانوا جماعة طيبين ، ولكن بينهم ايضاً اناساً سيئين جداً ، اناساً لم يكونوا محبوبين ، وهم لسبب سياسي او اقتصادي او ديني قد طردوا من المجتمع الاوروبي . وقد اختاروا امريكا لأنهم لا يريدون أن يموتوا . وهكذا فان الذين اوجدوا امريكا اناس طيبون واناس اشرار .

وماذا كان منا نحن أبناء الاشرار؟ . لقد حاولنا جهدنا أن نجده انفسنا ، وأن نحل المشاكل العملية ، ولكننا مع ذلك احتفظنا بجنون أجدادنا الاشرار . هذا الجنون الذي بدأ مع بداية التاريخ الامريكي . ان الامريكيين ليسوا اصحاء العقول .

ان امريكا هي كالرجل المريض ، رجل معقد ، يعاني مرضاً فتاكاً وينقل عدواه الى العالم كله .

س — لماذا تبقى هنا ولا تذهب إلى اوروبا كما فعل كتاب آخرون مثل همنغواي وفيتزجيرالد وميللر .

ج — أريد قبل كل شيء أن اكون أحد الأطباء الاخصائيين الذين يهتمون بهذا المرض ، ثم إن أمريكا تسحرني وهي في حالات بأسها وبؤسها . وإذا تكلمنا عن امريكا كمريض فلا يجب أن نتصورها

مريضاً مشلولاً يجلس على كرسي ذي عجلات تدفعه الممرضات اللواتي يعطينه في كل دقيقة حقناً مسكنة لتضعف من مقاومته.

إن المقاومة قوية في أمريكا والشباب أقوياء، وقد صفقوا لي كثيراً عندما هاجمت في احدى الندوات التلفزيونية سياسة جونسون بشأن فيتنام. لايمكن القول ان كل شيء سيء في أمريكا. هناء أشعر انني في بيتي، أما في اوروبا فأشعر انني مضطرب وضائع كصبي في الخامسة عشرة.

س — لنعد إلى امريكا، والى انحطاطها.

ج — ربما كانت امريكا منهارة... ولكن اذا قارناها مع اوروبا: نجد ان لندن اكثر انهياراً وانحطاطاً من نيويورك. كلا اننا بعيدون عن مرحلة الانحطاط حتى أننا لم نصل بعد إلى المرحلة التي تسبقها وهي مرحلة: النهضة.

س — يقال إن جونسون في رئاسته اكثر أمريكة من كندي.

ج — هذه هي المشكلة وهذا مايدفع الاوروبيين لكره امريكا. ان جونسون انسان فارغ بالمعنى الفلسفي، وكربه مثل كأس فارغة. انه برهان على ان السياسة الاميركية هي أسوأ عيب في الحياة الاميركية، انه نموذج لما يبيد! لذا فانني احتقره. وقد أجد فيه بعض المزايا لو التقيت به، أعرف مثلاً بأنه راوية بارع للقصص.

وربما نال اعجابي اذا اظهر للجمهور نفسه على حقيقته. أما الآن فانا لا أرى إلا تفاهته، وجشعه، وهوسه في الطبخات السياسية. واعتقد ان مثله الأعلى هو حبه لبناته. يقال انه أب طيب لبناته وليس لنا. وهذا لايساعدنا على الخروج من تشاؤمنا، وان كنت ما أزال أملك الأمل بالشباب.

س — هل تؤمن بالشباب بالرغم من عقار (ل.س.د) والعنف والمخدرات؟

ج — إن الشباب جيل بالغ التعقيد، والشيء الوحيد الذي أستطيع ان اقوله

عنهم : هو انني لا أفهمهم لقد عاش الجيل السابق دون مفاجآت، أما هذا الجيل فان حياته مفاجـأة مستمرة . انني اجتمع بالشباب واستمع اليهم ، واكتشف انني لا أكبرهم بعشرين عاماً فقط بل بمائة عام.

إنهم يتناولون العقاقير هذا صحيح ، ولكنها ليست العقاقير القديمة كالهيروين والكوكايين والماريجوانا ؛ إنهم يتناولون عقار (ل . س . د) وهي حبوب تشحذ الفكر . إنني لا أبرر استعمال هذا العقار، فالمعروف أنه لا يمكن الحصول على شيء دون مقابل ، بل ربما كلفنا الحصول عليه ثمناً مرتفعاً جداً .

إن هذا العقار ليس إلا جزءاً من اكتشاف ، اكتشاف يائس . ويبدو أن هؤلاء الشباب يشعرون بضرورته ليتخلصوا من حالة اليأس التي يتخبطون فيها . لقد خنقت التكنولوجيا أفكارنا حتى كدنا نصبح أشخاصاً فاقدي الذكاء.

س ــ وماذا تقول عن عنفهم ، انك كاتب عنيف ولا بد أنك تعرفهم .

ج ــ إن أحسن الشباب يشاون العنف ، وامريكا عنيفة منذ بداية تاريخها ان طبيعة العنف كامنة في أعماقنا ، حتى الذين يبحثون عن الهدوء والأمن، يكفي أن تكلمهم لتكتشف أن العنف كامن في دمائهم كمرض وراثي .

ثم ان الحياة المترفة إلى أقصى الحدود والراحة تدفعان إلى العنف . إن البيوت في ناطحات السحاب والتي لا يصل إليها الانسان إلا بالمصاعد الكهربائية تجعل الناس سيئين . وقد عانيت هذا الموضوع، اني أعيش وقبضة يدي مطبقة باستمرار، وعندما أسير أضرب بها الجدران .

س ــ انك ككل الامير كيين لا تستطيع ان تبقى وحيداً، وقد تزوجت اربع مرات ، لماذا تخشى الوحدة بهذا الشكل ؟

ج ــ اننا هنا نفتقد شيئاً لا تفتقدونه في اوربا هو « الثقافة » . فهنا ، ما أن يبتعد الانسان عن احدى المدن ، حتى يغوص في الفراغ، فراغ يذكر بسيبريا،

والأمر مختلف في بلادكم، ففي كل منعطف طريق يوجد شيء جميل: كنيسة، شجرة، منزل قديم، لحظة حياة. هنا لا يوجد إلا الفراغ والفقر. ومن الصعب ان يشاهد الانسان هذه الطبيعة العارية وحيداً خلال ساعات وفي هذه الطرقات الواسعة الطويلة.

في اوربا. وفي المدن الكبيرة يضيع الانسان، ان هذه المدن آمال جديدة بالنسبة لكم. أمـا هنا فان ناطحات السحاب لا ترتفع على قاعدة تاريخية اوفنية مما يشعر الانسان بالوحدة. انني بحاجة ككل انسان الى اسرة وزوجة واطفال، وإلا فانني مضطر ان أنحب كل ليلة لى إمرأة.

س — يتهم الاوروبيون امريكا بانها بلد النساء القويات والرجال الضعفاء.

ج — ضعفاء كالعشاق بالتأكيد لا. ضعفاء امام النساء، ربما. ولكن بامكاننا أن نتحدث عن ضعف الرجل الامريكي في حالة اكثر عمقاً ومأساة. لقد كتبت مرة أن الحياة الامريكية تكاد تقضي على رجولة الامريكيين. انهم يفقدون شرفهم وكرامتهم، يقومون بأعمال غير شريفة، يبيعون النجاح لمن لا يؤمنون به، يقدمون للعالم انتاجاً غير صالح، ان كثيراً من الرجال في هذه البلاد قد فقـدوا رجولتهم، اوهم في الطريق الى فقدها.

ولكني اكرر. اذا كنتم في اوروبا قد فقدتم الأمل بنا، فأنا لم افقد هـذا الأمل. كل شيء ممكن في عالمنا، حتى معجزة أن نعود محبوبين من جديد.



* رأس من البرونز   عرفان حوجبنتي *

• تقيم مجلة (المعرفة) في دمشق من ٤ — ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ندوة لمعالجة الموضوع التالي : (المثقفون العرب أمام قضية فلسطين) .

ستتركز مناقشات الندوة على تحليل لموقف المثقفين العرب منذ صدور وعد بلفور وحتى منتصف عام ١٩٦٧ . وستثار أثناء المناقشة موضوعات فرعية للموضوع الاساسي : الوضع الراهن للقضية الفلسطينية في وجوهها المختلفة : القومية ، الحقوقية التاريخية ، الإنسانية ، الاجتماعية — فلسطين واللاجئون العرب — الأمبريالية والاستعمار الجديد ودورهما في قضية فلسطين — حوار المثقفين العرب مع مثقفي الغرب في موضوع فلسطين — موقف الغرب المثقف من قضية فلسطين — مكان الثقافة العربية في عالم اليوم ، وأخيراً تلقي الندوة نظرة على المستقبل ، وما يستطيع المثقفون العرب أن يقدموه نظرياً وعملياً لقضية فلسطين ، وتختتم بتوجيه نداء من المثقفين العرب الى مثقفي العالم .

يشترك في الندوة نخبة من المفكرين العرب والأجانب ، من بينهم المفكر الفرنسي الكبير جاك بيرك ، وبعض كبار المثقفين من القاهرة وبيروت والجزائر والعراق والمغرب ، ومن منظمة التحرير الفلسطينية .

وستنشر « المعرفة » موضوعات الندوة ومناقشاتها في عدد خاص بعد شهر أو شهرين .

• افتتح المسرح القومي بدمشق موسمه بمسرحيتين نضاليتين عالميتين . الأولى مسرحية (بنادق الأم كرار) للكاتب الالماني برتولد بريخت ، وقد اقتبسها المسرح القومي وأعطاها عنواناً جديداً (بنادق الأم امينة) ، وقام باخراجها د . رفيق صبان ، وكان متأثراً كعادته بالمدرسة الفرنسية في الاخراج . أما مسرحية (جزيرة الله) للكاتب الالماني منفريد ريختر ، فقد عربها واخرجها المخرج فيصل الياسري . وفي الاخراج

بعض النقائص التي يمكن التغاضي عنها إذا عرفنا أن هذا اول عمل مسرحي لهذا المخرج الذي تخصص في الاخراج التلفزيوني.

في مطلع تشرين الثاني الحالي يقدم المسرح القومي (دخان الاقبية) للكاتب السوري يوسف مقدسي، وهي من اخراج أسعد فضة.

● أصدر مكتب جامعة الدول العربية في بيونس أيرس نشرة مصورة باللغة الاسبانية Liga arabe (الجامعة العربية). يتضمن عدد آب – ايلول (أغسطس – سبتمبر) ١٩٥٧ مقالاً عن العدوان الاسرائيلي تحت عنوان (Revolucion, no guerra.. ثورة، لا حرب..) بقلم الأستاذ فؤاد الشايب مدير المكتب حالياً، ورئيس تحرير مجلة (المعرفة) سابقاً.

● يقيم النادي الثقافي العربي في بيروت، في النصف الثاني من تشرين الثاني الحالي، معرض الكتاب العربي الثالث عشر.

● أقيم في دمشق معرض (الفن اليوغوسلافي المعاصر)، ضم قطعاً نحتية ولوحات فنية لنخبة من الفنانين اليوغوسلاف المعاصرين. يمثل هذا المعرض مختلف الاتجاهات الفنية التي ظهرت بعد إعلان حرية الفن في يوغوسلافية عام ١٩٥١.

● مع الخريف عاد النشاط الى المراكز الثقافية الأجنبية بدمشق.

● أقامت الفنانة السورية فاندا أحيلة معرضها في المركز الثقافي العربي بدمشق.

تقوم الفنانة حيلة بتصميم أواني زجاجية، تزينها بعد خروجها من بين ايدي مهرة الصناع. الزجاج يذكرنا بمخترعيه الفينيقيين. الزهريات في اشكالها تشبه الأباريق الفارسية. أما التراجيل فمازال منظرها مألوفاً في المقاهي. كما ان الاقداح هي أقداح الشراب المعاصرة. الرسوم الزخرفية يغلب عليها ماء الذهب، وتتضمن عبارات واشكالاً تعبر عن فنوننا وتقاليدنا الشعبية في العهد العثماني.

● صدر للشاعر العراقي محمد علي الخفاجي المجموعة الشعرية (لوينطق النابالم-مطبعة آل البيت- كربلاء)،وهي تضم قطعاً من الشعر الحديث أنتجها الشاعر خلال أيام بعد العدوان الاسرائيلي . وهو مدرس في اعدادية كربلاء بالعراق، وقد صدر له مجموعة (شباب واسراب) عام ١٩٦٤ ومجموعة (مهراً لعينيها) عام



* طبيعة صامتة بهاء الدين سلمانو فيتش *

١٩٦٥ . قدم لمجموعة (لو ينطق النابالم) د . عناد غزوان إسماعيل أستاذ الأدب العربي بجامعة بغداد .

● صدرت الرواية الثانية للكاتب السوري جوزيف بيلونه (لقاء آخر) ، وكانت روايته الاولى (كلودينا) . رغم ان الروايتين محاولتان تفتقران الى العناصر الفنية الضرورية للرواية ، فان الكاتب يمتاز بصدق العاطفة .

●

صدر حديثاً عن

« وزارة الثقافة – دمشق »

١ – المادة والذاكرة :

الكتاب الذي يعتبر منطلقاً لنظرية الفيلسوف الفرنسي برغسون

ترجمة الدكتور أسعد درقاوي ، مراجعة : الدكتور بديع الكسم

٢ – الحركة النقابية في العالم :

تأليف جورج لوفران ، ترجمة مهاة فرح الخوري، مراجعة أنطون حمصي

سجل كامل لأهم الأحداث والتنظيمات والاتحادات والقوانين والتشريعات التي أعطت الحركة النقابية شكلها الحديث .

٣ – من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي :

دراسة لمعضلات التخلف الزراعي تأليف : الدكتور صلاح وزان

٤ – سوسيولوجيا افريقيا الحديثة :

كتاب عن البنية الاجتماعية لافريقيا الحديثة تأليف: جان زجلر ، ترجمة: احمد القادري ، مراجعة مها شرشر وأنطون حمصي .

٥ – مناهضة الثورة في افريقيا :

فضح للاستعمار الجديد وتآمره على شعوب إفريقيا . تأليف : جان زجلر ترجمة : الدكتورة مارسيل عنبي ، مراجعة : اديب اللجمي

٦ – محاضرات الموسم الثقافي – الجزء الثامن :

١٥ محاضرة عن موضوعات الساعة الهامة لكبار رجال الفكر العربي .

مطبوعات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

التي تقوم بتوزيعها دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

برنامج شيوخ الرعيني	أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الاشبيلي تحقيق ابراهيم شبوح
ديوان ابن مقبل	تحقيق د . عزة حسن
مقدمة في النحو	خلف الاحمر ـ تحقيق عز الدين التنوخي
تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب (الجزء الرابع الأقسام ١ ـ ٢ ـ ٣)	ابن الفوطي ـ تحقيق د ـ مصطفى جواد
إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى	محمد بن طولون الصالحي الدمشقي تحقيق محمد احمد الدهمان
الأزمنة والانواء	ابن الاجدابي ـ تحقيق د. عزة حسن
روضة الورد	سعدي الشيرازي ـ ترجمة محمد الفراتي
روائع من الشعر الفارسي	سعدي الشيرازي ـ ترجمة محمد الفراتي
دورة الربيع	رابندرانات طاغور ـ ترجمة د. بديع حقي
الثورة الجزائرية والقانون	محمد البجاوي ـ ترجمة علي الخش
حكايا جوقة التماثيل (مجموعة مسرحية)	سعد الله ونوس
تحت سماء الأندلس	زكي قنصل
الفن والأدب	لويس هورتيك ترجمة د. بدر الدين القاسم الرفاعي
أحاديث العشيات	د . عبد السلام العجيلي
الفولكلور الغنائي عند العرب	نسيب الاختيار
الشمس الغاربة	أسامو دازاي ـ ترجمة فائز بشور

الاقتصاد المخطط	جان روميف – ترجمة احسان سركيس
قال الراوي	الياس فرحات
زهرة النار (شعر)	عبد الكريم الناعم
شرح ديوان عروة بن الورد	تحقيق عبد المعين الملوحي
الاشتراكية في البلدان المتخلفة	محمد الجندي
الحياة حلم (مسرحية)	كالدرون – ترجمة نجاة قصاب حسن
اللاميتان (شعر)	الشنفرى والطغرائي
الأسطورة اليونانية	فؤاد جرجي بربارة
حبات زمرد	شفيق المعلوف
البقة (مسرحية)	فلاديمير ماياكوفسكي – ترجمة عماد حاتم
مئة قصيدة من روائع الشعر الحديث	ترجمة سليمان العيسى وناديا الياس
سيدة الفجر (مسرحية)	الخاندرو كاسونا – ترجمة علي الاشقر
غوطة دمشق	صفوح خير
العلم البارحة واليوم وغداً	مارسيل داغر
كيف نكتب تاريخنا القومي	تحقيق مجلة « المعرفة »
الحمامات الدمشقية	منير كيال
ديوان الشاعر المدني	قيصر سليم الخوري
درب الواحة (شعر)	علي كنعان
الثعلب والعنب (مسرحية)	جول هرم فيجويردو – ترجمة فيصل الياسري
كتاب الطبقات – القسم الاول	خليفة بن خياط – تحقيق سهيل زكار
المنصفات	جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي
أسس النقد الأدبي (٣ أجزاء)	تبويب : شورر ، مايلز ، ماكنزي ترجمة هيفاء هاشم
النساجون (مسرحية)	جيرهارت هاوبتمان – ترجمة محمد جديد